يوليو ٢٠١١ / العدد ٤

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

أسس التربية في رسائل النور

- سعيد النورسي خزانة تنتظر الاكتشاف
- المقاصد العملية للتربية السلوكية عند النورسي
- الحكمة وفصل الخطاب في منهج التربية عند النورسي
- مبادئ الإنسانية وتحديات العصر في نظرية سعيد النورسي

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 2, Number 4 (July 2011)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

النور
للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الامتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛
د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الاستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد الحليم عويس؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛
أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛
أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛
د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، مولاي الحسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة

يوليو ٢٠١١

Mega Basım – Haramidere / Istanbul
Tel: + 90 212 412 17 00

المركز الرئيسي

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١ــ التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير– يوليو)، تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢ــ تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

كلمة العدد: ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

نوادر البحوث: سعيد النورسي خزانة تنتظر الاكتشاف ..... رجب طيب أردوغان ٩

ملامح تجدد خطاب النورسي في مواجهة تحديات العصر ..... أ.د. محمد خليل جيجك ١٣

دراسة عن أسلوب الحوار في القرآن الكريم ..... د. إسحاق رحماني ٤١

مبادئ الإنسانية وتحديات العصر في نظرية سعيد النورسي ..... أ.د. تسفيتان ثيوفانوف ٥٧

ملف العدد

تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي ..... د. محمد عبد النبي ٦٩

المقاصد العملية للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي ..... د.عبد الكريم عكيوي ٨٩

منهج التربية عند النورسي ..... د.محمد قنديل ١٠٧

من ملامح التربية السلوكية عند النورسي ..... ذ.أديب إبراهيم الدباغ ١٢٩

الحكمة وفصل الخطاب في منهج التربية عند النورسي ..... د. خالد الصمدي ١٤٣

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

الحوار: حوار مع الأستاذ عبد الله يكن ١٦٣

الإصدارات (قراءة في كتاب): مفاتح النور ١٧٣

المؤتمرات والحلقات الدراسية: الندوة الدولية الثالثة للأكاديميين الشباب ١٧٧

استكتاب لملف العدد الخامس ١٩١

معلومات عن النشر في المجلة ١٩٢

الاشتراك السنوي / Contents ١٩٣

* ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد

كلمة العدد الرابع: أ.د. عمار جيدل

بسم الله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى.

تطل عليكم مجلتكم "النور للدراسات الفكرية والحضارية" في عددها الرابع، وكلّها أمل أن تكون في مستوى تطلعات المهتمين بالدراسات الحضارية، وأن يكون جهدها عملا علميا نوعيا، تثري به الاهتمامات الأكاديمية الممنهجة في إطار رؤية حضارية رسالية، تقصد البيان الشمولي، الذي تحكمه الرغبة في التكامل مع العمل العلمي النوعي الرسالي من أي وعاء صدر.

ظهر العدد الرابع بفضل الله من رحم العناية التي أولاها المهتمون بالمجلة من الأكاديميين المهتمين بالكتابة باللسان العربي، فكان العدد غنيا بالمقالات النوعية التي غمرنا بها الباحثون الكرام، وقد وصلتنا بقصد النشر دراسات كثيرة، نشرت المجلة منها ما وافق عليه القائمون عليها، واعتذرت عن نشر أخرى بناء على الرؤية العامة للمجلة، والمجلة إذ تعتذر من الباحثين الذين لم تنشر مقالاتهم، تنتظر من الباحثين دراسات أكثر رصانة وضبطا، أمل القائمين على المجلة كبير في استمرار الجميع بالتواصل العلمي المؤسس للرؤية الرسالية الحضارية.

تضمن العدد الرابع، وفق نسق الأعداد السابقة، قسما خاصا بالدراسات، استهل بكلمة من نوادر البحوث ألقيت في المؤتمرات الدولية حول رسائل النور، فاخترنا في هذا السياق نشر الكلمة التي ألقاها الأستاذ رجب طيّب أردوغان بمناسبة افتتاح المؤتمر العالمي الدولي، فقد ألقى في ذلك اللقاء العلمي كلمة بصفته رئيس بلدية إستانبول (١٩٩٥) كلمة عنوانها "سعيد النورسي خزانة تنتظر الاكتشاف"، وقد أبان في كلمته عن الرغبة في التنبيه إلى استئناف الجهد العلمي المميّز لعلماء الأمة، بيّن الأستاذ أنّ رسائل النور موضوع بحث ثرّ وغني بالدروس المفيدة في الحاضر والمستقبل، وقبل ذلك فهم الماضي، واكتشاف المبادئ والقيم الفعّالة في الإصلاح وفق ذاتية الأمة.

واشتمل قسم الدراسات على دراسة أ.د. محمد خليل جيجك القلم الرسالي التركي الأكاديمي، وقد شارك في العدد بدراسته الموسومة بـ ''ملامح تجدد خطاب النورسي في مواجهة تحديات العصر''، اشتملت الدراسة على وقفات علمية رصينه عند ملامح تجدد الخطاب، تجلت تلك الملامح في عقلنة الدعوة والأساليب، وأنسنة الأداء والإفادة: لتحبيب الأحكام والعبادات الإسلامية إلى القلوب ببيان ما تحتوي عليه من الفوائد والحكم، واستفزاز العواطف النفسية، في أسلوب حضاري في البيان، وتطلّب هذا المسعى الرد والإجابة على الخطاب النقدي، وكان الأستاذ مؤثرا للبيان الاستيعابي، والبلاغ العملي والتطبيقي، كلّ ذلك مع سعي كبير لأجل تنظيف العقلية الإسلامية من أوضار التاريخ والخزعبلات والانحرافات، وخَلُصَت الدراسة إلى وضع المسلم في العصر الحديث أمام أنموذج لصورة متكاملة لمسالك التبليغ في العصر الحاضر.

استضاف العدد باحثا إيرانيا من جامعة شيراز، وهو د. إسحاق رحماني، وقد شاركنا ببحثه ''دراسة عن أسلوب الحوار في القرآن الكريم''، مؤسسا بحثه على مصادر الوحي من الكتاب والسنة، وخَلُص الباحث إلى القول بأنّ الحوار القرآني مع أصحاب الملل المختلفة يدفع كل مسلم صادق في إيمانه إلى أن يسلك سبيل القرآن في الدعوة بكل الوسائل الخطابية والجدلية والبرهانية، وبيّن الباحث أنّ الإسلام دين الحوار ولكنه الحوار المتكافئ القائم على إرادة الفهم، وإرادة العلم، وإرادة التعايش بعيداً عن مختلف الإكراهات السياسية والاجتماعية والنفسية والفكرية، كما أنّ حوارات القرآن الكريم كلها دروس وعبر لمن ألقى السمع وهو شهيد، أدرجنا في القسم بحث أ.د. تسفيتان ثيوفانوف من جامعة صوفيا ببلغاريا، وكانت دراسته بعنوان: ''مبادئ الإنسانية وتحديات العصر في نظرية سعيد النورسي''، خلص فيه إلى أنّ رسائل النور تضمنت أفكارا تتعلق بالإنسان والإنسانية، منها تميّز الإنسان بخاصّيتين، أولاهما الأنانية المحصورة في الحياة الدنيا، وثانيتهما العبودية الممتدة إلى الحياة الأبدية، فتمثّل الأولى جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال، وتمثّل الثانية جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل؛ وتتلخّص وظيفة الإنسان الحقة في العبودية لله واجتناب الكبائر، والعبادة تَصْرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، لهذا انتهى الباحث إلى تبني قول النورسي: ''إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عِلّيين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل السافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل.''

أما الملف فيمثل استئنافا لموضوع العدد السابق، فجعلت التربية في رسائل النور موضوعا له، وأدرجنا دراسات متنوعة فيه، فكان البحث الأول ''تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي'' للأستاذ الدكتور محمد عبد النبي من جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، ثم تلته دراسة ''المقاصد العملية للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي'' للأستاذ الدكتور عبد الكريم عكيوي من جامعة ابن الزهر بأكادير في المغرب، أما الدراسة الثالثة فكان عنوانها ''منهج التربية عند النورسي'' للدكتور محمد قنديل، وفي السياق نفسه كتب الأستاذ أديب إبراهيم الدبّاغ من العراق بحثه الموسوم بـ ''من ملامح التربية السلوكية عند النورسي''، وختم الملف بما كتبه أ.د. خالد الصمدي من المغرب، ببحثه المعنون بـ ''الحكمة وفصل الخطاب في منهج التربية عند النورسي''.

رأت المجلة في قسم الإصدارات في هذا العدد إدراج أبرز الدراسات الاصطلاحية التي قدّمت خدمة لبعض مصطلحات رسائل النور، ولعلّ مما يرفع أسهم هذا المصنف، هو إنجازه من قبل أبرز العلماء الذي تخصصوا في الدراسات المصطلحية، فكانت الدراسات المصطلحية بالنسبة للمصنف ''أ.د. فريد الأنصاري'' (رحمه الله) تخصصا ومشروعا أساسيا للدخول إلى رحاب العلم، فكان الكتاب ''مفاتح النور'' مدخلا منهجيا وعلميا ممتازا لأجل تيسير الولوج إلى رحاب رسائل النور، ركّز المصنّف على بعض العيّنات من المصطلحات الدالة على الحسّ الاصطلاحي والمفهومي والمفاهيمي عند الأستاذ النورسي، اشتغل المصنّف بعد التمهيد التاريخي على مصطلحات التوحيد، والإنسان، والكون، والقرآن، والانتساب الإيماني، والأخلاق، ويعد المصنف دراسات تطبيقية علمية رصينة لمناهج الدراسات المصطلحية على نص رسائل النور، ينتظر أن تستكمل الأشواط اللاحقة من خلال الأنموذج التطبيقي المشار إليه.

استضافة المجلة في الحوار الأستاذ عبد الله يكن أحد أبرز طلبة الأستاذ النورسي، وأملت استضافتَه الحاجةُ إلى التعرّف على التاريخ الحركي من خلال الشخصيات التي استعملها الله في إحداث الحركة بالفكر، ولعلّ من أهم النماذج التي تجسّدت فيها الحركية الفكرية الواعية مشروع الأستاذ بديع الزمان، ويزيد من قيمة الشهادة أن يكون الشاهد مِنْ مَنْ عايش فترة السعي إلى اجتثاث الإيمان من القلوب، فكان الحوار معه حوارا مع مكابدة السعي الدءوب إلى حماية مكاسب التديّن والتمكين له إثباتا ''بإقامة حججه والمحاجة عنه'' وتثبيتا ''بحمايته من الاندثار'' في ظل الرغبة الجامحة في استئصاله.

يعد الحوار مع الأستاذ عبد الله يكن حوارا مع شاهد على مختلف المراحل التي عرفتها رسائل النور نصا ومزاولة، ومن هذا الباب فإنّ الحوار وثيقة تاريخية بامتياز بحاجة إلى تحليل لأجل الاستفادة منها، للتعرف على النورسي الإنسان ''اجتماعيا، وتربويا، وسياسيا...''، والنورسي الأستاذ ''طريقته في التربية والتعليم، وطريقته في النصيحة، وطريقته التعامل مع من عاداه...''، والنورسي الباحث، والنورسي المُنَظر المُصْلِح، وكل ما سبقت الإشارة إليه مساهمة نوعية في كتابة تاريخ فكرة إصلاحية وأهم رجالها، ومناحي الاستفادة منها.

توقفنا مليا في هذا العدد عند بعض النشاطات العلمية الأكاديمية، فعرضنا تفاصيل ما دار من نشاطات علمية في الأيام الأخيرة، وخاصة الندوة الثالثة للباحثين الأكاديميين الشباب، الدورة التي نظّمتها مؤسسة الثقافة والعلوم، والتي استضافت فيها جملة من المؤطرين الجامعيين من الشرق والغرب، كما استضافت لأجل الغرض نفسه طلبة باحثين من الغرب والشرق، ميزتهم العامة الكتابة عن رسائل النور، ورغبتهم في إنجاز بحوث علمية رصينة.

* * *

الدراسات والبحوث

سعيد النورسي خزانة تنتظر الاكتشاف

رجب طيب أردوغان *

نوادر البحوث:

[حرصا من المجلة على نشر نوادر البحوث والكلمات التي ألقيت في المؤتمرات العلمية الدولية، التي نظمت خلال مسار مؤسسة الثقافة والعلوم بإستانبول، آثرنا في هذا العدد نشر الكلمة الافتتاحية التي ألقاها الأستاذ رجب طيّب أردوغان (بصفة رئيس بلدية إستانبول) بمناسبة افتتاح المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي "تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي" ٢٤ – ٢٦ أيلول ١٩٩٥.

اشتملت الكلمة على كثير من الإيحاءات الإيجابية، فقد أبدى أردوغان رغبة ملحّة في دفع الباحثين خاصة والمجتمع عامة إلى اكتشاف الخزائن العلمية والأخلاقية التي كان لها كبير الأثر على حاضر الأمة ومستقبلها، وقصد بخزائن العلم جملة العلماء العاملين، وبهذا رام الأستاذ أردوغان الابتعاد عن مسلك البداية الصفرية في العمل العلمي والتربوي، فكانت الكلمة دعوة صريحة للاستئناف الفكري والتربوي والعلمي، كأنّه يقول لنا لكم سلف في النهضة العلمية والتربوية والسياسية، فمنهم اكتشفوا عناصر البعث الحضاري المنتظر، ومن تجربتهم نستمد خبرة تمثل القيم المنشئة للحضارة الإنسانية الراشدة.]

كلمة الأستاذ رجب طيب أردوغان

يمتاز العالم الإسلامي بتاريخ فكري غني، يمثّل خزانة تربوية وعلمية وأخلاقية، تنتظر لحد الآن من يكتشفها. وبقيت هذه الميزة متواصلة في الأمة عبر تاريخها الطويل، فلم تنقطع سلسلة الفكر في التاريخ الإسلامي في أي وقت من الأوقات، كما يظن ويدعي بعض الأوروبيين.

الإسلام له سمات إيجابية بارزة، تجلت في حياة المسلمين منذ العهد الأول وإلى يومنا الحاضر، تلك السمات التي جعلت العالم الإسلامي، غنيا بالعلماء الأفذاذ، والفلاسفة الدهاة، وعلماء الكلام، والمتصوفة والحقوقيين، وكان لهؤلاء العلماء والباحثين مصنفات علمية رصينة، فكانت لمؤلفاتهم آثار محمودة على التصنيف العلمي من جهة، وإثراء الخبرة التي أغنت بحق تجربة الأسرة الإنسانية، والتاريخ الثقافي للعالم من جهة أخرى.

ولا شك أنّ الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، الذي تركنا قبل خمس وثلاثين سنة (ألقيت الكلمة عام ١٩٩٥) ملتحقاً بالرفيق الأعلى، هو حلقة مهمة من حلقات هذه السلسلة الفكرية الممتدة الغنية.

ولد الأستاذ النورسي في هذه البقاع، وفيها ترعرع، وقدّم عطاءه الفكري، وقد عرضه من خلال مؤلفاته، إلا أنّ إنسان هذه البيئة (التركية والإسلامية) لم يتمكن -مع الأسف الشديد- من الاستفادة بحق من هذا الصفي المختار.

فتح الأستاذ النورسي عينه في عالم مضطرب، ويا له من اضطراب، دفع إلى انقلاب كل شيء رأسا على عقب، حيث كان تاريخنا المجيد يعيش آنذاك مأزقاً وانعطافاً حاداً للغاية، وكانت الهزائم العسكرية تترى الواحدة بعد الأخرى، وكان مركز الخلافة يتزعزع من أساسه، ووقعت أكثرية بقاع العالم الإسلامي تحت الاحتلال الاستعماري.

كانت تلك المرحلة مضطربة مليئة بسوء الحظ لتفاقم الانحطاط العسكري والسياسي بالنسبة للعالم الإسلامي. وعند إلقائنا نظرة على الحياة الفكرية للعالم الإسلامي في هذه المرحلة نرى غالبية المثقفين، بل يكاد يكون كلهم، قد دخلوا ضمن مجال التأثر الأوروبي، وتَوَقَّفَ المثقفون والسياسيون المتميزون عن النهل من تاريخهم ودينهم، والقيم الأصلية التي مجدتهم سابقاً، واتّخذوا منها موقفا سلبيا، بسبب فقد ثقتهم بأنفسهم، وخرجت قيادة المجتمع من أيدي العلماء، وتولاّها المستغربون ومن سار في ركابهم.

فكان لتولي هؤلاء المتغرّبين قيادة العالم الإسلامي أثر وخيم على حاضر الأمة ومستقبلها، ففشت فيه أسوأ أنواع التشرذم وأقصى درجات الصراع والانقسام القومي والشعبي في العالم الإسلامي، فأصبح العالم الإسلامي مرتعا لجواسيس الغرب، فجالوا وصالوا في كل بقعة من البقاع الإسلامية كيفما شاءوا، وانتهت أعمالهم إلى

استفحال الفساد والفتن بين المسلمين، فأصبح العالم الإسلامي وعلى رأسه الدولة العثمانية محاصراً، وضرب عليها خناق الفقر والذل والتعجيز المفضي إلى العجز.

عاش في ظل هذا الجو البائس الأستاذ النورسي، فظهر من رسائله وتصرفاته رجلا متألما بآلام أمّته في هذا العالم العصيب... وفضلا عن ذلك فقد تميّز بمعايشة مختلف الأدوار التي مرت بها المشروطية، وخاصة فترة هيمنة الحزب الواحد، كما عاصر مرحلة تعدد الأحزاب، وقد كان لهذه التجارب المحزنة الغنية بالعبر والعظات دور في صياغة شخصية الأستاذ النورسي، فساهمت في صياغتها صياغة فريدة، دفعته نحو الكمال والتنقيب عن مختلف الحلول الجديدة.

سلك الأستاذ النورسي، كما هو معلوم، في المراحل الأولى من حياته درب السياسة ضمن مقاييس معروفة، عاقداً عليها الآمال الكبيرة، وكان يربط بعض الأحيان آماله هذه بالقصر والسلطان والإداريين.

وفرض عليه هذا الاختيار مقابلة السلطان، وتقديم الاقتراحات له لأجل جمع شمل الدولة العثمانية، إلا أنّه قد رأى فيما بعد أن الانحطاط قد ضرب جذوره في الأعماق، لذا كثّف مساعيه في مجالات أخرى، مجالات أعمق وأغور. وكان يعلم جيداً، أن مثقفي الدولة العثمانية، والطبقة المتميزة قد فقدوا إيمانهم، وانبهروا بمن غلب عليهم من الأعداء، وانجذبوا إليهم، ظانين أن طريق الخلاص في تقليد الأعداء ومسايرتهم.

وبعد أن ثبت لدى الأستاذ النورسي صحة هذا التشخيص الصائب، توجه إلى ''الإيمان'' كمفهوم منقذ وقدّم له تعريفاً جديداً.

فانتهى الأستاذ إلى أنّ الإيمان هو أكبر مصدر لتحقيق قوة العالم الإسلامي، لهذا لزم شحنه بالطاقة اللازمة. ولئن نجا المسلمون والعالم الإسلامي، فلاشك أنّه لن يكون ذلك ممكناً إلاّ بقوة الإيمان واستيلائه على الأرواح من جديد.

وبالرغم من تركيز الأستاذ بديع الزمان النورسي على الإيمان، فإنّه لم يهوّن من شأن السياسة، حتى أن الفكرة التي ترى أنّه قد اعتبر السياسة ضارةً غير صحيحة بإطلاق كما يتبادر من أوّل وهلة من رسائله، لأنّه قد رأى، وهو محق، أنّ العالم الإسلامي في حاجة لحملة جديدة حديثة، تستمد قوتها وطاقتها من الإيمان والفكر والعلم.

ويؤكّد هذا التشخيص أنّ الحياة السياسية في تلك الأيام لم تراع أيّة قيمة أخلاقية

كانت، بل تحولت إلى دهماوية (نسبة إلى الدهماء) وثرثرة وخداع واغتنام فرص منفعية لا غير، فانتهى إلى القول بأنّ مثل هذه السياسة لا تليق بالإنسان المسلم، وهذا مما لا يعترض عليه أحدٌ من الناس.

وفضلا عن الميزات النظرية والفكرية للأستاذ النورسي، فإنّه امتاز بخاصية أخرى ينبغي الوقوف عندها، ألا وهي التوافق الموجود بين فكره وحياته إلى آخر نفس من أنفاسه، فالحق أنه عاش مثلما فكّر وبما آمن به، ولم يطأطئ رأسه لأحد طوال مساره، ولم يتنازل قيد شعرة، ولم يخش أحداً إلاّ الله، فمضت حياته في السجون والمعتقلات والمنافي، ونجاه الله مرات ومرات من حافة الموت، وبالرغم من ذلك بقي ثابتا على مسلك العزة الإيمانية، فلم يخضع لأحد غير الله، فلا شك أنه قدوة للناس كافة من هذه الناحية...

وقد قلت في بداية مقالتي هذه أن الأستاذ النورسي خزانة تنتظر الاكتشاف ككثير من المفكرين والعلماء. فمثلاً أن مثل هذا المؤتمر العالمي الثالث ''مؤتمر تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي'' المقام ما بين ٢٤– ٢٦ / أيلول/ ١٩٩٥ قد أتاح الفرصة والفوائد الكبيرة لاكتشاف هذه الخزانة، ولفت الأنظار إلى تراثنا الغني الثري، وخاصة أنظار أولئك الذين ما زالوا يتوجهون إلى أماكن أخرى، يستمدون منها قيم النهضة الحضارية المنتظرة.

* * *

الهوامش:

[*] رجب طيب أردوغان: رئيس البلدية العامة لمدينة إستانبول، رئيس وزراء تركيا الحالي.

ملامح تجدد خطاب النورسي في مواجهة تحديات العصر

أ.د. محمد خليل جيجك *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله أولا وآخرا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام على مفخر عباده الصالحين محمد الأمين وعلى آله وصحابته الغر الميامين آمين.

وبعد:

فإن من أعظم ما تقوم به الحياة البشرية هو تفاهم الناس وتخاطبهم فيما بينهم ولا شك أن من أهم آليات التفهيم والتفاهم بين الناس هو الخطاب المنسوج من لفيف الألفاظ والكلمات والحروف. وبحسب ما يحمله لفيف الألفاظ من المعاني القيّمة والمغازي الحكيمة يكون الخطاب قيّما وحكيما وبحسب ما يكون الخطاب مستوفيا لمتطلبات المجموعة المخاطبة يكون الخطاب بليغا ونافعا مفيدا. ومن هنا كان الركن الأساسي للبلاغة التي بها -ربما وحدها- يتميز كلام الناس عن نعيق البهائم هو مراعاة المخاطِب لأحوال المخاطَب وتنبهه لواجبات المقامات التي يورد فيها الخطاب. هذا إذا كان الخطاب موجها لفرد أو مجموعة محدودة من الأفراد ؛ وأما إذا كان الخطاب موجها لعصر أو عصور فمقتضى البلاغة والحكمة في ذلك الخطاب العصري أو العصوري يُحتِّم أن يكون الخطاب مستوفيا لمتطلبات ذلك العصر أو العصور ومبتغيات ذلك المجتمع المخاطب أو المجتمعات المخاطبة. وفي هذا الحد الفاصل

يستبين مستويات أهل العلم والحكمة فكلما كان الخطاب أكثر استيعابا للمستلزمات العصرية والمتطلبات الاجتماعية في صنوف الخطابات كان الخطاب أنجع في مداواة أمراض العصر ورفع إشكالياته. والخطاب الذي تتوفر فيه هذه الميزة البلاغية أدل على عمق حكمة صاحبه وازدياد توسمه وتفرسه فيما سيأتي به مستقبل أيام أمته. ومعنى هذا أن من ضروريات خطاب الدعوة أن يكون متفاعلا بالكيمياء الاجتماعية لعصره وأن يكون موجها لأبناء أمته نحو أسباب ارتقاء الدعوة وتطورها السنني وهذا يدل على أن عصرنة الخطاب ومواءمته لمستجدات الزمان والمكان ضرورية إلى أبعد الحدود.

ومما لا ريب فيه أن هذه الأمة المرحومة التي مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرنا تربى في جنوبها وشمالها، وفي شرقها وغربها، وفي سهولها وأحراشها، وفي فيافيها وقيعانها، وفي كهوفها وجبالها مئات الدعاة المخلصين والحكماء المتقين الذين كانوا بمنزلة نجوم السماء في الظلمة الظلماء فصرفوا شطرا كبيرا من أوقاتهم وزمنا مديدا من أعمارهم في سبيل دعوتهم وَجَدُّوا وجاهدوا وأصلحوا وأخلصوا ففتحوا بلدانا وعَمَّرُوا ديارا وأناروا قلوبا وبنوا أجيالا فكانوا مصابيح الهدى وشموس الدجى. وكان من أعظم أسباب نجاحهم وفلاحهم هو حكمتهم القولية العميقة في خطابهم المواتي لمقتضيات عصرهم إلى جنب حكمتهم العملية النيرة. ومن جراء هذا كان خطاب كل منهم في عصره مستوعبا لعناصر التجدد والعصرنة بحسب الظروف الملائمة والشؤون المستجدة.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الدعاة الذين أفنوا أعمارهم وأبقوا أعمالهم في سبيل دعوتهم بديع الزمان سعيد النورسي فإنه رحمه الله كان عارفا بأحداث عصره وتقلباتها وفواجعها ومهلكاتها ومصائبها ونائباتها وكان يَعُدُ للعصر عُدَّتَهُ وكان يوفِّر في سبيل دعوته جميع ما يحتاج إليه من عدة وعتاد ووسائل وآليات وكان رحمه الله عميق الحكمة وثاقب البصيرة فيما يتجه إليه مصير الأمة وما تتمخض به الأيام. وخصيصا إن تلك الأحداث الاجتماعية الكبرى والتحولات السياسية العظمى في المعسكر الشرقي والغربي ألجأت خبراء الأمة ودعاتها وعلمائها إلى أن يأخذوا حذرهم ويعدوا عدتهم علما ومعرفة وحكمة وثقافة لما تنتظرهم من الأحوال الجسام والأحداث العظام. لا جرم أن الشيخ النورسي رحمه الله يأتي في صدر قائمة هؤلاء الذين كان مصير الأمة يقض مضجعهم إذ تراه يفصح عما يعروه من هذا الألم الناشئ من مصير الأمة بقوله: ''إن أمامي حريقا مدهشا يحترق فيه أبناء أمتي يحترق فيه إيمانهم وعقيدتهم فها أنا ذا أحاول أن أطفئ ذلك الحريق فيعرقلني واحد فيصطدم به رجلاي فلا قيمة لذلك.''[1]

ثم تراه يعيب على معاصريه الذين لم يفهموه ولم يقدروا طموحاته بأنهم أصحاب: ''...آراء ضعيفة وأفكار قاصرة...''[2]

فكان هذا الشعور بمصير الأمة وبعواقب الأحداث المؤلمة التي تعيشها الأمة يحيط بجميع كيان النورسي ويؤرقه ويؤلمه فيجتهد ولا يألو أن يأتي بتخطيط فيه إنقاذ الأمة عقديا وعمليا وأخلاقيا ويرى أن أنفع شيء هو إثبات العقائد الإسلامية وتحقيق سائر القضايا الدينية والمسائل الإيمانية بالأدلة العقلية والحجج النيرة والبراهين الساطعة إذ كان يرى بما يجري حوله في بلاده وسائر البلاد الأخرى من التقلبات الاجتماعية العظمى والتحولات السياسية الكبرى أن دبيب الإلحاد والمادية الشنعاء قد دب إلى جسم الأمة فلابد من مداواته بما يقتلعه من جذوره فكان تأليف رسائل النور انعكاسا لهذا الصوت المرعب في داخل النورسي ومن هنا أعلن لمن حوله: ''لأبرهننّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها''.[3] فكان النورسي يؤطر عمله الدعوي في هذا الإطار الذي يلبي متطلبات العصر ويقضي حاجات المجتمع الذي يعيش فيه. وكان رحمه الله يشرئبّ عنقه نحو احتياجات الفئة المثقفة الفكرية والاعتقادية وينص في تحليله على اكتشاف الحلول السليمة والمقنعة لإشكاليات العصر وخصيصا منها الاعتقادية والنفسية والاجتماعية ويقترب منها اقتراب الحازم الحكيم ويتناولها بالتحليل والتفصيل والتدليل العقلي والنفسي والاجتماعي. فمثلا يقول في مقدمة ذيل رسالة الحشر: ''سنشير إلى أربعة أدلة -على سبيل المثال وكنموذج قياسي- من بين مئات الأدلة على أن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومُثله وسعادته.''[4] ثم يستمر الشيخ في سرد باقة قوية من تلك الأدلة التي يغلب عليها الطابع النفسي والاجتماعي والذي يخاطب جميع طبقات المجتمع من الأطفال والشباب والكهول والشيوخ،[5] فيقول أخيرا متحديا العلماء المعاصرين تنصيصا على ما يتبدى على معطياته الاستدلالية من اللون الأخلاقي والاجتماعي: ''فليصغ علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه وليأتوا بما سيملئون به هذا الفراغ وبما سيداوون ويضمدون به هذه الجروح الغائرة العميقة؟''[6]

وتفاعُلُ النورسي عبر عطائه العلمي والدعَوي مع مشاكل عصره الفكرية والنفسية والعقلية والاجتماعية هو الذي أضفى على خطاب النورسي الدعَوي أصالة وتميزا وتجددا وأكسبه قبولا واستمرارا وانتشارا بين جميع تلك الخطابات الدينية الدعوية التي اكتظ بها العصر.

ونحن إذ وجدنا أنفسنا مضطرين للإفصاح عن تلك المعالم والملامح التي لبس بها خطابُ الشيخ النورسي ثوبا قشيبا بين سائر الخطابات الدعوية نجد تلك المعالم ممكنة التلخيص فيما يأتي:

١- عقلنة الدعوة والأساليب:

إن الإمام النورسي كان -كما قلنا- خبيرا محنكا بأدواء العصر، ومشاكله الفكرية، وتحدياته الاجتماعية، وأمراضه الأخلاقية، ومتطلباته النفسية، وأبعاد شقائه الروحية؛ وكان مستيقنا من أن العامل الأكبر في جميع تلكم المشاكل والأمراض والمتطلبات والشقاوات هو انعدام العقيدة الصحيحة أو ضعف ورخوة الأرضية التي انبنى عليها الكيان الإيماني أو ما يسميه هو بالإيمان التقليدي ويقصد الإيمان غير المستند إلى الركن المشيد من الأدلة الكونية والبراهين العقلية. إذ قال: ''نعم! لقد تزعزعت قلاع الإيمان التقليدية وتصدعت أمام هجمات هذا العصر الرهيب. ونأت عن الناس وتسترت بحجب وأستار. مما يستوجب على كل مؤمن أن يملك إيماناً تحقيقياً قوياً جداً كي يمكّنه من المقاومة والثبات وحده تجاه الضلالة المهاجمة هجوماً جماعياً.''[7] كما يرى في هذا السياق أن الإيمان التقليدي لا يثبت أمام شبهة واحدة.[8] فمن واجب جميع المؤمنين أن يسعوا للتحصيل في الإيمان على مرتبة علم اليقين التي تقاوم الشبهات المهاجمة بقوة ما فيها من براهين.[9]

إيفاء بهذا الفرض الكفائي بل العيني كان النورسي يصرف ليله ونهاره وحتى جميع ما أوتى من قوة وقدرة في سبيل صياغة أساليبه الإثباتية وخطاباته الدعوية بصيغة عقلانية تخاطب العقل وتطمئنه ونعني هنا بالعقلانية، العقلانية الإسلامية المؤمنة التي تحسب للغيب حسابه وتنطلق في انطلاقاته من المنطلق الإسلامي لا العقلانية الغربية الوضعية التي لا تؤمن بالله ولا رسالاته وتحاول أن تحرر كلّ تفكيروتقييم من ربقة الدين ومن قيود الإيمان بالغيب. ومن هنا كان أهم ما يرتكز عليه تفكير النورسي هو إثبات الأركان الإيمانية بالأدلة الناصعة التي لا تستنكرها معارف العصر ولا تَمُجُّها العقلية العلمية الحديثة السليمة ولا يمتعض منها ذوق المسلم العادي فهو في ذلك الأسلوب يستطيع أن يرضي شتى المستويات ويقنعها، وهو في كلّ ذلك ينتهج نهج الكتاب العزيز.[10]

نعم! إن الإمام النورسي يركز جميع قواه على إثبات القضايا التوحيدية والحقائق الإيمانية بأسلوب علمي إيجابي رصين ومضمون عقلي حكيم يتواءم مع معارف

العصر ويتناغم مع مكتسباته وينسجم مع معطياته آتيا من خلال ذلك بخلاصة المعارف الكونية جاعلا منها أنصع دليل على وجود الصانع وتوحيده. وخير شاهد على ذلك اللمعة الثالثة والعشرون التي سماها رسالة الطبيعة،[11] والكلمة الثالثة والثلاثون التي هي عبارة عن ثلاث وثلاثين نافذة يشرح الشيخ من خلال كل نافذة منها وجها من وجوه الكون المتعددة ويجعلها دليلا على عظمة الصانع وتوحيده وقدرته.[12] وكذلك عليك بالكلمات: الثامنة، والثانية عشر، والتاسعة عشر، والثانية والعشرين، والثالثة والعشرين. ففيها كفاية لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا.

فكأني بالشيخ النورسي وهو واقف بجلالته ومهابته على قمة شاهقة سامقة مطل على جميع العالم الإنساني ينادي بأعلى صوته: ''يا معشر المعاصرين! إني موظف بوظيفة هامة تتعلق بنجاتكم من شقائكم وهي أن أثبت لكم -على الرغم من عتوكم ولجوجكم- جميع الأركان الإيمانية والحقائق الإسلامية بأصدق دليل وأنصع برهان وأقوى حجة فهلموا إليّ كي أسعفكم مما تتردَّوْن فيه من أنواع معاطب الكفر ومهالك الشرك ولا تتكاسلوا ولا ترغبوا عني بحجة عدم فهمكم لما ألقيه إليكم فإني سأخاطبكم بلغتكم التي بها تتفاهمون وسأبلغكم بمعارفكم التي بها تتعارفون وسأكلمكم بلسان ثقافتكم التي عليها تكلمون'' ولم يفارق النورسي هذه الخطة الشريفة ولا قيد أنملة. فكلما خطا خطوة فكرية قوَّى تلك الخطوة يمينا ويسارا وجنوبا وشمالا وعلوا وسفلا بأقوى ما يمكن من الأدلة العقلية والبراهين الناصعة التي لا تتعارض في أي شيء مع العقلية العلمية المستنيرة ولا تخالف مقتضى التفكير العلمي الحر السليم. إذ يرى النورسي: أن الإيمان التقليدي معرّض لهجمات الشبهات والأوهام. أما الإيمان التحقيقي فهو أوسع منه وأقوى وأمتن.[13]

فلا تكاد ترى في ميراثنا الإسلامي العظيم مجموعة مصنفات أخرى لمؤلف آخر تتضمن من الإصرار البالغ على البرهنة والاستمرار الملح في سبيل الاستدلال ما أصرت عليه مجموعة مصنفات للنورسي، فهو العَلم الفرد في ذاك الميدان فلذا يغلب على أسلوبه البيان الاستدلالي والبرهنة على الدعاوى التي يأتي بها. ثم إن برهنة النورسي تلك برهنة منطقية وعقلانية وعلمية لا يستنكرها أي منتوج علمي أو أي عطاء معرفي ولا يمجها أي عقل سليم.

ومن ناحية أخرى إن من اللافت للنظر أن الإمام النورسي، يحاول بجميع جهده أن يثبت بالدليل العقلي والمنظور العلمي جميع ما يتناوله من المسائل الإيمانية، وفي

الوقت نفسه يجتهد ولا يألو أن يكون ما يقدمه من عطائه الاستدلالي في أسلوب مرن سهل يفهمه العوام ويتذوقه الخواص فلا ينغمس في التعقيدات اللفظية ولا يسمح أن تضيع رسالته في المصطلحات العلمية والفلسفية. وهذا أيضا من أهم أسباب إقبال العامة والخاصة عليه وعلى رسائله. ومن جراء ذلك تراه رحمه الله يكثر من التمثيلات والتشبيهات التي تسهل الوصول إلى غرض الكلام. ولا شك أن أسوة الشيخ النورسي في ذلك هو الفرقان الحكيم فهو حذا حذو القرآن خطوة بخطوة، وقدما بقدم.

٢- أنسنة الأداء والإفادة:

فلما كان النورسي يشاهد عن كثب من طغيان موجة الإلحاد -التي لها آثار سلبية تماما- على الواقع المعيش للمسلمين وكذا على عالم أفكارهم وقيمهم ولما كان يشاهد من استحواذ موجة الثقافة الغربية الوضعية التي تنبذ الدين وتقصيه عن واقع الحياة -بشتى الأساليب الكاذبة والتسويلات الشيطانية القذرة والدعايات الزائفة- على شرق العالم وغربه نجمت في الأوساط التي يعيش فيها المسلمون آراء غير واقعية وغير صادقة عن الإسلام بجعله تحت ظنة القسوة وقلة الرحمة وشدة أحكامه أو عدم ملاءمتها مع احترام الإنسان وحقوقه. فنتج من ذلك أن انصدعت قارورة حب الإسلام في القلوب ووقع بتلك الأراجيف التي يرجف بها المبطلون كراهية الإسلام وبغض معالمه في بعض الصدور فلابد من أن يتدارك الأمر علماء الأمة بالجد والسعي لتحبيب الأحكام والعبادات الإسلامية إلى القلوب من خلال شرح وبيان ما تحتوي عليه من الفوائد والحكم، وأن يبينوا للناس قاطبة قيمة الإنسان ومكانته السامية في المنظور الإسلامي وما خوله الله بين الكائنات الأخرى من الفضل والشرف بما حباه من المزايا النبيلة ومنَّ عليه من العطايا العظيمة. فشمر علماء الأمة وفضلاؤها عن ساعد الجد ونافحوا عن معالم دينهم وعن مضامين كتاب ربهم وكتبوا في هذا السياق كتابات جزيلة كما فعل ذلك مثلا الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه القيم الوحي المحمدي وفي تفسيره المنار وكما فعل ذلك أستاذه وشيخه محمد عبده في كتاباته العديدة، وكما فعل الشيخ عفيف طبارة في كتابه روح الدين الإسلامي وكما فعل الشيخ محمد الغزالي وكما فعل ولا يزال يفعل الشيخ يوسف القرضاوي. ولاجرم أن الإمام النورسي يأتي في مقدمة من تنبه لهذا الخطر المحدق بالأمة فعمل عملا جزيلا وصرف وقتا طويلا لإزاحة هذا الافتراء الشنيع عن وجه الإسلام النقي. ومن هنا ترى أنه يهتم حينما يسرد الأدلة التوحيدية التي كان يستدل بها بتبيان رحمة الإسلام

والإفصاح عن اهتمامه العظيم بالإنسان حيث جعله الله سبحانه في الدرجة الأولى من بين سائر الموجودات مخاطبا لجنابه الأقدس ومنزلا عليه لكتابه الأعظم وهذا يفيد أن الإسلام وضع الإنسان في رتبة عالية ومكانة سامية فاعتنى النورسي بالإبانة عن تلك المقاربة الإسلامية للإنسان إلى أقصى حد انطلاقا من متطلبات العصر فإنه كان يرى عن قرب أن الإنسان المعاصر تربى في ظل الثقافة الغربية المادية الوضعية التي كان من أهم شعاراتها ''كل شيء للإنسان'' أو ''الإنسان سيد الكون'' وتأثر بها إلى أبعد الحدود فكان لزاما أن يفصح النورسي عن أنسنة المقاربات الإسلامية أي أن يعرب عن الأوضاع، والشؤون، والأفكار، والملاحظات، والمبادئ، والتعاليم التي أتى بها الإسلام لإسعاد الإنسان، واحترامه، ورعاية حقوقه، ورفع مستواه الإنساني، وتخليصه من أسباب الذل والاستعباد والإهانة ومن وسائل الظلم والقهر وسلب الحقوق وإنقاذه، من جميع السلبيات التي تسبب خفض مستواه الإنساني.

فكان الإمام النورسي يحاول أن يثبت فعلا ما في الإسلام من القيمة العظيمة للإنسان حيث يرى النورسي حسب منظوره الإسلامي أن البشر ثمرة لهذه الكائنات فهو المقصود الأظهر لخالق الموجودات.[14] ويرفع من مستوى هذه الثمرة العظيمة القيمة بين الموجودات الأخرى بحسب نظر النورسي، قال الأستاذ: ''كما أن في الأسماء الحسنى اسما أعظم لله تعالى فهناك نقش أعظم في نقوش تلك الأسماء وذلك هو الإنسان''[15] ومن هذه القراءة الأنسنية التي ترفع من قيمة الإنسان يرى النورسي أن من ثمرات المعراج النبوي أنه رفع الإنسان من كونه مخلوقا صغيرا وحيوانا ضعيفا وذا شعور عاجزا إلى مقام رفيع ومرتبة عالية بل إلى أرفع مقام عزيز مكرم على جميع المخلوقات.[16] فنرى أن النورسي قرأ المعراج النبوي أيضا قراءة أنسنية استخرج منها معاني جليلة الشأن في الرفع بمستوى الإنسان؛ فالإنسان -كما فهم من المعراج- ثمرة قيمة من ثمرات الكائنات جليل القدر ومخلوق مكرم محبوب لدى الصانع الجليل.[17] بينما لا يهمل النورسي رحمه الله أن يسرد ما ألصقته القراءة المادية الغربية بالإنسان من تلك الصورة الشوهاء وما حطه فيه من تلك الدركة الدنية المزرية بشأن الإنسان بين الكوائن الأخرى.

وشيء آخر يدل دلالة قوية على ما في أسلوب النورسي من الأنسنة أنه رحمه الله بما كان يتحلى به من صفة العالم الورع التقي الرحيم كان يبدو على آثاره وفي أساليبه الرحمة بالإنسان وسائر الحيوانات ويظهر في كتاباته الشفقة عليها التي هي أكبر مقومات الأنسنة.

٣- استفزاز العواطف النفسية:

إن من أهم ما يلفت النظر في أساليب النورسي هو أنه يراعي المتطلبات النفسية والحالات الروحية للإنسان المعاصر بإيثار الأسلوب الإقناعي الحكيم والأسلوب العاطفي الرقيق المبتعدين عن الثرثرة والصلف اللفظي؛ إن النورسي رحمه الله بما أوتي من بُعْد نظر وسعة تفكير وعمق تأمل فيما آل إليه المجتمع الإسلامي بشتى طبقاته بعد إلغاء الخلافة الإسلامية وانهيار الدولة العثمانية وانتشار الأفكار الوضعية بين الناس كان يعرف مكمن الداء ويستيقن وصفة الدواء وكان يرى عن كثب ما يرتبك فيه فئات المجتمع الإسلامي من اللغو واللهو والمجون وما يتورط فيه من الدعارة والهمجية الخلقية وما يعيشه من التدهور الأخلاقي وذوبان القيم الإيمانية كما كان يشاهد بعين بصيرته ما ينجم عن ذلك مما يتغلغل في نفوس طوائف المسلمين من الإعراض عن الدين والإقبال على الآخرة فكان لابد من حكيم نفساني وطبيب روحاني يكيل الأمور بمكاييلها ويضع الأمور في أنصبتها وذلك بأن يختار في دعوة أمثال هذه المجموعة التي تخلخل وضعها الديني إلى أقصى حد صيغة تنزل إلى أعماق النفس بينما تصعد إلى مدارج العقل؛ صيغة تخاطب اللطائف النفسية بينما تخاطب المدارك العقلية؛ صيغة تمسح رأسي النفس والعقل معا حتى لا ينجفلا؛ صيغة تجول في تلافيف النفس وتتحرك في طيات الروح فتستنبط عواطفهما ومثيراتهما وردود فعلهما حتى تعد للأمر عدته وتأخذ أهبته.

وتلك الصيغة الرشيدة الحكيمة التي يتأتى لها أن تجذب إليها مثقفي العصر وأن تقنعهم وترضى أنفسهم وأن ترويهم برحيق اليقين إنما هي صيغة النورسي في دعوته الإيمانية الرفيعة فمثلا هيا بنا لنستمع إلى هذا الخطاب الذي ينقب خبايا الشهوات النفسية كي يعالجها بأسلوبه الحكيم. فهو يصوغ الخطاب لنفسه كي يأخذ قراءه أعظم درس بأقصر صورة إذ يقول:

"فيا نفسي الحائرة ويا صديقي المغرم بالهوى! أتحسبون أن "مهمة حياتكم" محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أُودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!"

"بل إن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وإدراجها في فطرتكم إنما يستند إلى أساسين اثنين...[18] ترى أن النورسي لفت النظر إلى تلك الأجهزة والاستعدادت والمشاعر والحواس التي أدرجت في خلقته تنبيها للإنسان على قيمتها حتى لا يضعها في موضعها غير المناسب.

وأمعن النظر في هذا المقطع الآتي حتى تقدره قدره وحتى تستيقن أنّ الرجل وفق ونجح أكبر النجاح في صياغة خطابه على وفق المعطيات النفسية وحسب الحالات التي هي أنجع في إقناع النفس وتهيئتها للانصياع عن رضا وقبول لما يلقى إليها من التوجيهات والتعاليم:

"إن الإنسان بفطرته ضعيف جداً، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التي تورثه الحزن والألم، وهو في الوقت نفسه عاجز جداً، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جداً، وهو فقير جداً مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه، وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً مع أن فراقَ ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود."

"فروح الإنسان في هذه الحالة (في وقت الفجر) أحوج ما تكون إلى أن تطرق -بالدعاء والصلاة- باب القدير ذي الجلال، وباب الرحيم ذي الجمال، عارضةً حالها أمامه، سائلة التوفيق والعون منه سبحانه، وما أشد افتقار تلك الروح إلى نقطة استناد كي تتحمل ما سيأتي أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف في عالم النهار الذي يعقبه. ألا يُفهم ذلك بداهةً؟

"(وعند وقت الظهر) ذلك الوقت الذي هو ذروة كمال النهار وميلانه إلى الزوال، وهو أوان تكامل الأعمال اليومية، وفترة استراحة موقتة من عناء المشاغل، وهو وقت حاجة الروح إلى التنفس والاسترواح مما تعطيه هذه الدنيا الفانية والأشغال المرهقة الموقتة من غفلةٍ وحيرةٍ واضطراب فضلاً عن أنه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.[19] ترى أنه رحمه الله استرعى النظر إلى جوانب الضعف الإنساني وقدم لكل ضعف وصفة شفاء أيضا. ويقول في سياق آخر:

"نعم إن روح الإنسان التي تنشد الأبدية والخلود، وهي التي خُلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تُنهض بهذا الإنسان ليقوم وقت العصر ويسبغ

الوضوء لأداء صلاة العصر، ليناجي متضرعاً أمام باب الحضرة الصمدانية للقديم الباقي وللقيوم السرمدي، وليلتجئ إلى فضل رحمته الواسعة، وليقدم الشكر والحمد على نعمه التي لا تحصى، فيركع بكل ذلٍّ وخضوع أمام عزة ربوبيته سبحانه ويهوي إلى السجود بكل تواضع وفناء أمام سرمدية ألوهيته، ويجد السلوان الحقيقي والراحة التامة لروحه بوقوفه بعبودية تامة وباستعداد كامل أمام عظمة كبريائه جل وعلا. فما أسماها من وظيفةٍ تأديةُ صلاة العصر بهذا المعنى! وما أليقها من خدمة! بل ما أحقّه من وقتٍ لقضاء دَين الفطرة، وما أعظمه من فوزٍ للسعادة في منتهى اللذة! فمن كان إنساناً حقاً فسيفهم هذا.[20]

٤- البيان الحضاري:

إن سيادة الحضارة الحديثة وذيوعها بمؤسساتها، ومعالمها، وقيمها، وثقافتها، ومعارفها، ومبادئها، وقواعدها، وتعاليمها، وشرائعها في جميع أرجاء الكرة الأرضية أحدثت ثورات في التصورات وانفلاقا في التفكير وانقلابات عظيمة في التقويم لم تحلم بها الإنسانية من قبل. وتسرب ذلك إلى ميادين التقويم ومعارك التفكير كثيرا من الأمور التي لم يكن لها وزن من قبل وانهدمت بذلك كثير من الأسوار التي كان أُحْكِم غلقها من قبل حول التفكير الإنساني وتحطّمت كثير من الأغلال التي كانت وُثِّقَتْ وشُدِّدَتْ على العقل البشري فبذلك اتسعت ساحات التفكير وانفتحت المجالات التصورية للإنسان المعاصر أكثر من ذي قبل. فصار الإنسان المعاصر أو الحداثي - على حد تعبيرهم- يهتم بكثير من القضايا الفكرية والمسائل الثقافية وصارت له اهتمامات عقلانية واعتناآت معرفية من نوعية أخرى. ويأتي في صدر قائمة هذه الاهتمامات الفكرية الحديثة الاهتمام الحضاري حيث نجد الإنسان المعاصر يتعلق تفكيريا بالمعلومات الدائرة حول موضوع الحضارة ويعتني بالموضوع أكثر من أي وقت مضى. فيعالج من الموضوعات الحضارية بيان الخصائص الذاتية للحضارة وإيضاح معالمها الرئيسة وشرح مقوماتها الأساسية وإبراز مكوناتها الأصيلة فإذاً الثقافة الحضارية معلم فكري أساس من معالم الفكر الحديث.

وحيث كان النورسي على بصيرة بالغة وذا عبقرية نابغة في توظيف جميع الآليات الفكرية والثقافية والمعرفية لصالح دعوته كان له اهتمام فائق بشتى السياقات وفق تعددها، فتناول بالبيان الحضاري ولمسات لطيفة بالمقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فمثلا قال النورسي: ''إن دساتير القرآن الكريم وقوانينه لأنها آتية من

الأزل فهي باقية وماضية إلى الأبد. لا تهرم أبداً ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين المدنية وتموت، بل هي شابة وقوية دائماً في كل زمان. فمثلاً: إن المدنية بكل جمعياتها الخيرية، وأنظمتها الصارمة ونظمها الجبارة، ومؤسساتها التربوية الأخلاقية لم تستطع أن تعارض مسألتين من القرآن الكريم بل انهارت أمامهما وهي قوله تعالى: ﴿وآتُوا الزَّكَاةَ﴾البقرة:٤٣ و﴿...وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾البقرة:٢٧٥ [21] فهذا إشارة إجمالية موجزة من النورسي إلى ما تتضمنه الحضارة الإسلامية من الطاقة العظيمة والاستعداد التام لتنظيم الحياة المدنية الكريمة الرخية الرغيدة لأبناء البشر.

كما نجد النورسي يأتي بتفصيل أوفى وبيان أشفى في سياق الكلام على المقارنة بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية في مواضيع متعددة من رسائله وكتاباته نكتفي منها بما يأتي:

''فالمدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي 'القوة' وهي تستهدف 'المنفعة' في كل شئ. وتتخذ 'الصراع' دستوراً للحياة. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وغايتها هي 'لهو عابث' لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن 'القوة' هو 'التجاوز'. وشأن 'المنفعة' هو 'التزاحم' إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن 'الصراع' هو 'التصادم' وشأن 'العنصرية' هو 'التجاوز' حيث تكبر بابتلاع غيرها''.

''فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة -مع محاسنها- عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق.''

''أما حكمة القرآن فهي تقبل 'الحق' نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من 'القوة'... وتجعل 'رضى الله ونيل الفضائل' هو الغاية والهدف، بدلاً من 'المنفعة' وتتخذ دستور 'التعاون' أساساً في الحياة، بدلاً من دستور 'الصراع'... وتلتزم رابطة 'الدين' والصنف والوطن لربط فئات الجماعات، بدلاً من 'العنصرية والقومية السلبية'... وتجعل غاياتها 'الحدّ من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسَوْق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنساناً حقاً.''

''إن شأن 'الحق' هو 'الاتفاق'... وشأن 'الفضيلة' هو 'التساند'... وشأن 'التعاون' هو 'إغاثة كل للآخر'... وشأن 'الدين' هو 'الأخوة والتكاتف'... وشأن 'إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال' هو 'سعادة الدارين'.''

''وهكذا غُلبت المدنية الحاضرة أمام القرآن الحكيم مع ما أخذت من محاسنَ من الأديان السابقة ولا سيما من القرآن الكريم.''[22]

ولعمر الحق! إن النورسي أتى ببيت القصيد في موضوع المقارنة بين تينك الحضارتين وأصاب نقطة الحياة في التنصيص على خصائص كلتا الحضارتين وثمراتهما ونتائجهما الفردية والاجتماعية بما لا مزيد عليه حتى لو قلنا إنه رحمه الله أعجز بهذا البيان الشافي والتفصيل الوافي في معرض الإبانة عن خصائص وثمرات كلتا الحضارتين كثيرا من الفهوم والعقول، وفي هذا لم نكن مبالغين ولا مغالين. ثم إنه لا يكتفي بهذا القدر بل نراه يتوسع في الموضوع، وصل به حدّ المقارنة بين تلميذ الفلسفة المادية الوضعية التي هي وليدة المدنية الغربية وبين تلميذ التربية الرحيمة الشفيقة التي هي ثمرة من ثمرات القرآن، فيقول باختصار مخاطبا أوربا التي هي مولد تلك المدنية ومحل ترعرعها ونمائها: إن تلميذك فرعون طاغية وفي الوقت نفسه ذليل مهين ومتمرد ولكنه مسكين عاجز وجميع همته تطمين رغبات النفس وإشباع هواها وأما تلميذ القرآن فهو عبد لكنه عزيز ولين هين لكنه لا يتذلل لغير فاطره الحكيم فهو ذو همة عالية وعزيمة صادقة، وفقير لكنه مستغن عن كل شيء بما ادخر له فاطره، وضعيف لكنه يستند إلى قوة خالقه المطلق... وكذلك يمكنكم أن تقيسوا مدى الفرق الهائل بين تلاميذ الفلسفة السقيمة وبين تلاميذ القرآن الحكيم من حيث مدى التضحية والفداء...[23]

ثم إن بيان النورسي في سياق المعطيات الحضارية لا يقف عند هذا الحد بل تراه يتوسع في التنقيب عن معالم الشخصية الحضارية لأوربا وملامحها الذاتية التي تنم عن طبيعتها بأنصع بيان ويفصح عن مثالبها ومضارها التي أضرت الجن والإنس غير ناس التنصيص على ما أنتجته من بعض الأمور النافعة التي انتفع بها العالمون[24] وبهذا يتكون لدى قارئ مؤلفات النورسي فكرة مستبينة عن الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وعن خصائصهما وعن معطياتهما وثمراتهما وعن الفوارق التي تفرق بعضهما عن الآخر. وكفى هذا بيانا شافيا وتفصيلا وافيا عن تقديم موضوع الحضارة للإنسان المعاصر.

ولنكتف بهذا القدر علما منا أن الموضوع يتضمن كثيرا من الأمور الهامة والمسائل اللازمة فيحتاج إلى بيان أوفى وتوسيع أخصب.

٥- الإجابة عن الخطاب النقدي:

إن الإمام النورسي بما كان لديه من الولع والشغف بالاستدلال على الحقائق الإسلامية كان يتحسس ما كان الناس المغرضون يتفوهون به حول الأحكام الإسلامية والمسائل الإيمانية فكان أُذُنَ خيرٍ في ذلك سمَّاعاً لكل أو جل ما قيل عن الإسلام وعقائده الناصعة وكان يجيب عن جميع ذلك قدر المستطاع. فكانت رسائله -ولا تزال- تتركز إلى أقصى حد على إثبات العقائد الإسلامية بأنصع بيان وأبهر برهان وأجمل دليل إجابةً عن تلك الانتقادات التي يوردها الملحدون المغرضون تجاه الإسلام وعقائده. وفي هذا الصدد لا يهمل النورسي الإجابة عما يورده شرذمة المعترضين على بعض أحكام الإسلام أيضا من مثل ميراث المرأة[25] وتعدد الزوجات[26] وحرمة الربا[27] ووجوب الحجاب الشرعي[28] ووجوب الزكاة[29] وحرمة الصور إذ تراه مثلا يقول في موضوع حرمة الصور في سياقها التاريخي مبينا حكمتها بما يلي: ''إن القرآن الكريم مثلما يمنع بشدة عبادة الأصنام يمنع كذلك اتخاذ الصور التي هي شبيهة بنوع من اتخاذ الأصنام. أما المدنية الحاضرة فإنها تعدّ الصور من مزاياها وفضائلها وتحاول أن تعارض القرآن. والحال أن الصور أياً كانت، ظلية أو غيرها، فهي: إما ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى متجسم، حيث تهيج الأهواء وتدفع الإنسان إلى الظلم والرياء والهوى وغيرها.''[30] ويقول مثلا تجاه ما يورده المغرضون حول ميراث المرأة: ''وهما (أي إن إرث البنت مثل أخيها الذكر سويا وحرمان الأم من ميراث الولد) مثالان من ألوف الأمثلة التي تثبت مدى الظلم والإجحاف في الحقوق المدنية للحضارة الحديثة التي تخالف أحكام القرآن.

''إن الحكم القرآني ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[النساء:١٧٦] محض العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه نعم، إن ذلك الحكم عدالة؛ لأن الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها كما هو في الأكثرية المطلقة. أما المرأة فهي تتزوج بالرجل وتذهب إليه، وتحمّل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث. ثم إن الحكم القرآني رحمة؛ لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيراً إلى شفقة والدها وعطفه عليها وإلى رحمة أخيها ورأفته بها فهي تجد -حسب الحكم القرآني- تلك الشفقة عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر، إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضرراً، ولا يقول بأنها

ستكون سبباً في انتقال نصف ثروتي إلى الأجانب والأغيار. فلا يشوب تلك الشفقة والعطف الأبوي الحذر والقلق. ثم إنها ترى من أخيها رحمة وحماية لا يعكرّها حسد ولا منافسة، إذ لا ينظر إليها أخوها نظر من يجد فيها منافساً له يمكن أن تبدد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجانب. فلا يعكر صفو تلك الرحمة والحماية حقد وكدر."[31]

كما يحاول النورسي أن يدافع بشدة وقوة عن السنة النبوية ويجيب عن الانتقادات التي ربما يوردها المغرضون على مكانتها في التشريع الإسلامي فيثبت أهمية السنة النبوية وضرورتها للجامعة الإسلامية سواء في الناحية السلوكية أو في الناحية التشريعية مجيبا بذلك عما يورده بعض المغرضين المعترضين على مكانة السنة النبوية علميا وعمليا مستهدفين من خلال ذلك إلغاء ثاني مصدري التشريع الإسلامي حتى ينهار بذلك نصف الدين أو أكثر. فإن السنة المصطفوية إذا ألغيت أو ضعفت مكانتها التشريعية يقع الدين بأجمعه في لَبْسٍ ودَلَسٍ. حينئذ تقر أعين أعداء الإسلام والحاقدين عليه جميعا. فترى النورسي متدرعا مدى عمره الطويل المبارك بالحماسة الإسلامية والاعتزاز الإيماني لهذا لم يركع يوما ما أمام الطغاة والبغاة -ولو كانوا في أوج قوتهم وسطوتهم- فيأتي في رسالته (مرقاة السنة) بجل ما يمكن أن يَقْنَع به المؤمن من فنون البيان الخطابي والاستدلالي ومن أنواع الحجة وأصناف الدليل والبرهان.[32] فهو رحمه الله لم يأل في ذلك جهدا ولم يخلف بمَلْكِه شيئا فعليك بها تراها بحرا!

٦- إيثار البيان الاستيعابي:

ومما نعرف من سيرة الشيخ النورسي رحمه الله نستيقن -كما عرفنا فيما سلف- أنه كان حمولا بهموم المسلمين وغمومهم كما كان خبيرا محنكا وبصيرا مجربا في ما ألصق بالإسلام من اتهامات وأباطيل وافتراآت وأكاذيب شوهت صورته الحسنى وأدلست محاسنه الغراء ونالت من سمعته النقية الزكية فكان من ضروريات الواقع الإسلامي أن يقوم أرباب العزائم العليا ويشمروا عن ساعد الجد دفاعا عن دينهم وكشفا عن صورته الطاهرة أمام الرأي العالمي وكان في رأس هؤلاء الذين يضحون بكل نفيس ونفيس في سبيل دينهم الأستاذ النورسي فجد وجهد وصرف جليلا من دهره وطويلا من عمره في التركيز الكامل على شرح وبيان محاسن الإسلام العقدية والنفسية والروحية والأخلاقية والاجتماعية بجد وصرامة من غير توان ولا فتور. وتحقيقا لهذا الهدف المنشود تجده رحمه الله يسجل بإلحاح كامل وإصرار بالغ

مقارنات رائعة بين الحياة الإيمانية الرفيعة التي يعيشها المؤمن وبين الحياة الكفرية الفظيعة التي يرتبك ويتورط فيها الكافر شارحا من خلال ذلك الكثير من محاسن الإسلام الروحية والنفسية والاجتماعية. وخصيصا إن تركيزه على الجانب النفسي ونزوله بين حين وآخر إلى أعماق النفس كي ينبش ما كان مدفونا فيها من الخبايا النفسية والطوايا الروحية جدير بكل إعجاب وتقدير. وكذلك أسلوبه البياني الذي يجد المكتئب فيه بلسما شافيا ومرهما نافعا لاضطراباته الروحية وأحزانه القلبية وقلقه النفسي جدير بالتقدير والإعجاب؛ فإن أسلوبه يتضمن من معاني التعظيم والتبجيل والتعزير والتوقير والرحمة والشفقة ما تهش له القلوب وكذلك يتحلى بالكثير من مثيرات العطف والرأفة والشفقة. إن للنورسي ميزة تبدو على أساليبه الدعوية كافة وهي أن له مقدرة خاصة على صياغة الأسلوب النفسي الذي يؤثر في أعماق النفس الإنسانية بتفعيل مشاعرها الدينية وإثارة عواطفها الإيمانية الجياشة وتحريك أحاسيسها المعنوية وتحبيب الكيان الديني برمته إلى النفوس. فمثلا إذا أمعن النظر في هذه القطعة فهم بسهولة مدى مستوى كفاءة خطاب النورسي في الوصول إلى أعماق النفس الإنسانية الدائخة تحت معاول المادية الشعواء والإلحادية الرعناء إذ يقول: والآن أنظر بنور الإيمان إلى هذه الثمرة الكلية الثانية وذقها لترى كيف أنها أبهجت الكائنات من أولها إلى آخرها وعمرّتها وزيّنتها وحوّلتها إلى مسجد أكبر ومعبد أعظم، فالكون المظلم البارد الذي ليس فيه حياة -كما تصوره مادية العلم والفلسفة- يصبح بالإيمان، كوناً ذا حياة وشعور، ومنوراً ومؤنساً ولذيذاً، فتذيق هذه الثمرة أهل الإيمان شعاعاً من لذة الحياة الباقية وهم لا يزالون في الدنيا كلٌ حسب درجته."[33]

وكذا دقق النظر في هذا المقطع الآتي كي ترى كيف يضرب النورسي على أوتار الروح والنفس في قضية تحبيب الإيمان إلى القلوب:

"إن الإنسانَ يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقاً بالجنة، بينما يتردّى بظلمةِ الكفر إلى اسفل سافلين فيكون في وضعٍ يؤهّلُه لنار جهنم، ذلك لأنّ الإيمان يربطُ الإنسان بصانعهِ الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ إليه، فالإيمانُ إنما هو انتسابٌ؛ لذا يكتسب الإنسانُ بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعةِ الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده. أما الكفرُ فيقطع تلك النسبةَ وذلك الانتسابَ، وتغشى ظلمته الصنعةَ الربانية وتطمِس على معالمها، فَتنقُص قيمةَ الإنسان حيث تنحصر في مادّته فحسب؛ وقيمةُ المادة لا يُعتدّ بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتُها حياةٌ حيوانيةٌ مؤقتة."[34]

وهكذا نجد للنورسي أسلوبا شيقا أخّاذا في تحبيب الإيمان والإسلام إلى القلوب بذكر فضائله وكمالاته وفوائده وثمراته الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية العالية ثم تجده ينحو يمينا ويسارا وجنوبا وشمالا ويتدخل في المجالات العديدة ويتطرق إلى الميادين العديدة يبين ما للإيمان والإسلام فيها من الفضل الكبير والعطاء الجزل في إزاحة الاكتئاب النفسي والقلق الروحي وفي إنماء الراحة الروحية والسكينة النفسية والطمأنينة القلبية كما ترى معطائية النورسي في ذلك في رسالة الاقتصاد[35] ورسالة المرضى،[36] ورسالة الشيوخ[37] ورسالة الحجاب[38] ورسالة الحشر،[39] ورسالة الشكر،[40] ورسالة رائد الشباب، ففي كل واحدة من هذه الرسائل وفي غيرها من كتاباته العديدة المتشعبة حسب شعب الحياة يعرض النورسي بأسلوبه الفذ الذي يتميز به عطاء الإيمان الجزل ببيان ما للإيمان والإسلام من المحاسن السامية والكمالات الراقية والفضائل العالية التي لا تجدها بتلك الكثرة والوفرة إطلاقا إلا في بيدر الإيمان. يلتقط الشيخ النورسي بملقاط ذهنه الوقاد ثمرات الإيمان وفوائده ومصالحه من هنا وهناك بلا كلل ولا ملل. فمثلا استمع إلى هذا النداء الذي يوجهه النورسي لفئة الشباب قائلا: ''فيا مَن فُتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعها، ويا مَن يبذلون قصارى جهدهم لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما! أيها البائسون! إن كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها، فاللذائذ المشروعة تُغنيكم عن كل شيء، فهي كافية ووافية لتلبية رغباتكم وتطمين أهوائكم. ولقد أدركتم -مما بيناه آنفاً- أن كل لذة ومتعة خارجة عن نطاق الشرع فيها ألف ألمٍ وألم، إذ لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلاً، على شاشة الآن مثلما تُعرض الأحداث الماضية عليها لبكى أربابُ الغفلة والسفاهة بكاءً مراً أليماً على ما يضحكون له الآن. فمن كان يريد السرور الخالص الدائم والفرح المقيم في الدنيا والآخرة، عليه أن يقتدي بما في نطاق الإيمان من تربية محمد ﷺ.''[41]

وكذلك لقلم الشيخ النورسي مقدرة خاصة في الإفصاح عن شرور الكفر ومضرات العصيان ومثالب الجحود والإلحاد وله كفاءة متميزة في إبراز ما يعانيه ذوو الكفر والضلال وأصحاب الذنوب والعصيان من الشقاء الروحي والقلق النفسي والألم القلبي ومن الخوف والفزع والهلع. فأسلوبه فريد في الإبانة عن مساوئ الكفر وأضرار الإلحاد ورادع وزاجر ومنفر عنه بتعداد مثالبه وذكر معايبه وسرد فضائحه وإبراز رذائله ربما لا تجد ذلك عند غيره من فطاحل العلماء بهذا الإحكام والإفصاح. وأخيرا لا آخرا فلنستمع إلى هذه القطعة العسجدية من الحوار الذي أجراه مع بعض الشباب إذ

يقول: ''فالحياة، إن كانت خالية من الإيمان، أو فَقَد الإيمانُ تأثيره فيها لكثرة المعاصي، فإنها مع متاعها ولذتها الظاهرية القصيرة جداً تذيق الآلام والأحزان والهموم أضعافَ أضعافِ تلك المتع والملذات، ذلك لأن الإنسان -بما مُنح من عقل وفكر- ذو علاقة فطرية وثيقة بالماضي والمستقبل فضلاً عما هو عليه من زمان حاضر حتى إنه يتمكن من أن يذوق لذائذ تلك الأزمنة ويشعر بآلامها، خلافاً للحيوان الذي لا تعكر صفو لذته الحاضرة الأحزانُ الواردة من الماضي ولا المخاوف المتوقعة في المستقبل، حيث لم يمنح الفكر.''

''ومن هنا فالإنسان الذي تردّى في الضلالة وأطبقت عليه الغفلة تفسد متعتُه الحاضرة بما يردُه من أحزان من الماضي، وما يرده من اضطرابٍ من القلق على المستقبل. فتتكدّر حياتُه الحاضرة بالآلام والأوهام، سيما الملذات غير المشروعة، فهي في حكم العسل المسموم تماماً.أي إن الإنسان هو أدنى بمائة مرة من الحيوان من حيث التمتع بملذات الحياة. بل إن حياة أرباب الضلالة والغفلة، بل وجودهم وعالَمهم، ما هو إلاّ يومهم الحاضر.''[42]

٧- تنظيف العقلية العلمية الإسلامية:

إن من أهم الآليات التي وظّفها النورسي في الخطاب الدعوي تجاه ما يجابهه من تلك الأحداث الجسام والزلازل الفكرية العظام والتشويشات الذهنية التي تعرض لها العقل الإسلامي في عصره في ساحات العلوم الشرعية وخصيصا في التفسير والحديث وغيرهما هو تنظيف تلك الساحات العلمية الإسلامية وتطهيرها مما علق بها عبر الزمن من أوضار التاريخ من الإسرائيليات والانحرافات والأباطيل وغيرها. فإن التاريخ الإسلامي مثل غيره من التواريخ لم يسر على خط مستقيم بل سار سيرا مملوءا متذبذبا فيه كثير من الصعود والنزول ومن خلال ذلك السير الطويل شاب الحصيلة العلمية الإسلامية كثير من المواد الدخيلة التي لا صلة لها بتلك العلوم إلا صلة هامشية لا غير، لأن العقلية الإنسانية كانت ولا تزل تتعثر في دور طفولتها -إلا ما استهدى منها بهدي القرآن- ولم تكن بمستوى أن تميز بين الضار والنافع والصالح والطالح والغث والسمين فكانت تقبل معظم ما ورد عليها من المعارف إن حقا وإن باطلا وإن صدقا وإن كذبا. فاختلطت بالمعارف الإسلامية أمواج هائلة من الإسرائيليات والخرافات والأباطيل والأساطير والموضوعات والمحرفات وزاد كمياتِ هذه الأمور اللاعقلانية إقبالُ غوغاء الناس عليها وإنصاتهم إليها بإذعان وتسليم بدون

وزن وتقويم. ولم يكن حينذاك قد تكوَّن من العقلية العلمية مقدرةُ أن تغربلها أو تصفيها مما علق بها من تلك الأوضار. ولم يكن لديها من الآليات الفكرية والعلمية والثقافية ما تستطيع أن ترد بها غثها أو تدفع بها عوارها فآل الأمر إلى أن استأنستها جماهير الناس واستساغتها عقولهم بما كانت تجد فيها شيئا من الالتهاء النفسي والانشغال الفكري. وعلى الخصوص إن الأمة العربية -بعد الإسلام- أخذت تحتضن الأقوام الأخرى فدخلت معلومات سائر الملل وعلومها أيضاً رحاب ثقافة المسلمين، ومن هناك وجدت الإسرائيليات المحرّفة منفذاً إلى خزائن خيال المسلمين، فأسالت مجرىً إلى تلك الخزائن، بإسلام عدد من علماء أهل الكتاب كـ ''وهب وكعب'' فامتزجت الإسرائيليات بالأفكار الصافية، فضلاً عن ذلك وجدت الاحترام والتقدير، لأن الذين اهتدوا من علماء أهل الكتاب قد تكاملوا بشرف الإسلام ونالوا به مكانة فائقة، لذا غدت معلوماتهم الملفقة كأنها مقبولة ومسلّم بها فلم تردّ، بل وجدت آذاناً صاغية لها من دون نقد، وذلك لعدم مصادمتها بأصول الإسلام ولأنها كانت تروى كحكايات لا أهمية لها... ولكن يا للأسف. قبلت تلك الحكايات بعد فترة من الزمن كأنها حقائق وأصبحت سبباً لكثير من الشبهات والشكوك.[43]

إضافة إلى أن النورسي ذكر في صيقله والبعض الآخر من سائر كتبه طرفا من الأسباب التي سببت فتح مجاري وقنوات للإسرائيليات إلى التراث الإسلامي من مثل قوله: ''من سجية البشر ميل التزيد مما التذ به وميل المجازفة فيما وصف والمبالغة فيما حكى...فقد يتولد النقصان من حيث يزيد والذم من حيث يمدح... ألا ترى من استحسن دواء فازداد انقلب داء... ومن زاد على انشقاق القمر نزوله إلى الأرض ودخوله في الجيب كيف يصير شمس المعجزة الباهرة كالسهى في الخفاء وخسف القمر وفتح للمنكرين باب الإنكار... وبالجملة فاللازم على ذي الدين والحقيقة أن يستغني بقيمة كل ولا يتجاوز ولا يجازف...لأن المجازفة افتراء على القدرة وعدم قناعة بحسن الخلقة''[44] فمن أكبر أسباب إضافة الموروثات الإسرائلية حسب ما ارتآه النورسي هو ميل الإنسان للتزيد والمبالغة فيما يحكي ويذكر. كما يرى أن تلك المبالغة هي التي تنزل بقيمة كثير من تلك المسائل التي تسربت الإسرائيلية إليها. فيفيد من ذاك أن من واجبات العقلية الإسلامية في الوقت الراهن تجاه تلك المبالغات والمجازفات أن تشمر عن ساعد الجد وتطهر المعلومة الإسلامية عن جميع ما علق بها من الموهومات المموهات.

كما لم يهمل الشيخ النورسي أن يشرح سبب نسبة كثير من ذلك الموروث الإسرائيلي إلى الذين لهم جلالة العلم والعقل والفكر من أمثال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وغيرهم من كبار السلف الصالح، رضي الله عنهم، فقال ''إن من سجية البشر نسبة الغرائب أو ما فيه قيمة إلى من اشتهر بجنسها ليروج عنه أو لئلا يكذب أو لأغراض أخر مع أنه لو عرض المنسوب على نظر الناقد الذي يبصر وراء الحسن السطحي إخلاله لموازنة تناسب حسن صنعته التي اشتهر بها لأعرض عنها وتبرأ واشمأز.''[45] وهذا سبب وهناك سبب آخر أيضا لنمو ذلك المحصول الخرافي عبر التاريخ وهو أن تلك الشخصيات الأسطورية التي أضيفت إليها كثير من تلك الأساطير والأباطيل إنما بلغت أشدها عبر التاريخ انطلاقا من قاعدة: ''إذا ثبت الشيء ثبت بلوازمه'' فيضطر الناس لينتظم ما يتخيلون إلى إسناد لوازم من القوة الخارقة والعظمة والذكاء العجيب حتى يتهيأ للمنسوب إليه مرجعيته لكل المنسوبات فيتجسم في ذهنهم أعجوبة من الأعاجيب...فمن هذا الموضع ينفتح باب الخرافات وينسد باب التحقيق والترقي...''[46]

كما يرى أن من أسباب ذلك النمو الخرافي والإسرائيلي دخول المجاز والتشبيهات في أيدي الجهلة وتدخل البعض من المتخصصين فيما هو ليس من مجال تخصصهم ومحاولة البعض الآخر من أجيال العلم للتدخل في المجالات العديدة مما يكون فوق طاقتهم.[47] هذه نبذة من أسباب نشأة ونمو الموروث الإسرائيلي على حد رأي النورسي.

فمن كل تلك الملاحظات التي لاحظها النورسي كان يرى أن من أهمية ما يتحتم على المشتغلين في ساحات العلوم الإسلامية هو تنظيفها مما علق بها عبر التاريخ من تلك الأدران الذهنية والرواسب الفكرية. وهو نفسه بدأ بأداء ما يتحتم عليه في تلك الساحة فجادل فكريا وعمليا مع رواسب الأساطير والإسرائيليات التي ترسبت في قعار العلوم الإسلامية إذ يقول لا بد أن أزيل عن بصر بصيرتك غشاوة الخيالات التي صارت كالغول تضع أيديها على عينك.[48] فأجاب عن بعض تلك الأمور التي نبت عليها الموروث الإسرائيلي، من مثل مسألة جبل ق والثور والحوت وغيرها، بما يشفي الصدر وينفي الغل.[49] وإلى جانب ذلك تناول بالتحليل والإجابة أيضا بعض المتشابهات القرآنية وبعض تلك المسائل الثقافية الإسلامية التي استقرت في ثقافتنا الموروثة الإسلامية من قديم الأزمان والتي يستعصي فهمها على الإنسان المعاصر كنزول عيسى عليه السلام وظهور الدجال ووجود جهنم تحت الأرض وغيرها. إن الإمام

النورسي رحمه الله تناول جميع تلك القضايا التي تُكوِّن عقبة فكرية كؤودة في التفكير الإسلامي المعاصر بصورة يستسيغ التفكير الإسلامي فهمها. فعلى الرغم من أن النورسي تربى بين أحضان المدرسة الشرقية الكلاسيكية بأتم معناها وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من معارفه كانت مُتَقَوْلِبَة بالقالب الكلاسيكي القديم لكنه رحمه الله بما أوتي من بصيرة حادة وذكاء وقّاد وبما تكوَّن لديه من عقلية إسلامية مستنيرة متفتحة استطاع أن يجيب عن كل ما تناوله من تلك القضايا إجابات يهش لها الإنسان المعاصر وينشرح بها صدره ويذهب بها غيظ قلبه.

٨- البلاغ العملي والتطبيقي:

لم تظهر معالم التجدد على كيان النورسي الفكري والعلمي، والدعوي فحسب، بل جاوزها إلى تجدد معالم حياته العملية أكثر من ذي قبل فكان له اهتمام بالغ بأن تنعكس آثار خطابه الدعوي على حياته هو قبل كل أحد حتى لا تتناقض أعماله مع خطابه، فجعل من ذلك حياة نفسه حياة عملية مثالية تفاد في إطار الأعمال الشخصية بالأفعال قبل الأقوال وبالأحوال قبل الألفاظ. وإذا لوحظت حياة الإمام النورسي عن كثب، لوحظت أن حياته كانت مثالية، ربما لا توجد عبر الأجيال إلا في أفذاذ الرجال وهذه الحياة المثالية هي التي جعلت كثيرا من الرجال والنساء يلتفون حول دعوته، وهي التي جعلت مئات الآلاف تحبه حبا منقطع النظير وتحب نشر كتبه بين ربوع العالم وتضحي في ذلك بالنفس والنفيس. فإن أكثر ما تشد الأنفس إلى الدعوات هو صدق أصحابها ونصحهم وسيرتهم العملية ومقدار تفاعلها مع المبادئ التي يدعون إليها. فأصدق الموازين في السبر عن نصح أصحاب الدعوات هي توافقهم العملي وتواؤمهم المثالي مع مبادئ الدعوة لا غير.

وأبرز معالم هذه الحياة التي كانت غرة مثلى في جبين العصر هو كما يأتي:

أولا: ترك النورسي رحمه الله للمناصب الدنيوية الفخمة التي عرضت عليه.

ثانيا: صدقه المثالي ومناصحته مع زملائه وطلابه بحيث لم يُر منه قط مدى عمره الطويل -وبالرغم من الأحداث المفزعة والنكبات المدلهمة التي عاشها النورسي - أيُّ أثر من غش وتدليس وتضليل. فكان يعلو عليه في جميع مراحل حياته الشاقة سمت العالم الوقور الصبور لا غير وكذا يسود عليه سمت الداعية النصوح الأمين.

ثالثا: إن أبرز ما طبقه النورسي في حياته هو الزهد في أكمل صوره فلم ينفصل عن

مبادئ الزهد ولا قيد شعرة ومن هذا لم يمتلك من متاع الدنيا شيئا وحينما التحق بربه لم يكن له سوى ما كان يلبس على جثمانه من ملابسه الرثة وساعته التي كان يحدد بها الوقت. ثم إن النورسي بلغ الزهد منه مبلغا لا تجده عند الزهاد الآخرين حيث إنه كما زهد في نعيم الدنيا ولذائذها يعلن أنه على استعداد أن يضحي بآخرته أيضا في سبيل دعوته، إذ يقول: ''قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم لا بسعادتي الدنيوية وحدها، بل حتى إذا استدعى الأمر أضحي بسعادتي الأخروية كذلك، فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الموقت -مع علمي بأنه سنة نبوية- بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطراً إلى التخلي عنهن جميعاً، من أجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلابد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان.[50]

ورابعا: كأثر من آثار ذلك الزهد الراسخ في طبيعة النورسي فعل ما يأتي:

أ- رفض قبول الهدايا والعطايا من غيره، وعلل النورسي ذلك ببعض الأمور فمنها أنه قال: نعم إن إنسان هذا العصر يبيع هديته البخسة بثمن باهظ، لحرصه وطمعه، فيتصور شخصاً مذنباً عاجزاً مثلي ولياً صالحاً، ثم يعطيني رغيفاً هديةً. فإذا اعتقدت أنني صالح -حاش لله- فهذا علامة الغرور، ودليل على عدم الصلاح. وإن لم أعتقد بصلاحي، فقبول ذلك المال غير جائز لي. وأيضاً إن أخذ الصدقة والهدية مقابل الأعمال المتوجهة للآخرة يعني قطف ثمرات خالدة للآخرة، بصورة فانية في الدنيا.

ب- عدم الزواج فإنه كان يرى أن الزواج يأتي له بتكاليف أسرية تسبب تخليه عن بعض تكاليف الدعوة ويعرب عن ذلك بقوله: ولقد أفتى علماء منكوبون، وأناس أتقياء، لصالح البدع، أو ظهروا بمظهر الموالين لها، من جراء هموم عيش أولادهم وأهليهم، لذا يقتضي منتهى التضحية والفداء، ومنتهى الثبات والصلابة وغاية الاستغناء عن الناس، وعن كل شيء، تجاه الهجوم المرعب العنيف على الدين، ولا سيما بعد إلغاء دروس الدين في المدارس وتبديل الأذان الشرعي ومنع الحجاب بقوة القانون؛ لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض. إذ لا يمكن أن تقترف محرمات

كثيرة لأجل أداء سنة واحدة. فلقد وجد علماء أدوا تلك السنة النبوية أنفسهم مضطرين إلى الدخول في عشر كبائر ومحرمات وترك قسم من السنن والفرائض، في غضون هذه السنوات الأربعين.[51]

فاتخذ النورسي بعض تلك المواقف الحاسمة في حياته الشخصية صونا لمعالم دعوته عما يمكن أن يصمها به المغرضون من أرباب النوايا الخبيثة: وأيضا من تلك المعالم التي تنم عن حياة مثلى للنورسي عدم التذلل للجبابرة وانضباط النفس عن ردود الفعل تجاه ما كان يتعرض له هو نفسه من المظالم والاستنكار لشخصيته الرفيعة وغيرها من الميزات الكثيرة والمبادئ الرفيعة والسمات النزيهة التي جعلت من حياة النورسي حياة مثالية يأتسى بها مقتبل الأجيال فرحمه الله رحمة واسعة وألحقنا به في جنات عدن في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

خلاصة القول

إن الإمام النورسي من أفذاذ الرجال الذين كان لديهم بصيرة حادة وفراسة متميزة في معرفة المتجه الذي يسير المجتمع نحوه وكان لديه بصيرة خاصة بالتقلبات والانهيارات والتراجعات التي كان عاشها المجتمع الإسلامي وسيعيشها في تلك الأحداث الجسام. فمن هنا كان يرى أن من واجب العالم المسلم أن يأخذ حذره تجاه الأحداث المؤلمة والنكبات المدلهمة وذلك بالتزود بأسلحة العصر ولا ريب أن من أهم أسلحة هذا العصر العلم والحياة المثالية التي لا يستطيع المعارض أن ينال منها نيلا. ثم إن النورسي انطلاقا مما عاشه الإنسان المعاصر من التحولات الجذرية في التفكير والتقييم ومما تكوَّن لديه من العقلية الإسلامية الجديدة التي انصاغت بسيادة العقلية الحضارية صاغ النورسي خطابه الدعوي صياغة خاصة تفي بمتطلبات العصر وتنطلق من ضروریاته. وراعى في صياغة ذلك الخطاب الجديد النقاط الأساسية التي يحاول أهل الباطل أن ينطلقوا منها فينتقدوا بها بعض تلك المسائل الاعتقادية والفقهية. كما أن النورسي كان يصوغ المسائل الاعتقادية صياغة عقلانية بمعناها الإسلامي. وكان يحاول بما أوتي من قوة وقدرة أن يثبت الأركان الإيمانية والحقائق الإسلامية بأدلة باهرة منتقاة من تصاريف الكون وتدابيره وتنظيماته والإبداع والإتقان الجاري فيه.

وإلى جانب ذلك إن النورسي اعتنى إلى أقصى حد بأنسنة مضامين خطابه الدعوي حتى يستطيع أن يثير مشاعر الإنسان المعاصر ويوجهها توجيها رشيدا سديدا وحتى يكون جوابا لما عساه أن يستورده بعض المغرضين من عدم اهتمام الإسلام بالمعاني الإنسانية أو بالقيم التي تتطلب الرحمة بالإنسان وترفع مستواه القيمي وتثبت كرامته وحقوقه وتثبت حريته وتقوي شخصيته فمن هنا صاغ النورسي خطابه الدعوي خطابا إنسانيا عقلانيا بحيث لم يترك وراءه هوّة منقصة تنال من تلك المبادئ والتعاليم الإسلامية العليا إلا وردمها.

ومن الجانب الآخر لما كان النورسي يمتلكه من تلك الحكمة البالغة كان له اهتمام ذو بعد آخر بتحبيب الإسلام وعقائده إلى القلوب والعقول وذلك بإبراز محاسنه وإظهار كمالاته وقيمه التي كانت مبثوثة في جميع أرجائه وأنحائه.

فنرى من خلال تلك الملامح المستنيرة التي انصبغ بها خطاب النورسي في ثوبه القشيب بعض المعالم الجديرة بالتقدير والاعتبار فمن ذلك أنه أحدث في كيان الخطاب الدعوي الإسلامي المعاصر ما يشبه الثورة لمراعاته لجميع الضروريات التي يتطلبها العصر من رد الانتقادات الواردة من أبناء العصر ومن التطرق إلى تلك التأملات والملحوظات الحضارية التي تكشف الغطاء عن أبرز معالم وميزات الحضارة الإسلامية وتظهر مثالب الحضارة الغربية التي نجمت منها ويلات وثبور وكوارث ودمار لحقت بالعالم الإنساني عامة لا الإسلامي خاصة؛ ومن ذلك البيان الاستيعابي الذي يحاول جهده أن يحيط بجميع جوانب الحياة وطبقات الناس ويشرح ما يسبب لهم الإيمان من تلك الطمأنينة العميقة والسكينة الراسخة والأمن النفسي والراحة الروحية وغيرها؛ ومن ذلك محاولة تنظيف العقلية العلمية الإسلامية عما علق بها عبر التاريخ من الأوساخ والأوضار؛ ومن ذلك البلاغ التطبيقي الذي هو أهم ما يلفت أنظار الناس إلى الداعية ويكوِّن التفاف الناس عليه كما أنه أكبر ما يسبب الثقة به كزعيم للدعوة.

هذه هي أبرز تلك المعالم التي أتت بكيان خطابي جديد للنورسي تستبين للناظر في كتاباته والقارئ لسيرته لا جدال فيها ولا مراء إلا من كان على قلوبهم أقفالها. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

إن الإمام النورسي حاز قصب السبق في الوعي بعصره والإطلاع على المشاكل الكبرى التي قدمتها تحديات العصر فكان خبيرا بأدواء العصر وإشكالياته وتحدياته تجاه الإسلام وأهله. ومن جراء ذلك اعتمل النورسي بما أوتي من قوة كي يقدم لأمراض العصر السارية بعض الأدوية، وكي يعطي لتلك التحديات الحديثة بعض الأجوبة، وكي يفيد لتلك الإشكاليات الشديدة بعض الحلول فجد وجاهد لتجديد خطابه الدعوي، من خلال بعض المعالم المستجدة كي يكون لدى الإنسان المعاصر صورة رفيعة عن عقلانية الإسلام ومطابقته مع معطيات العلم الحديث والتطورات المستحدثة وحتى يؤسس وشيجة اتصال عقلي وعقدي بين رحمة الإسلام العظمى وبين أبناء العصر -وخصيصا منهم الشباب والمثقفين- وحيث إن النورسي كان يتمتع ببصيرة رائدة في متطلبات العصر وما سيتمخض عنه من التشكيكات والتضليلات العقدية والاجتماعية كان يتركز عبر دعوته على ما هو أمسُّ بإنجاء المؤمن من مخالب الكفر ومعاطب الإلحاد. فكان الشيخ النورسي رحمه الله يخاطب أبناء عصره خطابا رقيقا شفيقا لينا يثير فيهم جميع أسباب الاستجابة والإنابة ويحركهم وينبههم كي يتجهوا بشراشرهم نحو معالم الدين الحنيف.

وتحقيقا لهذا الهدف السامي كان رحمه الله يؤثر عبر دعوته المستمرة طيلة حياته المباركة بعض الملامح التي لم يكن ليهملها أبدا، وهي تتلخص فيما يأتي:

عقلنة الدعوة والأساليب: للإجابة عن جميع ما يمكن أن يورده الملحدون والمغرضون حول الأركان الإيمانية بأجمعها وموضوعات العقيدة من الشكوك والتضليلات والشبهات بأسلوب علمي رصين متزن إنقاذا للجماعة الإسلامية من حضيض الإيمان التقليدي وإيصالا بها إلى قمة الإيمان التحقيقي.

١. أنسنة الأداء والإفادة: لتحبيب الأحكام والعبادات الإسلامية إلى القلوب ببيان ما تحتوي عليه من الفوائد والحكم.

٢. استفزاز العواطف النفسية: لتلبية المتطلبات النفسية للإنسان المعاصر بإيثار الأسلوب الإقناعي الحكيم والأسلوب العاطفي الرقيق المبتعدين عن الثرثرة والصلف اللفظي.

٣. البيان الحضاري: للتنصيص على الخصائص الحضارية لكلتا الحضارتين الحيتين

الإسلامية والغربية بما أن الإنسان المعاصر له نهم بالغ بالمواضيع الحضارية.

٤. الإجابة عن الخطاب النقدي: إجابة عن بعض تلك الانتقادات التي يوردها الجاحدون المغرضون على بعض الأحكام الشرعية من مثل ميراث المرأة وتعدد الزوجات وغيرهما.

٥. إيثار البيان الاستيعابي: للتركيز الكامل على شرح وبيان محاسن الإسلام العقدية والنفسية والروحية والأخلاقية والاجتماعية. وتحقيقا لهذا الهدف المنشود عبر جميع مؤلفات الشيخ النورسي تجده رحمه الله يسجل بإلحاح كامل وإصرار بالغ مقارنات رائعة بين الحياة الإيمانية الرفيعة التي يعيشها المؤمن وبين الحياة الكفرية الفظيعة التي يرتبك ويتورط فيها الكافر.

٦. البلاغ العملي والتطبيقي: بالدعوة العملية المثالية التي تفاد في إطار الأعمال الشخصية بالأفعال قبل الأقوال وبالأحوال قبل الألفاظ من مثل بعض تلك المواقف الحاسمة التي كان الإمام النورسي يتخذها ضمن حياته الشخصية صونا لمعالم دعوته عما يمكن أن يصمها به المغرضون من أرباب النوايا الخبيثة: كالامتناع من قبول الهدايا وكعدم التذلل للجبابرة وكالزهد الدائم وكانضباط النفس عن ردود الفعل تجاه ما كان يتعرض له نفسه من المظالم والاستنكار لشخصيته الرفيعة.

٧. تنظيف العقلية الإسلامية: يتحتم تنظيف ساحات العلوم الشرعية من تفسير وحديث وغيرهما عما علق بها عبر التاريخ من أوضار التاريخ من إسرائيليات وانحرافات وغيرها.

فجميع هذه الملامح تعطي صورة متكاملة عن الكيان التجددي لخطاب النورسي الدعوي الذي يحتاج إليه المؤمن المعاصر كأشد ما يكون وتبين حيويته وصلاحيته لشتى الطبقات الاجتماعية والأزمنة المعاصرة.

* * *

ثبت المصادر:

- النورسي بديع الزمان سعيد، السيرة الذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٤١٩\١٩٩٨.
- النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٢\١٩٩٢.
- النورسي، ملحق قسطموني، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، النسخة الألكترونية بقرص كليات رسائل النور.
- النورسي ملحق أمير داغ ١، ملحق أمير داغ ١، النسخة الألكترونة بقرص كليات رسائل النور.
- النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٤١٣\١٩٩٣.
- النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٤\١٩٩٣.
- النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر إستانبول ١٩٩٤.
- النورسي، الصيقل الإسلامي، بدون تاريخ ولا محل طباعة.
- النورسي، السيرة الذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٩\١٩٩٨.

* * *

الهوامش:

[*] أ.د. خليل جيجك عميد كلية الإلهيات بجامعة بين كول، تركيا.

[1] راجع النورسي بديع الزمان سعيد، السيرة الذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٤١٩\١٩٩٨، ص ٦٦.

[2] نفس المصدر السابق.

[3] نفس المصدر السابق.

[4] النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٢\١٩٩٢، ص ١٠٤.

[5] المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٦.

[6] المصدر السابق، ص ١٠٦.

[7] النورسي، ملحق قسطموني، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، النسخة الألكترونية بقرص كليات رسائل النور، ص ٢٢٤.

[8] النورسي ملحق أمير داغ\١، ملحق أمير داغ \١، النسخة الإلكترونية بقرص كليات رسائل النور، ص ٢٧٨.

[9] نفس المصدر.

[10] راجع نفس المصدر، ص ٢٧٦

[11] راجع النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٣\١٩٩٣، ص ٢٦٦- ٢٩٨.

[12] راجع النورسي، الكلمات، ص ٧٨٢- ٧٣٣.

[13] المصدر السابق، ص ٢٧٦.

[14] النورسي، الكلمات، ص ٧٣٢.

[15] المصدر السابق، ص ٨٣٠.

[16] المصدر السابق، ص ٦٩٨.

[17] نفس المصدر.

[18] النورسي، الكلمات ص ١٣٦.

[19] المصدر السابق، ص ٤١.

[20] نفس المصدر ص ٤٢. وانظر أيضا ص ٨٥١.

[21] النورسي، الكلمات، ص ٤٧٣.

[22] المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣. وانظر أيضا للمقارنة بين الحضارتين نفس المصدر ص ١٤٥-١٤٦، ٨٥٥-٨٥٧، ٨٨٤-٨٨٧.

[23] النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٤١٣\١٩٩٣، ص ١٨١ باختصار وتصرف.

[24] انظر المصدر السابق، ص ١٧٦- ١٨١.

[25] انظر النورسي، الكلمات، ص ٤٧٥.

[26] انظر المصدر السابق، ص ٤٧٤-٤٧٥.

[27] انظر المصدر السابق، ص ٤٧٤، ٨٥١.

[28] انظر المصدر السابق، ص ٤٧٦.

[29] انظر المصدر السابق، ص ٨٥١.

[30] المصدر السابق، ص ٤٧٥.

[31] النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ص ٤٨.
[32] راجع في بيان ضرورة السنة النبوية المصدر السابق، ص ٨٠- ٩٦.
[33] النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٤\١٩٩٣، ص ٣٢٨.
[34] النورسي، الكلمات، ص ٣٤٨.
[35] راجع النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر إستانبول ص ٢١١-٢٢٤.
[36] راجع المصدر السابق، ص ٣١٥-٣٣٩.
[37] راجع المصدر السابق، ص ٣٤٠- ٤٠٩.
[38] راجع المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣١٤.
[39] راجع النوسي، الكلمات، ص ٤٨-١٢٨.
[40] راجع النورسي، المكتوبات، ص ٤٦٩-٤٩٩.
[41] المصدر السابق، ص ١٥٩.
[42] نفس المصدر السابق.
[43] النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر إستانبول، ص ٣٤.
[44] النورسي، الصيقل الإسلامي، بدون تاريخ ولا محل طباعة، ص ٢١.
[45] المصدر السابق، ص ١٧.
[46] نفس المصدر.
[47] المصدر السابق، ص ١٨- ١٩.
[48] المصدر السابق، ص ٣٣.
[49] راجع المصدر السابق، ص ٣٣-٤٧.
[50] النورسي، السيرة الذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٩\١٩٩٨، ص ٤٩٣- ٤٩٤.
[51] المصدر السابق، ص ٤٩٤.

دراسة عن أسلوب الحوار في القرآن الكريم

د. إسحاق رحماني *

من أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة التي استعملها القرآن الكريم، في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسل الكرام -عليهم السلام- فيما يبلغون عن ربهم ﷻ أسلوب الحوار من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، ويجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتًا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك. وقد استعمل القرآن الكريم أقوى البراهين في حواره للوصول إلى معرفة الحق.

ونحن نسعى في هذه المقالة أن نبيّن هذا أسلوب في القرآن الكريم.

الكلمات الأصلية: دراسة، أسلوب، الحوار، القرآن الكريم.

مقدمه:

إن كثيرا من المشاكل والصدامات الدامية التي تدفع البشرية ثمنها كان ممكنا أن تتجنب أصلاً أو يخفف أثرها أو تقلّ سلبياتها لو لجئ إلى الحوار واستنفذت أغراضه ووسائله. إن الحوار هو لغة الإسلام وقد قضى الله سبحانه أن تكون علاقته جل شأنه بمخلوقاته قائمة على أساس الحوار الإقناعي وليس على أساس القهر والإكراه، وأن القرآن الكريم وهو دستور المسلمين، ومصدر عقيدتهم وشريعتهم قد وجهنا إلى أن الحوار هو الأسلوب الذي يجب على المسلمين إتباعه عند بحث القضايا والمشكلات. ومن مستلزمات الحوار الاعتراف بالآخر وبحقه في الوجود وبحقه في التعبير عن رأيه وبحقه في الاختلاف مع الآخر.

والحوار يمكن أن يقع بين مختلف مكوّنات المجتمع المدني وتوجهاته الاجتماعية والسياسية، ومنها تنزل إلى مستوى الأسرة، فيُرى أثرها فيما بين الزوج والزوجة وما بين الزوجين والأولاد. فالحوار ممر استراتيجي لحل الأزمات الكبيرة والصغيرة.

استعمل القرآن الكريم منهج الحوار ليعلمنا استعماله في جميع مجالات حياتنا، من أجل الوصول إلى الحق بقناعة عقلية، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني، لكي يعيش المجتمع الإنساني في إخاء وتواصل، وأمن وأمان، وحب وسلام.

مفهوم الحوار:

كلمة الحوار كلمة جميلة رقيقة، تدل على التفاهم والتفاوض والتجانس، وإذا رجعنا إلى كتب اللغة العربية ومعاجمها فإننا نجد فيها مصطلحات تتفق في جانب من مفاهيمها ومعانيها مع مصطلح الحوار، وإذا أردنا أن نقف على مفهوم الحوار فإن ذلك يتطلب الوقوف على مفاهيم تلك المصطلحات التي لها علاقة وثيقة به وهي الجدل، والمناظرة، لأن هناك تداخلاً كبيراً في مستوى الدلالة بين هذه المصطلحات الثلاثة (الجدل – المناظرة – الحوار) وسنحاول هنا الوقوف على مفهوم كل مصطلح على حده لنرى أوجه الاتفاق والاختلاف بينها.

مفهوم الجدل:

جاء في كتاب مقاييس اللغة لابن فارس: جدَلَ الجيم والدّال واللاّم أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[1] وجدل يَجدِلُ: اشتدّت خصومته.[2]

أما في الاصطلاح: فقد عرفه الأصفهاني بقوله: ''هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة وهي الأرض الصلبة.[3]

والمناظرة لغة من النظير، أو من النظر بالبصيرة، فهي من النظر تفيد الانتظار والتفكير في الشيء تقيسه وتقدره، ومن التناظر تفيد التقابل،[4] ومن النظير تفيد التماثل.

أما في الاصطلاح المناظرة بمعناها الاصطلاحي يوجد فيها معنى التناظر الذي هو التقابل، سواء أكان بين الأشخاص في المجلس الواحد، أو بين الأدلة والحجج.[5]

المناظرة في الواقع وإن كان أساسها من النظر فإنها تطوّرت لتعني التناظر المشحون بروح التحدي، فكل واحد من الطرفين يعتبر نفسه عند المناظرة نظيراً للآخر أو نداً وقادراً على أن يتحداه.

الحوار في اللغة:

اشتقاق لفظ ''الحوار'' في اللغة من مادة ''ح و ر'' التي تحمل من الدلالات

الكثير، وذكر علماء اللغة أنّ له معاني متعددة تبعاً لتفعيلاتها الصرفية، فقد جاء في صحاح الجوهري، ما يلي: ''المحاورة المجاوبة. والتحاور: التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إلي جوابا، وما رجع إلي حويرا، ولا حويرة، ولا محورة، ولا حِوارا. (بفتح الحاء وكسرها). أي ما رد جوابا''.[6]

وورد في تاج العروس: ''الحوير كأمير والحوار بالفتح، ويكسر... كلمته فما رجع إلي حِوارا، وحَوارا، ومحاورة وحويرا، ومحورة. وإنه لضعيف الحوار، أي المحورة.[7]

وفي لسان العرب: أن الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإِلى الشيء، يقال حارَ إِلى الشيء وعنه حَوْراً ومَحاراً ومَحارَةً رجع عنه وإِليه. وكل شيء تغير من حال إِلى حال، فقد حارَ يْحُور حَوْراً، قال لبيد:

وما المَرْءُ إِلاَّ كالشِّهابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَماداً بعد إِذْ هو ساطِعُ.[8]

وأشار ابن فارس بأنه: ''وكلمته فما رجع إلي حَوارا ومحوارة.[9]

ويتضح من خلال ما تقدم أن كلمة الحوار تدور حول المعاني الآتية:

١– الرجوع إلى الشيء وعن الشيء، والمتحاورون قد يرجع أحدهم إلى رأي الآخر أو قوله أو فكره رغبة في الوصول إلى الصواب والحقيقة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ الانشقاق:١٤ أي لن يرجع مبعوثاً يوم القيامة.

٢– التحول من حال إلى حال، فالمحاور يتنقل في حواره من حالة إلى أخرى، فمرة يكون مستفسراً، وأخرى يكون مبرهناً، وثالثة يكون مفنداً، وهكذا.

٣– الإجابة والرد، وهو قريب من المعنى الاصطلاحي للحوار؛ لأن كلاً من طرفي التحاور يهتم بالإجابة عن أسئلة صاحبه، ويقدم مجموعة من الردود على أدلته وبراهينه

٤– الاستنطاق ومراجعة الحديث، فكل واحد من المتحاورين يستنطق صاحبه ويراجع الحديث معه لغرض الوصول إلى هدفه وقصده.

٥– النقاء والتخلص من العيوب، والواقع أن طبيعة الحوار والمناقشة تؤدي بالنتيجة إلى التخلص من العيوب الفكرية، من خلال طرح الأفكار المتعددة واختيار الراجح منها.[10]

وفي القرآن الكريم لم يرد لفظ الحوار، وإنما ورد الفعل ''حاور'' والمصدر ''التحاور'' ثلاث مرات، وذلك في الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثمرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾. الكهف:٣٤

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾. الكهف:٣٦

قوله تعالى: ﴿قدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. المجادلة:١

أما كلمة ''الحوار'' فهي أوسع مدلولاً من كلمة الجدل، باعتبار تضمُّن الجدل معنى الصراع، بينما نجد الحوار يتسع له ولغيره، مما يراد منه إيضاح الفكرة بطريقة السؤال والجواب.[11]

الحوار في الاصطلاح:

وبعد هذا العرض للمدلول اللغوي يمكن أن نحدد المعنى الاصطلاحي للحوار بأنه: ''نوع من الحديث بين شخصين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما، فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب.[12]

وقيل: هو مناقشة بين شخصين أو مجموعتين -أو أشخاص أو مجموعات- بقصد تصحيح الكلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، وردّ الفاسد من القول والرأي.[13]

ونرى بأنّ الحوار أسلوب يجري بين جهتين، يسوق كلٌ منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به، ويراجع الآخر في منطقه وفكره قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره.

ومما لا شك فيه فإن كل واحد من المتحاورين في الحوار لا يقتصر على عرض الأفكار القديمة التي يؤمن بها وإنما يقوم بتوليد الأفكار في ذهنه، ويعتمد إلى توضيح المعاني المتولدة من خلال عرض الفكرة وتأطيرها وتقديمها بأسلوب علمي مقنع للآخر، بحيث يظل العقل واعياً طوال فترة المحاورة ليستطيع إصدار الحكم عليها، سلباً أو إيجاباً.

وبعد هذا العرض الذي قدمناه لمدلولات المصطلحات المتداخلة ''الجدل - والمناظرة- والحوار'' يتضح لنا أن الحوار وإن كان مناوبة الحديث بين طرفين إلا أنه لا يشتمل على الخصومة والمنازعة والمراء كما هو الجدل، وإنما هو أداة أسلوبية

تستخدم لمعالجة موضوع من الموضوعات المتخصصة في حقل من حقول العلم والمعرفة أو جانب من جوانب الفكر والعقيدة، للوصول إلى حقيقة معينة بهذا الشكل من أشكال الأسلوب والمحادثة، وهو عملية تتضمن ''عرضاً'' من جهة، يتمثله ''الآخر'' ويجيب عليه فيحدث ''تجاوب'' يولّد عند كل منهما ''مراجعة'' لما عرضه ''الآخر''، وهذه العملية هي التي يطلق عليها الحوار أو المحاورة.

أسلوب الحوار في القرآن الكريم:

أسلوب الحوار والجدال وعرض الآراء والمناقشة في القرآن الكريم يتسم باتساع دائرته وتعدد قضاياه، وشموله لما لا يحصى من الموضوعات. فهناك محاورات بين الخالق عظمت قدرته وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ومن الملائكة المقربين، بل ومن الشيطان الرجيم. وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم، أو بين المؤمن والكافر، وأشار القرآن الكريم إلى الحوار الذي دار بين الرجلين: رجل مؤمن، ورجل كافر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا...﴾[الكهف:٣٧] والحوار الدائر في هذا السياق بقصد تصحيح مفهوم وتصورات ومعتقدات خاطئة منشؤها إنكار البعث، والإيمانُ ببقاء القيم المادية وثباتها.

أو الحوار بين الأخيار فيما بينهم، أو بين الأشرار فيما بينهم. وهناك حوار مع أهل الكتاب، أو مع المنافقين، أو مع المقلدين لسابقيهم في الباطل والضلال، أو مع السائلين للرسول عليه الصلاة والسلام. وقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[المجادلة:١] يوم أن تحاور عليه الصلاة والسلام مع المرأة الضعيفة المسكينة التي تشكو من زوجها، فسمع الله هذا الحوار. وهذا الحوار داخل في دائرة الفئة المؤمنة، وموضوع الحوار هنا مرتبط بالتشريعات والأحكام، وهذا يعني أن كل الموضوعات العقدية والتشريعية خاضعة للحوار. ونحن بحاجة إلى الحوار؛ ليفهم بعضنا بعضاً، نحاور بعضنا بعضاً، ونتحاور مع الآخرين، فنتحاور مع أبنائنا: وذكر الله سبحانه وتعالى عن لسان لقمان عليه السلام، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣] ونتحاور مع أهل الكتاب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ﴾[آل عمران:٦٤] وهناك حوار يدور حول إثبات وجود الله جل شأنه

ووحدانيته، وحول الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وثواب وعقاب، وهناك حوار حول القرآن الكريم وإعجازه.. الخ ما ورد في القرآن الكريم من حوارات في موضوعات كثيرة.

ومن أساليب الحوار في القرآن الكريم الأسلوب الوصفي التصويري، يعرض قصصا ومشاهد حوارية واقعية. بقصد تبسيط فكرة وتقريبها للمستمع من خلال الحوار الجاري، وحمله على تبني موقف صحيح. ومثال ذلك حوار موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. الشعراء:٢٨-٢٣

ومن أساليب الحوار في القرآن الكريم الأسلوب الحجاجي البرهاني: يعتمد الحجة والبرهان لدحض ادعاءات المنكرين للتوحيد والبعث بأسئلة تتوخى زعزعة تقاليدهم ومعتقداتهم الباطلة. وتهدف إلى توجيههم للنظر والتفكير في آيات الله من أجل بناء قناعات ومواقف صحيحة. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. الأنبياء:٦٧-٦٦

محاور الحوار في القرآن الكريم

بعد إلقاء نظرة حول ما يتعلّق بمناهج حوار القرآن، يحسن الانتقال إلى بيان محاور الحوار في القرآن الكريم، فما هي المحاور التي اشتمل عليها حوار القرآن؟ ولغزارة هذه المادة أكتفي بذكر أهم هذه المحاور وأكثرها ورودًا في القرآن الكريم، ومن أبرز هذه المحاور:

حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة:

إنّ أول من بدأ الحوار في إطار القرآن الكريم هم الملائكة عليهم السلام، وبدأ هذا الحوار في اللحظة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل في الأرض خليفة، فأراد أن يخلق الإنسان لكي تناط به هذه المهمة الصعبة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا

أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. البقرة:٣٠-٣٣

سؤال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ هو تعجبهم من أن يكون خليفة الله في أرضه عاص ومفسد ومسفك للدماء، واستبعادهم من أنّ حكمة الله تقتضي ذلك[14] ولا تعد همزة الاستفهام للإنكار بل يراد بها استكشاف عن الحكمة الخفية وعما يزيل الشبهة.[15]

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ هو جواب لسؤالهم، أي أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أنّ صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأنّ فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال، وأنّ في ذلك مصالح عظيمة ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب وكان قول الله تعالى هذا إنهاءً للمحاورة وإجمالاً للحجّة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم.

حوار الله سبحانه وتعالى مع إبليس:

ويعتبر هذا النموذج من أخطر النماذج الحوارية في القرآن الكريم، حيث أن هذا النموذج والذي يمثل فيه سبحانه وتعالى الحق المطلق والخير المطلق فيحاور رمز الشر المطلق والباطل المطلق؛ ألا وهو إبليس عليه لعنة الله وكأن الله سبحانه أراد أن يضع لنا فلسفة مهمة، تقضي إلى إمكانية الحوار، ولو كان الحوار مع أشد الأعداء وأفظعهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ اَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ اَمَرْتُكَ قَالَ اَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ اَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ فَاَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا اَغْوَيْتَنِي لاَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ اَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ اَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ اَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ اَجْمَعِينَ﴾. الأعراف:١١-١٨

حوار الله مع الدهريين:

هذا الحوار جرى بين الله سبحانه وتعالى وبين الملاحدة الذين يعتقدون بأن الكون يسير بلا إله، يقول القرآن مظهرًا عقيدة هؤلاء: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. الجاثية:٢٤-٢٥

استعمل القرآن الكريم في ردّهم حجّة العناية والاختراع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. البقرة:٢٢-٢١

ولقد وجّه الله سبحانه وتعالى أنظارهم إلى أجزاء هذا الكون لكي يفهموا عظمة خالق الكون من خلاله. وأمّا الآيات الدالة على الاختراع والعناية فهي كثيرة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. النور:٤٥

حوار اللّه سبحانه وتعالى مع الأنبياء

إن من أبرز محاور الحوار التي تحدّث عنها القرآن الكريم وفصل في ذكرها، إيجازا وإطنابا إجمالا وتفصيلا في العديد من سوره، هو ما وقع بين الأنبياء وأقوامهم من حوار ومناقشات في مواضيع تتعلق بالعقيدة تصحيحا وترسيخا، ونشرا لها بعد ذلك، لأنّه لا يمكن إرجاع الناس إلى جادة الصواب وعبادة الله ونبذ الشرك عنه إلا بالتنبيه والإقناع الذين يقتضيان الحوار.[16]

ونقصد هنا، حوار الأنبياء والرسل الذين كان الله يرسلهم لأقوامهم، سواء كان معهم كتاب سماوي، أو بعض الصحف والألواح، وأذكر بهذا الصدد نموذج حوار.

حوار نوح عليه السلام مع ابنه

في هذا النموذج سنعرض مرحلتين في الطريقة الحوارية، في المرحلة الأولى (بيّن المرحلة الثانية)، كان الحوار بين نوح عليه السلام مع ابنه، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾. هود:٤٢-٤٥

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. هود:٤٦-٤٧

الحوار بين نوح عليه السلام وقومه

أخبرنا الله ﷻ أنه بعث نوحًا رسولا إلى قومه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. الأعراف:٥٩

ونرى بأن حواره صيغ بصياغة واضحة بألفاظ دقيقة ومحددة الدلالات، لأن الكلمات الفضفاضة والتعابير المطاطة تلقى بالناس في متاهات لا صلة لها بالواقع.

فلما دعا سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله كان ردّهم ﴿فَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. هود:٢٧

بعد أن سمعهم سيدنا نوح وتأمل في أدلتهم وما اشتملت عليه من شبهات، رد عليهم بأسلوب رقيق وجذاب بأدلة تُفَنِّد مزاعمهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾. هود:٢٨-٣٠

نرى بأنّ سيدنا نوح ردّ على كل شبهة على حده، وحاول أن يرجعهم إلى الموضوع الرئيسي وهو عبادة الله.

حوار سيدنا إبراهيم مع قومه

أظهر سيدنا إبراهيم عليه السلام أسمى معاني الأدب في حواره مع الآخرين، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

أولا: في كلامه الموجّه إلى رب العالمين والذي يظهر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء:٧٩-٨٠ أسند المرض إلى نفسه تأدبا في كلامه الموجّه إلى الله. وأسند الشفاء إلى الله، وإنما المرض والشفاء كلاهما من الله.

ثانيا: في حواره مع آزر حينما قال له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ

لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾مريم:٤٦ تهديد من الأب بالرجم والهجر الطويل فبم رد خليل الرحمن: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾مريم:٤٧ إنه أدب الحوار، ورد نية الإساءة بالإحسان.

ثالثا: في حواره مع الملائكة مع جهله بحقيقتهم في بداية الأمر فقد ظنهم ضيوفا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾هود:٦٩ يبيّن أدب المعاملة وكرم الضيافة حتى مع الغرباء.

رابعا: في حواره مع أبنائه عندما وصّاهم بالتمسك بالدين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾البقرة:١٣٢ ويظهر ما في لهجته مع أبنائه من تحبب وتقرب يدلان على أدب رفيع في الحوار مع الآخرين.

خامسا: في حواره مع الكفار والنمرود الذي ادّعى الألوهية وهو واحد منهم؛ ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.البقرة:٢٥٨

وبعد فليس غريبا أن يقول الله سبحانه وتعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.النحل:١٢٠

حوار اللّه سبحانه وتعالى مع العزيز

نرى هنا كيفية سؤال هذا النبي عن بعض الأمور التي قد تكون غائبة أو غير حاضرة في تفكيره. سجل القرآن هذا الحوار فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.البقرة:٢٥٩

ضوابط الحوار:

اهتم القرآن الكريم بالحوار اهتماماً كبيراً، وذلك لأن الطبيعة الإنسانية ميالة بطبعها وفطرتها إلى الحوار، أو الجدال كما يطلق عليه القرآن الكريم في وصفه للإنسان:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾. الكهف:٥٤

ولأجل تحقيق الحوار مقاصده، ومنعا له من أنْ يتحوّل إلى خصومة، نؤكّد على أنّ للحوار أصولا متبعة، وللحديث قواعد ينبغي مراعاتها، وعلى من يريد المشاركة في أي حوار أن يكون على دراية تامّة بأصول الحوار المتبعة، وآدابه، لأنّ الحوار غذاء عقول يقبل الناس عليه إقبالهم على غذاء البطون، لذا يغرم بعض المحاورين بشدّ انتباه من حوله وذلك بإثارة فضولهم، كأن يستهلّ حديثه بقصة غريبة أو مثل قديم، أو سرد مقولة لأحد العظماء، فذلك مما يعجب الناس ويجعلهم ينصتون أكثر، لتوقعهم المزيد عنده. ويحسن بعضهم حينما يبدأ حواره باستفهامات متتالية، يستطيع أن يجعل منها عناصر لحديثه، وطريقة لاستدراج صاحبه للتفكير معه. ولذلك فإن المحاور الذكي هو الذي يختبر اهتمام صاحبه بحديثه قبل التوغل في حوار معه ويحاول استثارة اهتمامه بموضوع الحوار، فإن وجد منه أذنًا صاغية واصل الحوار، وإلا كفّ عنه، إلا أن يكون واجبًا شرعيًا لابد من إبلاغه به. والمحاور البارع هو الذي يجعل كلماته صُوَرًا تتدفق أمام ناظري صاحبه ومن حوله، مبتعدًا عن الرمزية والغموض، باحثًا عن الكلمات والعبارات التي تسمع وترى في آن واحد.[17]

والمحاور الناجح هو الذي يمتلك فنيات الحوار ويقصد بفنيات الحوار: مجموعة المهارات المتكاملة التي يتطلبها أداء المحاور للأنشطة التي يتضمنها الحوار بكفاءة، وتنقسم هذه الأنشطة إلى أنشطة في مرحلة الإعداد للحوار وأنشطة في مرحلة تنفيذ الحوار.[18]

الخاتمة:

الحوار ليس مطلوبا لذاته، كما هو الشأن في الخطاب المعاصر، وإنما المراد هو الوصول إلى نقاط ارتكاز مشتركة بين المتحاورين تؤسس لتفاهم أكبر على المستوى الحياتي والنشاط الإنساني، ولكن للأسف، فما يحصل اليوم هو أن الأقوى يفرض الحوار على الأضعف ويقرر النتائج كما يريدها وكما يتصورها وما على الآخر إلا أن يصغي ويبارك وإلا فإنه سيوصم بالتخلف أو الإرهاب أو رفض الآخر!

اتّخذ القرآن الكريم أسلوبا بعيدا عن التسلط، والعنف، أو التكفير في الحوار. ونحن نحتاج أن نعود إلى القرآن الكريم؛ لنتعلم منه كيف يكون الحوار؛ ولابتعادنا عنه

وهجره أصبح كل منا يتهم الآخر ومع كل حوار نقول: إن الاختلاف لا يفسد للود قضية ـ وهو فقط لايفسد قضية الود بل يتعداها أحيانا ليصل إلي التهديد وما بعده.

والرجوع إلى القرآن الكريم بمعني قراءته والتمعن في آياته. بحيث أنه خير قدوة لنتعلم منها الأدب الرفيع في الحوار. ويخاطب ربّ العزة الإنسان ويحثه علي التأمل واستخدام عقله؛ ليقتنع اقتناعا يقينيا لا محل فيه للظن ويتخلي عن إنكاره للحق، حيث يقول الله تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج:٥] وفي الآية جمال في الحوار حينما يخاطب سبحانه وتعالى المنكرين، وهذا مع أنه خالق للكون وما فيه. فما بالك بالإنسان الذي يحاور أخاه الإنسان الند له.

وبعد فإن الدعوة أو الحوار تكون بالحكمة والموعظة الحسنة بدون اتهامات أو تهديد أو تكفير ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥] ثم يكون الاحتكام لله تعالي في النهاية.

إنّ القرآن يستعرض الرأي الآخر رغم أنه باطل رغم أنه ضلال رغم أنه خطأ، رغم أنه لا يملك أي حظ من الصواب. فتجد في القرآن كلام الملحدين الذين ينكرون وجود الله، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾،[الجاثية:٢٤] وكلام اليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائده:٦٤] وكلام النصارى ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾،[المائدة:٧٣] وكلام المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.[يس:٤٧]

يستحضر القرآن الكريم الرأي المقابل رغم فساده، دون أن يبتر كلامه ويشوهه ويقطعه. فالقرآن الكريم يستحضر الآخر استحضاراً كاملاً يعطيه الفرصة الكاملة لكي يتم جملة مفيدة لكي يتم نصاً كاملاً ليتم فكرةً واضحةً بكل قوتها.

فعندما نقرأ في القرآن وينتقل الكلام من كلام الله بأسلوبه العالي الرفيع لا يحكي عن الآخر بلغة ركيكة وأداء رديء وبيان ضعيف، بل يجعل أداء الجمال البياني على

الجميع فتجد تعبير القرآن الكريم عن الدهريين ويقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾. الجاثية:٢٤

الأمر مسلم به أنّ القوة الذاتية في الحق حيث دار والضعف الذاتي في الباطل حيث صار ولهذا لا خوف من الحوار ولا إظهار كلام الخصم، بل في ذاته أكثر دفعا لإظهار الحق. فالحق قوي بما يأتي به من أدلة وما يعرضه من أفكار وقوي بتهافت الرأي الآخر.

النتائج:

بعد الوقوف على بعض صور الحوارات القرآنية يتضح لنا ما يأتي:

– الحوار القرآني مع أصحاب الملل المختلفة يدفع كل مسلم صادق في إيمانه إلى أن يسلك سبيل القرآن في الدعوة بكل الوسائل الخطابية والجدلية والبرهانية.

– الإسلام هو دين الحوار ولكنه الحوار المتكافئ القائم على إرادة الفهم، وإرادة العلم، وإرادة التعايش بعيداً عن مختلف الإكراهات السياسية والاجتماعية والنفسية والفكرية.

– إن حوارات القرآن الكريم كلها دروس وعبر، ومنها مناشدة المخالفين لبيان سر مخالفتهم حتى توضح لهم الطريق الذي حادوا عنه، وأول حواره مع إبليس عن سر رفضه الامتثال لأمر ربه جل وعلا للسجود لآدم عليه السلام وفيه دعوة للحوار مع المخالفين حتى وإن كانوا غير مسلمين.

* * *

المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم.

– ابن حميد، صالح بن عبد الله، معالم في منهج الدعوة، (١٩٩٩م)، دار الأندلس الخضراء، جدّة.

– ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (١٩٦٩م)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

– ابن منظور، لسان العرب (١٩٩٨م)، مؤسسة الرسالة - بيروت.

– الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد، المفردات في غريب القرآن (١٩٩٧م)، مكتبة نزار مصطفى الباز.

– الألوسي، روح المعاني (١٤١٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

– اللبودي، منى إبراهيم، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعلمه (٢٠٠٣م)، مكتبة وهبة، القاهرة.

– الجرجاني، التعريفات (٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، لبنان.

– الجوهري، الصحاح (١٩٧٩م)، دار العلم للملايين، بيروت.

– الحبيب، طارق بن علي، كيف تحاور؟ دليل علمي للحوار (٢٠٠٢م)، دار البيت العتيق.

– حسن، عثمان علي، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، (١٤٢٠هـ)، دار إشبيليا، الرياض.

– ديماس، محمد راشد، فنون الحوار والإقناع، (١٩٩٩م)، دار ابن حزم، الرياض.

– الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (١٩٨٢م)، دار الرشيد، بغداد

– الزمخشري، الكشاف، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (١٤١٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن: قواعده -أساليبه- معطياته (٢٠٠١م)، دار الملاك، بيروت.

– الهيتي، عبدالستار ابراهيم (٢٠٠٤م)، كتاب الأمة ''الحوار الذات والآخر'' دار الكتب القطرية، قطر

– يعقوبي، محمود، المنطق الفطري في القرآن الكريم (٢٠٠٠)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

* * *

الهوامش:

[*] الدكتور اسحاق رحماني: أستاذ مساعد بجامعة شيراز.

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (١٩٦٩م)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر..ص٤٣٣.

[2] ابن منظور، لسان العرب، (١٩٩٨م)، مؤسسة الرسالة – بيروت، مادة: جدل.

[3] الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (١٩٩٧م)، مكتبة نزار مصطفى الباز. ص١١٧

[4] الجرجاني، التعريفات، (٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، لبنان، ج/١، ص٧٦

[5] حسن، عثمان علي،، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (١٤٢٠هـ)، دار إشبيليا، الرياض. ص٣٠

[6] الجوهري الصحاح، (١٩٧٩م)، دار العلم للملايين، بيروت.

[7] الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (١٩٨٢م)، دار الرشيد، بغداد

[8] لسان العرب ابن منظور

[9] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، (١٩٦٩م)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

[10] الهيتي، عبدالستار ابراهيم (٢٠٠٤م)، كتاب الأمة "الحوار الذات والآخر" دار الكتب القطرية، قطر، ص٩٩.

[11] فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن: قواعده – أساليبه– معطياته (٢٠٠١م)، دار الملاك، بيروت.، ص٥٢

[12] ديماس، محمد راشد، فنون الحوار والإقناع، (١٩٩٩م)، دار ابن حزم، الرياض، ص١١

[13] ابن حميد، صالح بن عبد الله، معالم في منهج الدعوة، (١٩٩٩م)، دار الأندلس الخضراء، جدّة، ص٢١٢

[14] – الزمخشري، الكشاف، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (١٤١٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.، ج: ١، ص ١٢٩.

[15] الألوسي، روح المعاني، (١٤١٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج: ١، ص٣٥٢.

[16] يعقوبي، محمود، المنطق الفطري في القرآن الكريم (٢٠٠٠)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ٥

[17] الحبيب، طارق بن علي، كيف تحاور؟دليل علمي للحوار، (٢٠٠٢م)، دار البيت العتيق، ص ٤٠

[18] اللبودي، منى إبراهيم، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعلمه، (٢٠٠٣م)، مكتبة وهبة، القاهرة.، ص٤٩

مبادئ الإنسانية وتحديات العصر في نظرية سعيد النورسي

أ.د. تسفيتان ثيوفانوف *

لا ريب أن عنوان هذا اللقاء العلمي العالمي (المؤتمر) قد تم اختياره استجابة لمقتضيات وضع معقد نعيشه، ومرحلة متميزة نمرُّ بها في عصر العولمة المفسدة والأخلاق السيئة. لقد سادت في أواخر القرن الماضي نظريات حالمة مستبشرة بِنِعَم موعود بها سكان المعمورة في القرن الواحد والعشرين من نحو رَفاهية وأمن وسعادة، ولقد انبعث هذا التفاؤل نتيجة لشعور البعض بأن انتصار المعسكر الغربي الليبرالي أصبح بديهيا، فبعد سقوط الكتلة الاشتراكية، وفشل سياستها، وتقزم دورها واضمحلال دعاتها، بعد كل هذا لم يعد هناك -في ظنهم- نظام قادر على أن يكون بديلا ضامنا وضابطا لمسيرة الإنسان مثل الليبرالية الغربية.

وفي هذا السياق -سياق الأحادية الليبرالية، والنزعة الشوفينية- يتساءل أحد خريجي المدرسة الغربية، وهو (فرانسيس فوكوياما) يتساءل متحديا: هل هناك في الواقع الإنساني بعض التناقضات الأساسية التي لم تلق حلا، أوجوابا في الإطار الليبرالي الحديث؟ والجواب كان طبعا بالنفي، ذلك لأن في دولة نهاية التاريخ (وهو عنوان الكتاب الذي يضم هذه النظرية) دولة (فوكوياما) كل الرغبات سوف تلبى، كل ما يتمنى المرء يدركه، لن يكون فيها صراع حول المشاكل الكبرى، ولا حاجة إلى المؤسسات العسكرية ولا إلى رجال الدولة، ولن يبقى إلا شيء واحد يشد الناس ويجمعهم هو النشاط الاقتصادي وتحقيق الوفرة الاستهلاكية. وقد أظهرت مطالع القرن الواحد والعشرين، كم كانت هذه النظريات والتنبؤات بعيدة عن واقع الإنسان

وفطرته وتطلعاته بكل ما تحمله كلمة ''إنسان'' من دلالات وأبعاد اجتماعية وروحية وعاطفية، وبكل ما تعنيه كلمة ''تطلعات'' من معاني الخير والسعادة والسلام والتعاون والوئام. ذلك أن هذه الأنظمة والمنظمات الاقتصادية والتجارية التي يبشر بها دعاة العولمة: في جوهرها نظم رأسمالية تطغى عليها لغة الرِّبْح والخسارة، وتوجهها المؤسسات المالية الضخمة والاعتبارات المادية بمنطق لا مكان فيها للعاطفة أو الفطرة الإنسانية ولا للدين والأخلاق.

لا جَرَمَ أن الذي يتصفح مؤلفات الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ويتعمق في تأملاته يلاحظ اهتمامه البالغ بدور الإنسان ومنزلته العالية ومبادئ الإنسانية في ظل تحديات العصر. وقد وضَّح النورسي أسباب عنايته بهذه المسألة قائلا: ''لقد تيقّظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونُذر الحروب والأحداث المُذهِلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يُخلق لقضاء هذه الحياة المتقلّبة القصيرة، بل خُلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد. وإنّ كل إنسان بدأ يشعر -حسب استعداده- أن هذه الدنيا الفانية الضيقة لا تسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة...''[1]

إن الأستاذ النورسي القرآني العقيدة الذي قد سَمَّى نفسه بخادم القرآن استوعب معنى الإنسانية ومبادئَها ضمن وعي قرآني كوني مفتوح على العالمية. فكان الأستاذ يشرح ويكرر أن ''ما يُطلق عليه بالإنسانية التي هي قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي مُعْجِزَة قدرة باهرة جامعة كالنَّواة لأجهزة شجرة دائمة باقية''. فخطاب الأستاذ التجديدي كان يتوجه إلى الإنسان باعتباره صنعة خارقة للخالق الصانع وأرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفَها وكائنا كونيا أو عنصرا جوهريا من عناصر العوالم المخلوقة ونسخة جامعة للكائنات وخلاصة الكون وفهرسته الجامع. ويرى الأستاذ في مخلوقية الإنسان معجزة إلهية فقال: ''كذلك الإنسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات، إذ المقصود من إيجادها إنما هو الإنسان، وغاية إيجاد الموجودات هي الإنسان، وبَذْرة تلك الثمرة قلب الإنسان، وهو أنور مرآة للصانع الجليل وأجمعُها.''[2] ويكرر الأستاذ هذه الفكرة في رسائل مختلفة مؤكدا أهميتها في رؤيته الإنسانية: ''إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخِلْقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الرَّبَّانية، وأكثرها عَجْزا وضعفا ولطفا.''[3] و ''خلقه الباري مظهرا لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله

مَدَارا لجميع نقوشه البديعة جلّت عظمته، وصيّره مثالا مصغرا ونموذجا للكائنات بأَسْرها."[4]

لقد ارتكزت روحية رسائل النور على الاعتقاد بأن الإنسان أهمّ مخلوقات الله، وأن جميع الأنشطة البشرية لا بدّ وأن تؤدي إلى سعادته ورَفاهيته، وأن كل عمل يقصد به تحقيق هذه الغاية، هو عمل في سبيل الله، أي عمل إنساني في المقام الأول. إن الإنسان كائن طموح محدود القدرات عظيم التطلعات، ولعلمه بمحدوديته التي تعارض تطلعاتِه، نجده دائماً يَهْرُبُ من التفكير في تصرفات الدهر والموت ويتهرب من هذا الواقع المحتوم، ليعيش آماله ولوفي عالم الخيال ويسعى طول حياته في سبيل تحقيق الخلود. هذا والذي يجعل من هذا الكائن الطَّمُوح، كائنا دائم الوجود ودائم البقاء، ويَضْمَنُ له طاقات أوسع لتحقيق طموحاته الكبيرة في هذا العالم الفاني، ويصل وجوده بذلك العالم الباقي هو الله تبارك وتعالى. وقد يُضْطَرُّ الإنسان في أكثر الحالات للبحث عن قوة عليا يتجاوز بواسطتها إطار محدوديته ويلجأ إليها ليُعَوِّضَ عن إحساسه بالعجز عن تحقيق الأمان والاستقرار الذي يلازم تفكيره، وقد يكون بحثه عن هذه السعادة بعقله وقد يكون في أكثر الأحيان بعاطفته، إلا أن الطريق الصحيح لذلك ولتحصيل السعادة والكمال واجتياز المحدودية اليائسة إلى عالم البقاء عن طريق الالتزام بالدين الذي هو هداية الله للإنسان وعنايته به. ويشير الأستاذ إلى هذه الفكرة بقوله: "إن الإنسان مع صِغَر جِرْمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غالية، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولات لا حَصْر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة، مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرست للأنواع والعوالم."[5]

وما زال الأستاذ يذكرنا بأن الله تعالى كَرَّمَ الإنسان بالخلافة، وعلمه أسماء الأشياء كلها، يعني الأسماء الحسنى، وهو العلم الذي تفوق به على الملائكة، فلقد خص الإنسان في خلقه بالعقل والإرادة في وسطية جامعة بين مادة خالية من الوعي والإرادة، وبين روحية ملائكية بريئة مُمَحَّصة في إرادتها للخير، وهذا المعنى الجامع في الإنسان بين المادة والروح كان من ثمراته الوعي، والروحية، والإرادة المهيأة للاختيار بين السمو إلى أفق الملائكة، وبين الهبوط إلى عالم الماديات، ولقد أهلّه لهذه المهمة ما أودع الله فيه من قدرات ومهارات، أهمها العقل الذي هو مناط التكليف، لما خص به من قدرة على الاستيعاب لما هو غائب عن الإنسان من الحقائق. وهو ما تتحقق به السيطرة على البيئة الكونية، إذ يستطيع الإنسان بفضل هذه

القدرات أن يُكَيِّف حياته في منع ما يضره واستثمار ما ينفعه، وهي عملية قابلة للاطراد لدى الإنسان لإنجاز الخلافة في الأرض، وهي الغرض من الوجود: "إن الإنسان من جهة الفعل والعمل وعلى أساس السعي المادي حيوان ضعيف ومخلوق عاجز، دائرة تصرفاته وتملكه في هذه الجهة محدودة وضيقة [...]، إلا أن الإنسان من جهة الانفعال والقبول والدعاء والسؤال ضيف عزيز كريم في دار ضِيافة الدنيا، قد استضافه المولى الكريم ضيافة كريمة حتى فتح له خزائن رحمته الواسعة وسخَّر له خدمه ومصنوعاته البديعة غير المحدودة."[6]

ولم يعد حياة الإنسان أحقابا تائهة في بحر الزمان تثير مشاعر الفقدان والحسرة على الأيام الخالية، فالقرآن الكريم في معظم سوره وسياقاته يربط الواقع بالغيبيات، ويلبي حاجة الإنسان إلى البحث عن الحقيقة، إلى الصراع مع عوامل الهدم، على العمل الدائم للتغيير نحو الأفضل، إلى معطيات الأمن والاستقرار، إلى فردوس يحقق الأمن والاستقرار للذات التي فقدت الأمن والاستقرار.

إن استخلاف الإنسان في الأرض ليس لمجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. إن الاستخلاف في الأرض في نظر الأستاذ النورسي يعني القدرة على العِمارة والإصلاح، لا على الهَدَم والإفساد، والقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، والقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارك الحيوان.

إن الغاية من استخلاف الله لهذا الكائن الذي هو الإنسان على هذا الكوكب تُجَلِّيه غاية التجلية الآية الكريمة التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. البَقَرَة:٣٠

لقد فهمت الملائكة تلك الغاية من خلال علمها بمراد الله من إيجاد الخلق كما قررت ذلك الآية وذلك هو تسبيح الله وتقديسه بدلالة قولهم النافي للحاجة إلى خليفة في الأرض ما دام التسبيح والتقديس قائماً، وأحقية المسبحين والمقدسين بالخلافة دون غيرهم، وهذه الغاية -أعني التسبيح والتقديس- هي رسالة الإنسان في هذا الوجود بأكملها وهي مسؤوليته على هذه الأرض، وهي منهج سعادته، ومحتوى عهده

وميثاقه مع الله، فالتسبيح هو التنزيه الذي هو لب التوحيد المقتضى لنفي الشرك، والمقتضى للاستهانة بكل طاغوت وصنم ومقدّس غير الله مما لم يأمر بتقديسه.

فبالتسبيح تُسقط الإنسانية شوائب النقص ومظاهر الفساد من حياتها بعد أن تُنزِّه معبودها عنها وتَنْفِيها عنه، وبالتسبيح تنمو في الإنسانية روح الاتجاه إلى الكمال المطلق، وتشعر بالاتجاه نحوه والسعي إليه، وبالتسبيح لله وحده يعلن الإنسان تحرره من عبوديات الأرض وطواغيت البشر.

وبالتقديس تعظم الإنسانية الكمال الإلهي، وتراه غاية قُصْوَى تسعى نحوه على هذه الأرض لتَصُوغ من إنسانيتها صيغة تتشرف وتسمو بعبادة هذا المعبود المقدس، وتتفيأ ظلا يحاكي ذلك الملكوت في البعد المقدس، وظلا يحاكي ذلك الملكوت في البعد عن الشر والفساد، لتقديم في أعماقها موازنة الحساب بين غايتها العليا التي تشدّها إليها ودوافع التقديس والتسبيح وتوافه الحياة ونوازع الفساد التي تُلِحّ عليها بالخروج على هدف الاستخلاف ومسؤولية الخلافة الموكَّلة للإنسان.

إن القرآن ربط ربطا موضوعيا بين خلافة الإنسان في الأرض وقيام الحكم والسياسة على أساس مبادئ الحق والعدل، فجعل الحكم بالحق هدفا أسمى من أهداف الخلافة الإنسانية في الأرض وجانبا مهما من جوانب تحققها، لأن الحكم في نظر القرآن هو إحقاق لمبادئ الحق والعدل، وتطبيق لإرادة الخير في كل المبادئ والأهداف.

إن أهم الشروط التي يتأهل بها الإنسان لأن يكون خليفة الله في أرضه: الإيمان، ذلك الإيمان الذي يستغرق النشاط الإنساني كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه. إن الإيمان الذي يؤهل الإنسان لتلك الخلافة هو ذلك الإيمان المتمثل في منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به: توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى التي هي لب العمل الصالح. والعمل الصالح هو الذي يكون مُنْطَلقه قاعدة الإيمان، فبدون الإيمان لا يعد العمل شيئا مفيدا حتى ولو كان صالحا، كما أن الإيمان لا يتبلور في الواقع المنظور وفي ساحة الوجود إلا إذا أبرزه العمل الصالح، فهما جناحان متوازيان لا يُحَلِّقُ الإنسان إلى مستوى المسؤولية -مسؤولية الاستخلاف في الأرض- بدونهما معا، وهما تياران متعادلان

كالمُوجَب والسالب يُحَوِّلان إرادة الإنسان والتي هي من أخص خصائص الإنسانية إلى أفعال نبيلة يسعد بها عالم المخلوقات، وفي مقدَّمة من يسعد بها هذا الإنسان الذي هو ميدان المعركة بين الخير والشر في هذا الوجود، وهو وحده الخاسر والرابح.

ولا تتحقق الخلافة الإنسانية على ما اسْتُخلِف عليه الإنسان على أكمل وجوهها، وفي أجمل صورها، وأوسع معطياتها، وأثبت ما يكون من دعائمها إلا بأمرين أساسيين، فإذا فُقدا معا انعدمت تلك الخلافة ولم يُعْثَرُ لها على أثر، وبوجود أحدهما بدون الآخر توجد شَوْهاء منقوصة ليس لها في الحياة دور مؤثر وإن ارتفعت أعلامها إلى حين أو برزت معالمها في مكان.

أول الأمرين الأساسيين: الإيمان باعتباره صلة بالله، الصلة التي تُؤَمِّنُ للحياة مُقوَّماتها، وتُضْفِي على كل من المستخلَف والمستخلَف عليه الجمال والكمال، وهذه الصلة لا يمكن أن تتجسد أو تتبلور إلا حيث النظافة والطُّهْر والنَّماء، حيث التزكية، تلك التزكية التي تعنى تطهير الضمير والقلب والشعور والخواطر والنفس في كل أغوارها، وتلك هي تزكية الباطن، كما تعنى تطهير السلوك والعلاقات المؤدية إلى تطهير الأعراض والقيم والجوارح وسائر الارتباطات، وتلك تزكية الظاهر، إن التزكية أول مبدأ من مبادئ الرسالة التي جاءت لترتفع بالإنسانية من دركاتها وسفوحها التي طالما تردّت فيها وتَمَرَّغَت في أوحالها تلك الرسالة التي جاءت لتضع أقدام الإنسانية على الجادّة حِيَالَ تلك الخلافة لتؤهله لها. إن أول ما يطالعنا في بيان مبادئ هذه الرسالة: التزكية التي تعني أكثر من تحصيل النمو والتربية الصحيحة على أقوم منهج والطهارة النقية الشاملة.

إن الإنسان المُزَكّى هو الذي يتم تخليصه وتنقيته من كل المُعَوِّقات التي تحول دون اضطلاعه بمهام الخلافة سواء أكانت تلك المُعَوِّقات أمراضا جسمية أم أمراضا عقلية ونفسية أم روحية وخلقية. وقد ذكر الأستاذ النورسي في الخطبة الشامية أمراض البشرية الاجتماعية وقام بتحليلها، وتلك الأمراض هي: ''حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه؛ موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية؛ حبّ العداوة؛ الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض؛ سَرَيَان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة؛ حَصْر الهَمَّة في المنفعة الشخصية. وكان الأستاذ يتحدث في اغلب دروسه عن الأُخُوَّة والإخلاص. فكان يشخص مرض زماننا هذا بالغرور والأنانية وحب النفس. وكل صلة مُنْبَتَة عن الصلة بالله ففيها شيء من التطهير والشِّفاء

من هذه الأمراض. وما أنزلت الكتب ولا أرسلت الرسل إلا لتزكية الإنسان وتطهيره وتصفيته وتنقيته من كل بادرة شر أو شائبة رذيلة.

أما الأمر الثاني، فإنه العلم، بكل معطياته وأبعاده وآفاقه الواسعة وأرجائه الفسيحة. إن التنويه بشأن العلم وإبراز اعتبار دين الإسلام إياه أقوى ركائز الاستخلاف ودعائمه. وإذا لم يكن بُدَّ من الإشارة إلى حكمة ذلك، فما علينا إلا أن ندرك -ولو بإطلالة- الحجة والبرهان على الملائكة في الحوار معهم على أحقية هذا الإنسان بالخلافة، حيث قال الحق سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. البَقَرَة:٣١-٣٣

إن الملائكة الكرام لما أدركوا ما عسى أن يصدر عن هذا الخليفة من تدمير وهدم وإفساد وإزهاق للأرواح إما بإيهام من الله أو بشواهد من الحال أو إدراك نابع من تجارب سابقة لما أدركوا قصور هذا الخليفة أو تقصيره المتوقع بما ركب فيه من ميل إلى الإفساد لم يُقِم الله سبحانه عليهم الحجة على أحقية الإنسان بالخلافة وتأهله لها بأن ينزهه عن تلك العيوب، أو تكون فطرته كفطرتهم لا تعرف إلا الخير ولا تألف إلا الطهر، وإنما أقام عليهم الحجة على تلك الأحقية بأنه سيكرمه بالعلم الواسع الآفاق المتجدد العطاء، فسلّوا وأذعنوا مستخدمين نفس الأسلوب في التعبير، مكررين كلمة العلم ومشتقاته: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ البَقَرَة:٣٢ والعلم والحكمة قرينان حيث وجد هذا وجد الآخر، وذلك بصرف النظر عن كيفية ذلك التعليم أو سعة ذلك العلم الحاصلين في أروع حفل لتكريم الإنسان الذي أُمِر الملائكة فيه بالسجود له إجلالا وإكبارا بعد نفخة الله فيه من روحه.

ومثلما منَّ الله سبحانه وتعالى على الإنسان باستخلافه إياه في الأرض، فإنه عرض عليه الأمانة، وهي فضيلة جليلة وخطيرة لحاجة البشر إليها. ومن الجدير بالذكر أن الخالق سبحانه لم يبدأ بعرض الأمانة إشفاقا منه على البشر، فعرضها منذ البداية على السموات بما حوت من الكواكب، وعلى الأرض بما حفلت من براكين وبحار وأنهار، والجبال بما حملت وتحملت، فأبت السموات والأرض والجبال خوفا من خطر الأمانة وأهميتها عند الخالق ومخلوقاته، وإشفاقا على كونهن من الرسوب في

الامتحان، وعدم الاستطاعة بالوفاء بتحملها، فعرضها المولى على الإنسان، وكان الإنسان في حِلّ من عدم قبول العرض، وما كان الله ليعاقبه على ذلك فقد أبى حملها من هُنَّ أقدر على ذلك منه، ولكنه حملها لأنه ظلوم جهول.

ولا ننسى أن النورسي عاش في عصر تأجج فيه الصراع الحضاري بين الغرب والشرق بصورة قاسية وقد انعكست في مرآة العالم الإسلامي الآثار السلبية لانتشار المقوَّمات والتقاليد والأفكار والفلسفات المادية الغربية على مستوى العلاقات الاجتماعية والأخلاق البشرية والمدنية والعَلمانية المُعادية لمبادئ القرآن الإنسانية. وكان الأستاذ يدرك أن هذا الصراع الحضاري في جوهره يكشِف التصادم بين موقفين ومذهبين أساسيين، هما الكفر الذي يعبد القوة ويسعى إلى التخضيع، والإيمان الذي يعتمد على السماحة والمحبة واحترام الآخرين باعتبارهم أبناء آدم. ونتيجةً لهذين الاتجاهين ظهر نوعان ونموذجان إنسانيان، هما إنسان قرآني وإنسان فرعوني، وكل واحد منهما يختلف تماما عن الآخر.

فنحن لو أخذنا منهم المدنية -بسوء حظنا وسوء اختيارنا- بما يوافق الهوى والشهوات -كالأطفال- تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية كالمخانيث أو كالمترجلات، إذ كيف إذا لبست المرأة ثياب الرجل ولبس الرجل ثياب المرأة يكون كل منهما موضع سخرية واستهزاء. ألا ما يكون لنا أن نتجمل بمساحيق التجميل...[7]

فالتغريب هيأ الأوضاع التي تشكلت فيها شخصية الفرد المستلب وقرر مزاياه الغرورية والانتهازية والتهافتية بحيث ''صيَّر تلميذه الخاص فرعونا لكن يعبد أخس الأشياء ويرى كل سبب نافع أنه ربه... متمردا لكن يتمسك بنهاية الذِّلّة للذته. ويقبِّل رجل الشيطان لمنفعة خسيسة. وجبارا لكن لعدم نقطة الاستناد عاجز في ذاته بغاية العجز. وإن غاية همة تلميذك: بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية أو تسكين حرصه وغروره، ولا يحب إلا نفسه ويَفْدي لها كل شيء''.

أما الجهد القرآني، لا سيما جهد رسائل النور، فقد تسنى له بفضل الله أن يخرج النموذج الأعلى الذي يُسهم في إنقاذ أمته وإعادة العزة إليها: ''وأما خالص تلميذ القرآن فـ''عبد'' لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة. ولين هين لكن لا يتذلل لغير فاطره إلا بإذنه.. وفقير لكن يستغني بما ادخر

له مالكه الكريم... وضعيف لكن يستند بقوة سيده الذي لا نهاية لقدرته.. ولا يرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة".[8]

الخلاصة

إن عالم النورسي الفكري العميق غاية العمق يتضمن عددا من أفكار تتعلق بالإنسان والإنسانية، منها:

– للإنسان خاصِّيتان، أولاهما الأنانية المحصورة في الحياة الدنيا، وثانيتهما العبودية الممتدة إلى الحياة الأبدية، أو بعبارة أخرى، جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال، وجهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل؛[9]

– وظيفة الإنسان الحقة هي العبودية لله واجتناب الكبائر، والعبادة تَصْرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء.

– سجايا الإنسان وماهيته تظهر بالتوحيد.

– "إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عِلِّيِّين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل السافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل."

* * *

الهوامش:

[*] أ.د. تسفيتان ثيوفانوف: جامعة صوفيا، بلغاريا.

[1] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٢٩٥.

[2] الكلمات، الكلمة الثانية والعشرون، ص ٧٣٤

[3] الكلمات، الكلمة الخامسة عشرة، ص ٢٠٤.

[4] الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، ص ٣٤٩

[5] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تفسير: يا أيها الناس اعبدوا...

[6] الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، ص ٣٦٥

[7] صيقل الإسلام/المحكمة العسكرية العرفية، ص: ٤٦٨

[8] الكلمات، الكلمة الثانية عشرة.

[9] الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، ص: ٣٦٠

ملف العدد

تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي

د. محمد عبد النبي *

لكل رؤية أو اجتهاد في الفكر والسلوك نسق تنتظم فيه جزئيات ومفردات، والوصول إلى تحديد ذلك النسق مهمّة تقتضي إلماماً وإحاطة، بل قدراً غير يسير من التعاطف والتفهم يبعدانه عن مبغض للنهج وقالٍ للخيار، وينئيان به في الوقت نفسه عن مريد لا يهمه التأمل في روعة البناء بقدر ما تستهويه لذّة العيش في الأكناف والجنبات، ولا يمكن لهذه الأنساق أن تنشأ أو تبنى بمعزل عن الظروف والملابسات، وقد يصعب تمييز قدر الإكراه أو الاختيار في هذا النهج أو ذاك، لكن زعم التنصّل أو النجاة من الخضوع له لا يسلم كلاهما من مبالغة في الادعاء، وهذا التأثير هو نفسه الذي يمنع التماثل أو التطابق في الأفكار والدعوات، حتى مع اتحاد المناشئ والمنابت لدى الدعاة، ولذلك توحي أدبيّات هذه الدعوات بغلبة نفس على نفس، أو هيمنة اتجاه على آخر، والبحث يؤكّد هذا الانطباع أو ينفيه، وقليلة هي المناهج التي تقلّ فيها نسبة التأثير، وتندر فيها ردّات الفعل، إيجاباً أو سلباً، تبعاً للظروف يسراً أو عسراً.

وحين نزعم بأن دعوة بديع الزمان النورسي يهيمن عليها الخطاب التربوي والمنزع السلوكي، فليس هذا انتقاصاً من شمول لم يُدّع، بل هو شرف يحرص على التفاخر به تابع ومريد، وتزلّ قدم من يحصر النهج كله فيه خضوعاً لظرف طارئ، أو اغتناماً لهامش يُحرص عليه، والدعوة التي تنضح أفكارها وأقوالها بصور الإكراه والإعنات لا يُفهم أن لا يُلجأ إلى التعويض عن ذلك بمعاني التربية والتزكية يُتضلّع منها، ويُملأ بها فراغ يحرص على توسيعه الغريم والخصيم.

وقد يحلو لمن تستهويه المقارنة أن يصدر حكماً بالتقاء هذا المسلك مع مسالك أخرى تتمحض مساعيها في ترسيخ قيم التصوّف وتثبيت أقدام السالكين، لكن مثل هذا الحكم يفتقر إلى الدقّة ولا يلتفت صاحبه إلى فوارق القياس، إذ هناك فرق بين

خيار يُتوارث تنضح منه صور وأشكال لا يُعرف إلا بها، وبين خيار يخضع للتجربة، وينبني على اجتهاد فيه القديم والجديد، كما أنّ هناك فرقاً آخر بين دعوة تحيّدها الظروف، وقد توظّفها، وبين أخرى تعاندها، فلا يزيدها العناد إلا تميزاً وتألقاً. صحيح أن للبلاء صوراً قد يكون أشدُّها وطأة على النفس بلاءُ النعمة والرخاء، ومجاهدة النفس والهوى، لكن الصحيح أيضاً أن البلاء الذي نختاره، أو تقل فيه أنصبة الإكراه غير البلاء الذي ينزل بساحة الدعوة والدعاة، ولا يبقى فيه أدنى حظ من حظوظ الاختيار.

ولعلّ هذا الأمر الذي يُراد به أن تُشاع به خصال العبيد إكراهاً، هو الذي ألجأ بديع الزمان إلى التركيز على خلال العبودية اختيارا، ''...لأنها شرف عظيم... وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف''[1] وهذا يعني أن ممارسة وظائفها نعمة في حدّ ذاتها، والذين يترقبون الجزاء على التكليف واهمون، بغفلتهم عن كونها ثوابا و'' نتيجة لنعمة سابقة، وليست مقدمة لثواب لاحق''.[2] وهذا يتفق مع اعتبارها المقصد الأسمى والغاية القصوى من خلق الكون[3] ولا يمكن للمكلَف أن يقوم بحقّها إلا إذا وقف على حقيقتها وأداها بإخلاص وتذلّل ''مظهراً عجزه مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، ومسلما للأمر والتدبير كله إليه وحده مع الاعتماد على حكمته دون اتهام لرحمته ولا القنوط منها''.[4]

العجز والعشق... أو طريق العبودية:

وفي لفتة تنمّ عن ذوق ومكابدة يزيد سبيل العجز تأكيداُ للوصول: ''إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله...''[5] ثم يستدرك على هذه التسوية بأن الوسيلة الأولى ''أقرب وأسلم''[6] مبررا ذلك بأنه ''يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية''[7] والآخر تتّحد فيه الوسيلة بالغاية، وتنزع منه اللذة في المكابدة ذلة تُبتغى وانكساراً يُراد، فضلاً عن كونه طريقاً لا تصفو دلاؤه، وقد يسلكها من لا يرجو للشريعة قدرا. وبإشهار العجز المطلق تتفجر عطايا العبودية ''فالإنسان بقوة ضعفه وقدرة عجزه أقوى وأقدر بمراتب، إذ يُسخّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقدر على عشر معشاره باقتداره، فهو كالصبي يصل ببكائه إلى ما لا يصل إليه بألوف أضعاف قوته، فيتفوّق بالتسخير لا بالغلبة... فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرّع والعبودية.''[8]

ولما كانت حياة بديع الزمان تطبيقا حيا لما يعلنه من حكم وحقائق، فإنه يقول – تأكيدا للإكرام الملازم للعجز–: ''عرفت بالعجز والفقر غير المحدودين الكامنين في

حياتي القدرة المطلقة لخالقي ورحمته الواسعة، من حيث إزالة حاجاتي التي لا تنتهي، ودفع أعدائي الذين لا يُعدّون، فعلمت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والالتجاء والتذلل.''[9]

وفي مفارقة لافتة يذكرها الرجل للتدليل على صدق كلامه في هذا المجال -مما قد يقف عليه كل واحد منا- يقول: ''ولقد ساق وجود قوة الاقتدار والاختيار والذكاء -المثير للحرص القائد إلى الحرمان على الأغلب- أولئك الأدباء الذين يستشعرون بها، إلى التذلل، وإلى ما يشبه التسول، بينما أوصل عدم الاقتدار المكلل بالتوكل أغلب العوام البله إلى الثراء والغنى...''[10]

وقال في موضع آخر بأن ''كثيرا من الأدباء والعلماء يعيشون عيش الكفاف، في حين يُثري كثير من البلداء والبلهاء، كل ذلك يدل على أن وسيلة جلب الرزق ليست بالذكاء والاقتدار، بل بالعجز والافتقار، وبالتسليم المتسم بالتوكل، وبالدعاء بلسان المقال والحال والفعل''.[11]

وحتى لا تذهب بعيدا ظنون من يتلقف الكلام ولا يحققه، أو من يتشوق لسماع ما يميل إليه ويبتغيه، أو من يستسهل الأشكال والرسوم وتعييه المقاصد والمعاني ينبه النورسي إلى ''أن المقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس''.[12]

وفي التشبيه السابق للعجز بالعشق إشعار ضمني باللذة التي تصاحبه، صرّح بها في موضع آخر -حين ربطها بالخوف والرجاء حكمة تلازم التذلل نفَسا في مسلك العبودية- فقال: ''إن العارف بالله يتلذّذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه، وحقا إن في الخوف لذّة، فلو تمكنا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيبُ حالاتك وألذُّها؟ فربما يكون جوابه هو: عندما ألوذ بصدر أمي الحنون، بخوفي ورجائي وعجزي... ومن هنا وجد الذين كمل إيمانهم لذّة تفوق أية لذّة كانت في العجز ومخافة الله، حتى أنهم تبرءوا إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوتهم، ولاذوا بعجزهم إليه تعالى، واستعاذوا به وحده، مقدمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل''.[13]

الخوف اللذيذ... أو طريق المحبوبية:

إن الشعور بالمعية والرعاية يولّد في النفس ما يسميه بديع الزمان ''بالخوف اللذيذ''[14] الذي يقود إلى المحبة واتخاذ الوضع الجميل حسبما يحبه الله ويرضاه.

والخوف أيضا ''سوط تشويق يدفع الإنسان إلى حضن رحمته تعالى... ولئن كان للخوف من الله لذّة إلى هذا الحد فكيف بمحبة الله سبحانه؟''[15] فيكون بإشهار العجز والخوف لذة في العلاقة مع المحبوب، تنشأ عنها المحبة، التي تقود إلى الانصياع والطاعة والإخبات.

ويجمع بين معاني الربوبية والعبودية وما ينشأ عنهما من خوف وتذلل ورجاء وتحلية في معرض تفسيره لسورة الفاتحة فيقول عند قوله تعالى: ﴿غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: ''...إن هذا المقام لكونه مقام الخوف والتخلية يناسب المقامات السابقة، فينظر بنظر الحيرة والدهشة إلى مقام توصيف الربوبية بالجلال والجمال، وبنظر الالتجاء إلى مقام العبودية في ﴿نَعْبُدُ﴾، وبنظر العجز إلى مقام التوكل في ﴿نَسْتَعِينُ﴾، وبنظر التسلي إلى رفيقه الدائمي أعني مقام الرجاء والتحلية، إذ أول ما يتولّد في قلب من يرى أمرا هائلا حس الحيرة، ثم ميل الفرار، ثم التوكل عند العجز، ثم التسلي بعد ذلك الأمر''.[16]

إن الذي يستشعر عظمة الله ويخشاه في الغيب والشهادة تهون أمامه المصائب، أو تخفّ وطأتها على قلبه، وبما يُرزقه أيضا من رجاء يقوي الأمل في الله، ويدفعه للطمع في رحمته، فيلجأ مخبتا للدعاء ليرتفع البلاء أو يُقضى باللطف فيه، و ''يتحصّن من كل مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل...''[17] ثم يضرب لأثر الإيمان مثلا فيقول: ''فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابدا لله ذا قلب منوّر، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاّها بإعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت -ولو كان فيلسوفا ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى في الفضاء نجما مذنبا يعتوره الخوف ويرتعش هلعا ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟...''[18] بل إن انعدام الاطمئنان والأمان أدى ببعض كبار العلماء والأدباء في نهاية حياتهم إلى الانتحار.

إن للمعصية أثرا ماديا وآخر معنويا، يفوقه بما يتركه من ندوب قد لا تزول، فالأول يتنزل عقابا وابتلاء بما يأخذه معه من بريء بجريرة مذنب مجاهر بالآثام، وذلك كما يحدث في كوارث الزلزال، حيث علّق بديع الزمان على واقعة معينة فقال بأنها أذاقت الناس ''...مصيبة معنوية أدهى من مصيبتها المادية الفجيعة، تلك هي الخوف والهلع

واليأس والقنوط التي استولت على النفوس ...وعم القلق والاضطراب أغلب مناطق البلاد...''[19] وهذا هو الأمر الثاني الذي جاء وصفه ''بالأدهى''.

إن القلب الذي لا يعمره الإيمان سدا في وجه الخطوب، ولا تملؤه الخشية من الله ردءا من خشية الأغيار: يتملكه الخوف من كل متكبر جبار، ويتحسّب لكل صيحة يترقب وقوعها عليه، فهذا علاجه أن يوجّه خوفه إلى من يُهاب حقيقة، ''و الذي يخاف من الله ينجو من الخوف من الآخرين...[20] وعليه أن يتأمل في مدلول الواحدية، وانطلاقا من معانيها يوصيه النورسي بالقول: ''... فلا تتعب نفسك بمراجعة الأغيار، ولا تتذلل لهم فترزح تحت منتهم وأذاهم، ولا تحني رأسك أمامهم وتتملّق لهم، ولا ترهق نفسك فتلهث وراءهم، ولا تخف منهم وترتعد إزاءهم، لأن سلطان الكون واحد، وعنده مفاتيح كل شيء... تنحل عقد كل شيء بأمره، وتنفرج كل شدة بإذنه، فإن وجدته فقد ملكت كل شيء، وفزت بما تطلبه، ونجوت من أثقال المن والأذى، ومن أسر الخوف والوهم''.[21]

هذا هو الحل الذي يقترحه بديع الزمان حتى لا يستغل الطغاة ''الشعور العميق بالخوف'' المركوز في فطرة الإنسان، ''..فيلجمون به الجبناء ...ويلقون في روعهم المخاوف، ويثيرون فيهم الأوهام ...فيدفعونهم إلى التخلي عن أمور جسام من جراء مخاوف تافهة لا قيمة لها...''[22] ويصوّر حالة هؤلاء بمن يدخل في فم الثعبان لئلا يلسعه البعوض.[23]

إن الشفاء من ألم الخوف الذي يزيل لذّة الحياة الدنيوية ''...أن ينصت الإنسان بالتسليم لدعوة القرآن، فينقلب العجز تذكرة دعوة للاستناد إلى القدير المطلق، والاتصال بسر التوكل بنقطة استناد فيها أمن وأمان من الأعداء... ''وكان قد ذكر أنّ التداوي بالقرآن يحيل ''..الفقر المطلق الأليم شوقا لذيذا إلى ضيافة الرحمة، واشتهاء لطيفا لتناول ثمرات رحمة الرحمن، فتزداد لذة الفقر والعجز بمراتب على لذة الغناء والقوة...''[24]

ويذكر واقعة في هذا المجال يستعين بإقناع الخائف فيها بالعقل بعدما أعيته الوسائل الأخرى، فقد ذكر أنه كان بصحبته عالم جليل يتهيب ركوب الزوارق، ولم يكن لهم بد من عبور الخليج إلاّ بها، فكان الحوار التالي: ''...أخاف، ربما نغرق، قلت له: كم يقدر عدد الزوارق في هذا الخليج؟قال: ربما ألف زورق، قلت: كم زورقا يغرق في السنة؟ قال: زورق أو اثنان، وقد لا يغرق في بعض السنين، قلت: كم يوما

في السنة؟ قال: ثلاثمائة وستون يوما، قلت: إن احتمال الغرق الذي استحوذ على ذهنك، وأثار فيك الخوف هو احتمال واحد من بين ثلاثمائة وستين ألف احتمال، فالذي يخاف من هذا الاحتمال لا يعد إنسانا ولا حيوانا، ثم قلت له: ترى كم تقدّر أن تعيش بعد الآن؟ قال: أنا شيخ كبير، ربما أعيش عشر سنوات أخرى، قلت: إن احتمال الموت واقع في كل يوم، حيث الأجل مخفي عنا... أي لك ثلاثة آلاف وستمائة احتمال للموت، فليس أمامك إذن احتمال واحد من بين ثلاثمائة ألف احتمال -كما في الزورق- وإنما احتمال من بين ثلاثة آلاف احتمال، فلربما يعدّ ذلك خوفاً مشروعاً من باب الحيطة والحذر. أما إن كان الخوف ناشئاً من احتمال واحد من بين عشرين أو أربعين احتمالاً فليس هذا خوفاً، وإنما وهمٌ يستولي على الإنسان ويجعل حياته عذاباً وشقاءً''.[25]

التسليم وخفايا الابتلاء:

تتأرجح حياة الإنسان بين معاقد الأمل، تراوده في الحقيقة تارة وفي الخيال تارة أخرى، وبين فترات ألم قد تسلمه -إذا طالت- إلى يأس يقعده أو تبرم يضيره، ولا ينجيه إلاّ التسليم بسنة الابتلاء يقدّر، واعتقاد في حكمة البلاء يتنزل، يُفتتن بخيره وشره من يدين لله بالوحدانية، تنمو به بذرة الخوف في النفس حينا، وتزهر به نبتة الرجاء حينا آخر، ولذلك ينبغي اعتبار الآلام والأوجاع الروحية ''...أسواطا ربانية تحثّ على المجاهدة والصبر، إذ تقتضي الحكمة الحيلولة دون الوقوع في اليأس، وكذلك دون البقاء في الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التجمل بالصبر والتحلي بالشكر''.[26]

ويعرض بديع الزمان لتجربة شخصية أفضت به إلى شعور باليأس والأسف على ما صدر منه -بسبب غفلة الشباب- من ''آثام وذنوب... فصرخت من أعماقي أطلب إمداد العون وضياء الرجاء، وإذا بالقرآن الحكيم المعجز البيان يمدّني ويسعفني، ويفتح أمامي باب رجاء عظيم، ويمنحني نورا ساطعا من الأمل والرجاء، يستطيع أن يزيل أضعاف أضعاف يأسي، ويمكنه أن يبدد تلك الظلمات القائمة من حولي''.[27]

والموت باعتباره بلاء يحيق بالإنسان من كل جانب لا يمكن تجاوز القلق الذي يحدثه إلاّ بالاستسلام والتسليم بوجود حكمة في كل ما يفعله الله، ومنها أن يبقى القلب معلقا بين الخوف والرجاء، ولو كان العمر معلوما لكان القلق أشد، فمن رحمة الله -عند المقارنة- أن يؤثر نفسه بمعرفة الآجال، وإلاّ ''...لقضى هذا الإنسان

المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوبا مدهوشا، كمن يساق خطوة خطوة نحو حبل المشنقة، بينما تقتضي المحافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقا قلبه بين الخوف والرجاء: أن تكون في كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت، أو استمرار الحياة، وعلى هذا يرجح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل، على ألف سنة من عمر معلوم الأجل".[28]

ويذكر النورسي سرا آخر من أسرار الإخفاء، فلو كان يوم القيامة معلوما "...لدخل قسم من الحقائق الإيمانية ضمن البدهيات، أي يصدق بها الجميع، سواء أرادوا أو لم يريدوا، ولاختلّ عندئذ سر التكليف وحكمة الإيمان المرتبطان بإرادة الإنسان واختياره."[29]

ومن بواعث الخوف والرجاء، ودواعي التذلل والتضرع، وأسرار الابتلاء في المنع والعطاء: تغييب تفاصيل بعض الظواهر الكونية التي لا تخضع للضوابط والقوانين وإن وسعت ظواهرَها الكلية عوالم الأسباب. ومن ذلك ظاهرة المطر إذ لا يستطيع علم البشر أن يحدد وقت نزول الغيث قبل اقترابه من عالم الشهادة، وحكمة ذلك أن "...يضطر كل فرد في كل وقت وفي كل أمر إلى الشكر وإظهار العبودية، وإلى السؤال والتضرع والدعاء، إذ لو كانت تلك الأمور (جزئيات الغيث) على وفق قاعدة معينة لانسدّ باب الشكر والرجاء منه تعالى استنادا إلى القاعدة المطردة... "وحتى لا يتهم النورسي بالجهل بقوانين الطبيعة أو تجاهلها، أو بالعجز عن تفسير العلاقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة في هذا المجال يسارع إلى البيان فيقول: "...أما الإحساس بالأجهزة في المراصد عن مقدمات وقت نزوله... فليس علما بالغيب، بل هو علم بالاطلاع على بعض مقدمات نزوله، حينما يقترب إلى عالم الشهادة بعد صدوره من الغيب..."[30]

وفي تفسير فلسفي للعلاقة يراعي التقيد بالأسباب سعيا وكسبا، والإيحاء الإيماني بطلاقة القدرة فعلا وتأثيرا فيؤصّل الرجل لمثل هذه الظواهر الغيبية فيقول: "...إن العزّة والعظمة تقتضيان أن تكون الأسباب حجبا بين يدي القدرة الإلهية أمام نظر العقل، إلاّ أن الجلال والوحدانية يقتضيان أن تسحب الأسباب أيديها وترفعها عن التأثير الحقيقي".[31]

الرزق... أو طريق الإذلال:

ومن المسائل التي أبهمت أسباب المنع والعطاء فيها، وتفلّتت بإذن ربها عن قانون

التلازم الصارم، لتتجلى بذلك حكمة الإخفاء بإشهار التذلل والترقب، ولتمتحن عقائد الناس فيزداد تعلق البعض بربهم، أو تسقط همم بالحرص والطمع: مسألة الرزق التي وصفها النورسي بأنها ''أغنى منبع يعبّ؟ (يفيض) بالشكر والحمد، وأجمع كنز للعبودية والدعاء وضروب الرجاء...'' وذكر بأنه يبدو ''...كأنه مبهم ومشدود إلى المصادفة...'' والغرض من ذلك أن لا ''...يوصد باب طلب الرزق بالدعاء من الرزاق الكريم في كل حين، ولئلا ينغلق باب الالتجاء والتوسل المشفع بالحمد والشكر لله تعالى...'' ثم ذكر سبب هذا الإبهام أو الإخفاء فقال: ''...لو كان الرزق معينا كشروق الشمس وغروبها... لكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملفعة كلها بالشكر الجميل والرضى الحسن قد انسدّت عن آخرها، بل لكانت أبواب العبودية الخاشعة الضارعة قد انغلقت نهائيا''.[32]

والحديث عن الرزق قد أولاه النورسي عناية خاصة من حيث تعلقه بالعبودية والتوكل تحقيقا أو انتقاضا، والكلام السابق جزء من تلك العناية، أما الجزء الذي قد يفوقه أهمية فهو الاعتقاد الشائع بتلازم سببي بين السعي وبين الكسب والتحصيل، تُسند فيه العطايا إلى الساعي، وتذوي به رسوم عبادة تعلن، فضلا عن عبودية تقوّض أركانها أنفاس زهو مكتوم بتحصيل كسب أو تحقيق ظفر.

ويعالج هذا الأمر وغيره بالقول: ''الإنسان مغرم بالرزق كثيرا، ويتوهم أن السعي إلى الرزق يمنعه عن العبودية، فلأجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يتخذ ذريعة لشرك العبادة تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾الذاريات:٥٦ وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وأن السعي إلى الرزق -من حيث الأمر والنهي- عبودية لله أيضا... والرزق أنا به زعيم، فواجبكم الأساس هو العبودية، والسعي على وفق أوامري للحصول على الرزق هو بذاته نوع من العبودية''.[33]

وبسبب الغفلة عن عقيدة الرزق، وخلو القلب من معانيها ينشأ الحرص بديلا، تنمو بوادره شيئا فشيئا، فيحيله التكاثر إلى طمع يذل صاحبه، وإذا غلبت هذه الطباع على المجتمع يغدو التنازع على الحطام مسلكا يقود إلى إفساد العلائق وخراب الذمم، يقول بديع الزمان: ''...الحرص داء كالعداء، بل هو أضر على الحياة الإسلامية وأدهى عليها، نعم، الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة ومذلة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة...'' ثم يضرب لذلك مثلا بمن شاعت عنهم هذه الطباع

والخصال، وغدوا عنوانا للمذلة والهوان ''...إن الشاهد القاطع على هذا الحكم على الحرص هو ما أصاب اليهود من الذلة والمسكنة والهوان والسفالة، لشدة تهالكهم على حطام الدنيا أكثر من أية أمة أخرى... ''ثم يربط بين ذلك وبين التوكل فيقول: ''...والحرص يظهر تأثيره السيّء بدءا من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصغر فرد فيه، بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان، ويبرز أثره النافع في كل مكان''.[34]

وكعادة الرجل في ضرب الأمثلة لتأكيد المعنى يلفت الأنظار إلى مفارقة عجيبة بين النبات والحيوان، حيث تساق الأرزاق سوقا إلى من لا يبرح مكانه، ويُعيي الحراكُ من عُرف بالعدو فلا يبلغ بعض غايته إلاّ بالجهد الجهيد يبذله ''...فالأشجار ...تهرع إليها أرزاقها سريعة وهي منتصبة في أماكنها متسمة بالتوكل والقناعة، دون أن يبدو منها أثر للحرص، ... أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلاّ بعد جهد ومشقة، وبكمية زهيدة ناقصة، ذلك لأنها تلهث وراءها بحرص...''[35]

التسليم والصبر... أو سياج العبودية:

و إذا كان سرّ العبودية هو التذلل والتضرّع فإن من خصائصها التسليم والصبر، وكلٌّ من الأمرين يستدعي أحدهما الآخر، وقد يكون التسليم أضمن لتحمل مشاقّ العبادة بمفهومها الشامل، وقد يُقال: إنّ التسليم إذا افتُقد لم تصحّ معه العبودية وإن صحّت العبادة، وهذا مأخوذ من استلزام العبودية ''للتسليم دون اختبار وتجربة وامتحان، إذ أن للسيّد أن يختبر عبده، وليس للعبد أن يختبر ربّه''.[36] وجدوى التسليم أنه ييسر مدارج الصابرين في تطلّبهم لمقام العبودية الكامل، ولما كان الحرص سبباً للحرمان فإن الصبر طريق للفرج، وفي معرض شرحه لمعية الله للصابرين والمتّقين يذكر الصبر عن المعصية الذي يقود إلى التقوى، والصبر عند المصيبة الذي تُنال به محبّة الله ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾''آل عمران:١٤٦ وعدم الصبر يتضمّن الشكوى من الله... واتهام رحمته ورفض حكمته... والإنسان الضعيف العاجز يتألم ويبكي من ضربات المصيبة ويشكو، ولكن يجب أن تكون الشكوى إليه لا منه كما قال سيّدنا يعقوب ﴿إِنَّمَا اَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾. يوسف:٨٦ 37

و الدرجة الثالثة من أقسام الصبر: الصبر على العبادة ''الذي يمكن أن يبلّغ صاحبه مقام المحبوبية فيسوقه إلى حيث المحبوبية الكاملة التي هي أعلى مقام''.[38] والتعبير من النورسي بـ ''يمكن'' يعني أنه لمّا يبلغها بعد، وذلك -ربما- لأن هذا المقام ببلوغه

تخلو حال السالك من المعاناة التي تقتضي الصبر، ويدخل في مكابدة الشوق والتلذّذ باللقاء، ويغدو حينها الصبر ترقّباً للمناجاة.

الحذر من الإدلال أو مزالق العبودية:

وحذّر النورسي أيضا من العلل التي تتسرّب في ثنايا الطاعة، فتحيلها إلى معصية أشدّ فتكاً من المعصية التي تُجترح، ويعيش بذلّها العاصي مخبت القلب، حيي المسلك، يتحسّس من فداحة الجرم، ويتوجّس من مكرٍ يحيق، أو عقاب يتنزل. يقول في هذا الصدد: ''ويُخشى أن ينقلب من التضرّع والتذلل لله اللذين هما سرّ العبودية إلى الإدلال والطلب والدعاوى، فيطيش صوابه ويتحرّك مختالاً بمحبته دون ضوابط أو موازين.''[39] فهذه غفلة عن حقيقة العبودية، وذهول عن نواقض تتبدّى من خلال تذلّل يعقبه تمنّن، ويصيبها الإدلال في مقتل، إذ يُتوسَّل برسومها إلى استشراف ينفي عنها سراً يلازمها.

وفي تمييز لا تخفى دِلالته- لمنهجه عن الطرائق الأخرى يؤكّد المعاني السابقة من خلال ربطها بصنيع ''أهل الأذواق والأشواق من أصحاب الطرق عندما ينصرفون إلى الفخر والادّعاء، وإشاعة الشطحات وطلب توجه الناس، ونيل المرجعيات الدينية، ويفضّلون هذه العجالات على الشكر والتضرّع والحمد والاستغناء عن الناس، بينما عبودية محمد ﷺ هي أسمى مرتبة في العبودية، تلك العبودية التي نستطيع وصفها بالمحبوبية أو عبودية المحبة.''[40]

لعل من أعظم الوسائل التي تحققها في النفس وترسّخها في الوجدان هي الصلاة والدعاء، فأما الصلاة ''فأساس العبودية''[41] والرسول ﷺ نفسه ''يحتاج إلى الصلاة من حيث العبودية''،[42] وأما الدعاء ''فسرّ من أسرارها''،[43] ويتجلّى ذلك في صلاة الاستسقاء أيضاً، حيث يؤدي انحباس المطر إلى كلّ الشرور ''ويدرك الإنسان حينئذ عجزه وفقره، فيلوذ بالدعاء والتضرّع إلى باب القدير المطلق...''[44] وما أروع التعبيرات التي تستعمل للنفاذ بالمعاني إلى القلوب إذ يصف تأثير القرآن الكريم في هذا المجال ''بجلباب العبودية''[45] وفريضة الصيام بوشاح يتقلده الصائم.[46]

أما عبدة الأسباب ''فسدوا سبيل العبودية إلى الله، وغلّقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلوا في أوحال الطبيعة، فما نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع.''[47] وهم مع ذلك يعقدون صفقة خاسرة حين يستبدلون الأدنى بالذي هو خير، فيهربون من

التذلل للخالق ليقعوا في ذل أمام المخلوق، ''والذي يستنكف من العبودية ويتجاهلها، فسيكون عبداً ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة...''[48] ويحذّر بديع الزمان هؤلاء من أن تقودهم أنانيتهم شيئاً فشيئاً إلى خصال الطغاة الذين تستغرقهم لذائذ الدنيا فتحجزهم عن وظائف العبودية[49] وينقاد الذليل إلى الذليل حتى ولو نافس الأذلّ منهما ربّه في أردية الكبر والاستعلاء. وما دام التعلّق بالأسباب هما للضعاف فستبقى المذلة والمهانة تسكن النفوس حتى وإن تظاهر من يتجرعها بعكس ذلك لإيهام الناس، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يوهم نفسه.لكن التعلق بها شيء وإهمالها شيء آخر، والثاني منهما غير مراد ''لئلا يكون متمردا في مقابلة النظام المودع بحكمته ومشيئته تعالى، لأن التوكل في تلك الدائرة (أي دائرة الأسباب) عطالة كما مر''.[50]

وهذا الأمر يوليه الرجل أهميّة تلفت النظر من حيث ربطه بنزق النفس التي يستهويها التمرّد حتى تبلغ شأواً لا يمكنها التراجع عنه، وذلك مثلما حدث من ''مدعي الألوهية والربوبية من الملوك والأباطرة والفراعين... وما خلّفوه وراءهم من جروح وآلام في حياة الشعوب والحضارات.''[51] وكأن النورسي يريد أن يصرف الأنظار قليلاً عن هؤلاء الفراعنة، ليشير إلى أن كلّ إنسان يحمل بين جنبيه نفساً قد توردە المهالك، بما تحمله من جموح لا يُشترط أن يتبوّأ أصحابه المناصب حتى يصرّفوه ويأثموا، وكل نفس يصدر عنها قدر من الظلم على قدر حجمها وقوّتها، وقد يكون حينها البلاء أشدّ مع العائل أو الضعيف حين يتطاول زهواً واستكباراً، ولذلك يحذّر الرجل من هذا الداء الذي لا تقتصر الإصابة به على من يدّعيه أو يمارسه، فقد تصيب الإنسان نزغة من نزغات الربوبية والمالكية تسدّ عليه طريق العبودية إلى نهايته، وبقدر ''علمك ببعدك عن الربوبية والمالكية تصير عبدا محبوبا''.[52]

''وحرصاً من الإسلام على أن تظلّ نفس المسلم صحيحة: فقد حثّ القرآن على مجاهدة نزق هذه النفس وحذّر من تمرّدها وعصيانها لخالقها، واعتبر مجاهدتها واجباً إيمانياً لا يقلّ أهمية عن واجب مجاهدة العدوّ، بل يزيد عليه، لأن العدوّ الذي يريد الشرّ بالبلاد والعباد بيّن ظاهر للعيان بسلاحه وعدته وعدده، نواجهه ونحن نرى ونسمع، فيجتمع عليه كياننا كله، وتتهافت عليه حواسّنا جميعاً، وتتعاون على قهره طاقاتنا بأسرها، أما النفس العاصية لله فهي عدو خفيّ لا نراه ولا نحسّ بعداوته، لأنها تسري في وجودنا كله وتجري منا مجرى الدمّ.. ولا نعرف من أين تهاجمنا، ومن أي ثغرة تتسلّل إلى مقاتلنا وأيَّ سلاح رهيب من أسلحتها تجربه فينا، لذا يتعيّن علينا أن

نبقى حذرين دائمي الحذر، متيقظين دائمي التيقّظ، نرصد حركاتها ونراقب مناوراتها، ونأخذ منها زمام المبادرة...''[53]

ولعل جزءا من علاج التذلل لما سوى الله هو في تحقيق معنى العبادة والاستعانة الواردة في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهذا النظم ''كنظم الأجرة مع الخدمة، لأن العبادة حق الله على العبد، والإعانة إحسانه تعالى لعبده، وفي حصره ''إياك'' إشارة إلى أن بهذه النسبة الشريفة التي هي العبادة والخدمة لله تعالى يترفع العبد عن التذلل للأسباب والوسائط، بل تصير الوسائط خادمة له، وهو لا يعرف إلاّ واحدا، فيتجلى حكم دائرة الاعتقاد والوجدان... ومن لم يكن خادما له تعالى بحق يصير خادما للأسباب ومتذللا للوسائط''.[54]

إنّ للنفس الأمارة مسارب تنفذ منها للتشويش والتشويه، فتعمد إلى المعاني النبيلة التي تنبئ عنها الرسوم والأسماء، فتشرك معها في الدلالة أحوالاً تدَّعي بها القربى من المحبوب، وإنما هو الهوى يُلبَس لبوس القيم الجميلة لاشتراكها في الإطلاق، فتختلط القصود، وينصرف القلب عن وجهته الأولى، وهو ما يشير إليه بديع الزمان حين يحذّر من ''أن تتحوّل المحبّة من المعنى الحرفي إلى المعنى الاسمي أثناء توجّهه بالمحبة إلى ما سوى الله، فتنقلب عندئذ من دواء شافٍ إلى سمّ زعاف، إذ يحدث أحياناً أنّ المحبّ يتوجّه إلى صفات المحبوب -من دون الله- وإلى كماله الشخصيّ وجماله الذاتي من دون تذكّر الله ورسوله، مع أن الواجب عليه عند التوجّه بالحبّ لما سوى الله أن يكون هذا الحبّ في الله ولله، فيربط قلبه به من حيث كونه مرآة لتجلّي أسمائه الحسنى...''[55] ويزيد الأمر بياناً فيقول: ''إنّ مثل هذا الحبّ بالمعنى الاسمي لا يكون وسيلة لحبّ الله، بل ستاراً من دونه...''[56]

العبودية... وسبيل ترسيخ الحرية:

وقد يُثار ههنا على بديع الزمان سؤال مهم مفاده: ألا يوحي تأكيد معاني العبودية بأنه لم يترك للحرية مجالاً تسيح فيه؟ أو بعبارة أخرى: ألا يمكن القول بأن ترسيخ معانيها على وفق الرؤية النورية تجعل العبد ذليلاً مستكيناً أمام الله وأمام الناس أيضاً، فيصاب بعطالة على مستوى حياته الدنيا لا ينقذه منها إلاّ شعار في الجهة الأخرى يتفلّت به من كلّ عقال؟

ويمكن القول جواباً على هذا السؤال: إن العبودية التي يريدها الرجل هي تلك الحالة التي تجعل المسلم يستسلم لله وحده، ويسلم قياده له لا شريك له، ليخرج من

قلبه كل الأرباب، ولتفقد كل الربوبيات بريقها أو سطوتها، فيغدو القلب العامر بذكر الله خالياً من كل خوف أو رجاء إلا منه سبحانه، ''فمن كان عبداً لله لا يكون عبداً للعباد''،[57] ومن ''أراد العبودية الخالصة لربّ العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبداً للعبيد، وإن جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الإيمان.''[58] و ''المؤمن حرّ في ذاته، فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس، بمعنى: كلّما رسخ الإيمان قويت الحرية.''[59] ومفهوم هذه القاعدة عند بديع الزمان أنه كلما قلّ الإيمان كلّما ازدادت فرص الوقوع في الأسر، أو كلما آنست طبائع الاستبداد فراغاً في القلوب ملأته بالدينونة للربوبيات التي تنشئها، وفي عبارة رائعة يؤكد فيها الترابط السابق فيقول: ''فبمقدار قوّة الإيمان تتلألأ الحرية وتسطع''،[60] ويذهب أبعد من ذلك حين يقرر -على خلاف ما هو شائع- بأنّ ''الحرية بالنسبة للإنسان تولّد العبودية لله سبحانه''،[61] والمعنى أن الاستبداد قد يلجئ الأفراد إلى ممارسة حرّياتهم في جوف الليل وأجواء السحر، أما الحرية فتشيع العبودية هواء يتنفسه الناس جهراً، وتتحقق بذلك الدينونة لله على مستوى المجتمع كله.

ولا يتردد الشيخ في الحسم، ولا يتعثّر في بيان الحقائق -كما جرت عادة بعض الذين يكبر عليهم التجرّد أو تأسرهم أهواء التعصّب أو التحزّب- فنراه يردّ على شبهة يمارسها الأتباع، باعتقاد أو بغيره، وهي تغليب بعض المعاني المشار إليها على حساب الحرية، يورد السؤال فيقول: ''نحن عوامّ، كيف نصير أحراراً تّجاه الشخصيات الكبار، أو الأولياء والصلحاء والعلماء العظماء، أوَليس من حقّهم أن يتحكموا فينا لمزاياهم، فكيف لا نكون أسارى فضائلهم؟''[62] والسؤال قد لا يكون بهذا البيان من السائل المفترض، ويبدو أن الشيخ -على افتراض توجيه السؤال فعلاً- قد زاده بما يعرف من خفايا النفوس ومزالق التقليد توضيحاً وجلاءً، وكثيراً ما نلاحظ هذا المسلك عند أتباع المدارس الطرقية مما كان أتباع المدارس الفكرية ينعونه عليهم حتى وقعوا في مثله، أو أسوأ منه في بعض الحالات.

يقول بديع الزمان في الجواب: ''إنّ شأن الولاية والمشيخة والعظمة: التواضع والتجرّد، وهما من لوازم الفضيلة وخصائص الكمال ورفعة الشأن، لا التكبّر والتحكّم، فمن تكبر فهو صبيّ متشيّخ وطفل متكهّل فلا تعظّموه.''[63] ويبدو أن الرجل ذهب بعيداً وهو يجلّي هذه الحقائق، حتى أشفق عليه الأتباع مما يمكن أن يلحقه من أذى قد لا يقدر عليه، ذلك أنه قد يأتي ممن يُفترض فيهم القرابة الروحية والفكرية، ولأن ''مناكفتهم'' تُفهم على غير حقيقتها، وليست كتلك التي يواجه بها خصوماً لا يتورّعون

عن إعلان التحلّل والتهتّك. وفي هذه الأجواء سأله السائل: ''الهجوم على المشايخ الذين وقعوا في البدع فيه خطر عليك، لأن فيهم أولياء، ألا تخاف أن تصيبهم بجهالة فتصبح على ما فعلت من النادمين؟''[64] فأجاب: ''إن المولى جلّ جلاله قد وسم بقدرته على جباههم الرفيعة نقش الحقيقة، ومرادي أن أرشد من طاش فهمه عن ذلك النقش، نعم إن هجومي ليس عليهم بل لهم، وذلك لئلا يقلل من شأنهم غير الكفوئين ''كذا'' الذين يتزيون يزيّهم، فعلى هذا أعلن ولا أبالي: أني على عزم جازم أن أقتحم المهالك -أيًّا كانت- أمام ما أصبو إليه من سلامة الإسلام، ولن يثنوني عن عزمي بالتهديد والتخويف.''[65]

الحرية الشرعية... وأحابيل الاستبداد:

ولكي يميّز الرجل نفسه عن الدعاة المزيفين للحرية -والذين أشار إليهم في أكثر من موضع، حيث يتخذون الشعار ستاراً لممارسة صور للاستبداد أبشع، أو يقصرونها على مظاهر التهتك والتخلّع- يضفي عليها وصف الشرعية قيداً للتميز، مع الحفاظ على أهمّ أركانها، وهو التحلّل من كل خضوع لما سوى الله، وذلك في قوله: ''إن الحرية الشرعية النابعة من الإيمان إنما تأمر بأساسين: ألا يذلَّل المسلم ولا يتذلّل، من كان عبداً لله لا يكون عبداً للعباد، وألاّ يجعل بعضكم بعضا أرباباً من دون الله...''[66] ويبرّر ذلك بأن'' من لا يعرف الله حقّ معرفته يتوهم الربوبية في كل شيء، في كلٍّ حسب نسبته فيسلّطه على نفسه''.[67] ولمّا كانت المعاني والمفاهيم تتميز أكثر بالأضداد عرّف الحرية التي ينتفي عنها وصف الشرع فقال: ''إن الحرية الخارجة عن دائرة الشرع إنما هي استبداد أو أسر بيد النفس الأمارة بالسوء، أو بهيمية أو وحشية...''[68]

ويبين في موضع آخر آثار الابتعاد عن هذه الحرية، وهو ما ينبئ عن خبرة بطرائق الاستبداد، وتوق إلى الحرية الحقيقية فيقول: ''إن لم تنضبط الحرية بالشريعة فإن ما أطلقتموه من استبداد ضعيف جزئي اضطرّ إليه شخص، يصبح استبداداً عظيماً يوزّع على الناس كافة، ويغدو كل شخص مستبدا بذاته، فيتولّد عندئذ استبداد مطلق، وينقلب الاستبداد الواحد إلى الألوف، بمعنى أن الحرية ستموت، ويولد استبداد مطلق''.[69]

إن فهم الرجل لحقيقة العبودية وفقهه بنوازع الاستبداد جعلاه يحذر من كل الدعوات التي عاصرها، ولاحظ بعضها وهي تطلّ بقرنها لتسُوس الناس بنفس الاستبداد السابق أو بأقبح منه مع تجديد في الوسائل والأساليب، ومع تسليم الرجل

بما لا يزال يتردد إلى اليوم من قلة وعي الدعاة، أو انعدام خبرة تؤدي إلى الوقوع في الفخاخ المنصوبة، يباهي الرجل بأن المسلمين ينخدعون ولا يخدعون، ومع ذلك - ولحساسيته المفرطة فيما يبدو تجاه أساليب الخداع التي عايشها- فإنه يستدرك قائلاً: "...ولكن لأنني قد عاهدت المشروطية الحقيقية المشروعة سأصفع الاستبداد إن قابلته في أي لباس كان، حتى ولو كان لابساً لباس المشروطية، أو تقلّد اسمها".[70]

إنه وعي مبكّر لدى هذا المربي، أفلح به في تجاوز أحابيل الاستبداد غير المرئيّة، كما تجاهل به صوراً للتعصب وولاء غير مبصر، فتتكرّر الخطيئة تحت شعار آخر، وهذا مردّه إلى إهمال المقاصد والتعلّق بالمظاهر، فتنطلي على الناس دعاوى تتستّر بها على ما يناقضها، أو شعارات تطمئن الناس إلى حين، ثم لا تلبث أن تنتج لهم نفس السلعة التي يكرهون.

هناك أقوال تصدر عن الرجل، أو تصحيح لفهم يقيم به وعي من يحب، لا يملك من يقرؤه أو يقف عليه إلاّ أن يُسرّ إعجابا يتملّكه، أو يكتم تقديرا لفقه في القضايا الشائكة تخطه يمينه، ويتلقفه منه التابع والمريد، فقد جاءه مزهوا بحاله من يسأله مستدركا: "...نحن معاشر البدو أحرار منذ القدم، وولدت حريتنا توأما معنا، فليفرح بها الآخرون من غيرنا، والأمر لا يهمنا".

وكان جواب الرجل مزيجا من ثناء يشبع الغرور المعلن، يكسره له بعد ذلك في سياق البيان الدقيق لمعنى الحرية الذي ينبغي أن "تهذّب" به طباع البداوة المرسلة، ليتمتع بشمسها المشرقة الآخرون أيضا، قال بديع الزمان للسائل المستنكر: "نعم، إن حب تلك الحرية والشغف بها هو الذي جعلكم تتحملون مشقات البداوة التي لا تطاق، وإن سلوككم المفعم بالقناعة هو الذي أغناكم عن محاسن المدنية البراقة، فزهدتم فيها، ولكن أيها البدو: إن ما لديكم من الحرية هو نصفها، والنصف الآخر هو عدم المساس بحرية الآخرين، ثم إن الحرية الممزوجة بالبداوة وبالعيش الكفاف توجد منها أيضا في حيوانات الجبال والبراري القريبة منكم... ولكن أين أنتم من تلك الحرية الإنسانية الساطعة كالشمس، وهي معشوقة كل روح، وصنو جوهر الإنسانية، وما هي إلاّ التي تربّعت على قصر سعادة المدنية، وتزيّنت بحلل المعرفة، وحليّ الفضيلة والتربية الإسلامية."[71]

التوكل والتواكل... أو محاذير الأسباب:

تعرّض مفهوم التوكّل من قبل طوائف وجماعات إلى تفسيرات أسلمته إلى مسلك

التواكل الذي عُدّ من قبل بعض المصلحين والدعاة من أهمّ أسباب الوهن الذي يعصف بالأمة، باعتبار أن المفاهيم المغلوطة تؤثر سلباً على وعي المجتمع، فيستقرّ في روعه أنه على الجادّة، ولا يسعى إلى تغيير يقلع به عن أسباب التخلّف، وهذه من أخطر حالات المرض حين يعتقد العليل سلامته فلا يبحث عن شفاء.

والفضل في تصحيح هذه المفاهيم يرجع إلى دعوات تنبهت منذ بدايات القرن الماضي لمثل هذه الأدواء، وأعملت في وعي الأمة مبضع جرّاح أفلح في استئصال معظمها، ومنها ما أصاب الأمة من تواكل وكسل، وفهمت الأجيال الجديدة أهميّة الأخذ بالأسباب والسعي للتغيير، غير أنّ الإيغال في هذا قاد إلى التعلّق الذي أدّى بدوره إلى الغفلة عن خالق الأسباب، فوقع البعض في غلوّ آخر قد يكون أخطر من سابقه.

ومن الكتابات التي تألّق فيها بديع الزمان -بالرغم من ظروف الموقع زماناً ومكاناً- موضوع التوكّل تحقيقاً وممارسة، والمتعلّقون بالظاهر قد يصدرون حكماً على الرجل يضعونه به ضمن التصنيف التقليدي المعروف، فيهضمونه حقه وحق الأجيال في المعرفة والوفاء، وكأنه خشي أن يُفهم خطأ بتركيزه على معاني العبادة والعبودية، فراح يسرع إلى وضع الأمور في نصابها، تارة بتقييد كلامه في إطلاق سبق، وتارة بإلحاق التقييد والاستدراك في الموضع نفسه، وهذا هو الذي سلكه مع مفهوم التوكل، حيث يربطه بمفاهيم عديدة يأخذ بعضها بحجز بعض: ''فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين''.[72] ويوضح سعادة الدنيا بالتوكل فيقول: ''نيل مقام التوكل ودرجة الرضى ومرتبة التسليم، هذه المقامات هي السبيل إلى تذوّق السعادة الحقيقية، والتسلية الخالصة، واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة''.[73] ويوضّح سبل الوصول إلى هذه السعادة فيقول: إن المتوكل'' يسلّم أعباءه الثقيلة أمانة في يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثَمّ يستطيع أن يرتفع طائراً إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين''.[74]

وبعد التقرير والتأكيد يستدرك قائلاً: ''ولا تظنّن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية،

ينبغي مراعاتها ومداراتها، أما التشبّث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ، فطلب المسبَّبات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحقّ سبحانه وتعالى، وأن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده''.[75]

إنّ تشبيه التسبب بالدعاء لا يضفي الشرعية على اقتفاء الأسباب فحسب، بل يرغب في اتباعها ترغيب الشارع في الدعاء، ولكنه في الوقت نفسه ينفي تعلّقاً يفضي إلى الاعتقاد فيها وفي تأثيرها، ويكون التوجه في الحالين لله وحده.

وفي جواب عن التخلّف، يبيّن أهمّ أسبابه بما يدعو إلى الإعجاب بنصاعة فكر يسوقه في أسلوب -إذا اقتُطع من السياق- لا ينبئ إلا عن مفكّر ندَبَ نفسه لتشريح واقع الأمة والهداية إلى أسباب الرقيّ والسعادة في الدنيا، بما ينأى به عن صورة تُرسم له، توحي بشخص متبتّل يلهج بالذكر والأوراد.

وحين نفهم من خلال كلامه أن السبب الأوّل في ذلك هو الفتور في السعي والتخلّف عن الكسب استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿وَاَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾،[النجم:٣٩] فإن رسالته تكون قد وصلت، ولكنه حرص على إيصالها في أسرع فترة وأبهى حلة بتعبيره عما سبق ''بانطفاء جذوة شوق الكسب''[76] الذي يرجع بدوره إلى طائفة من الوعّاظ الجاهلين ''الذين لم يدركوا أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر يتوقف على الرقي المادي، ولم يتفهّموا قيمة الدنيا من حيث هي مزرعة الآخرة... ولم يفرّقوا بين قناعتين بعيدتين عن بعضهما: القناعة في التحصيل والكسب، وهي المذمومة، والقناعة في المحصول والأجرة، وهي الممدوحة، ولم يتبيّنوا البون الشاسع بين التواكل الذي هو عنوان الكسل، والتوكل الذي هو صدفة الإخلاص الحقيقيّ.''[77]

ولا يكتفي بما سبق حتى يزيد التواكل توضيحاً والتوكل بياناً وجلاء، والعلاقة الدقيقة بينهما كما ينبغي لها أن تستقرّ، فيقول عن التواكل: ''هو تكاسل في ترتيب المقدمات، وهو في حكم التمرّد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى، والآخر (أي التوكل): هو توكّل إيماني في ترتب النتائج، وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج شريطة عدم التدخّل في التقديرات الإلهية.''[78]

وعن السبب الثاني للتخلّف يذكر أمراً أزعم أنه يحوز سبقاً -وينبغي أن يلقى ذكراً وثناءً- بالتنبيه إليه، وذلك إذا استحضرنا عوائق الزمان والمكان، وظروف عزلة تُبعد عادة عن مجاراة وإحاطة، وتصنع وعياً قاصراً تفلّت منه الرجل بالإشارة إلى أمر

استدركته الدعوات المشابهة لاحقاً بعد الخبرة والتجربة، يقول: ''إن الطريق المشروع للمعيشة والسبيل الطبيعي والحيوي إليها هو الصناعة والزراعة والتجارة، أما الطريق غير الطبيعي فهو الوظيفة الحكومية والإمارة بأنواعها، وعندي أن الذين جعلوا مدار معيشتهم الإمارة -وإن تسمّت بأي اسم كان- فهم في زمرة الشحاذين العاجزين المتسوّلين...''[79]

وفي تلخيص آخر بديع يفكّ به الاشتباك بين التوكل والتواكل يقول: ''فلكل مرتبة من هذه المراتب درجتها وقيمتها ومقامها، لا تتزاحم هذه المراتب، وإنما تشتبك فينشأ الاشتباه، ولا بدّ من التمييز، إذ كما لو مُزجت دائرة الأسباب بدائرة الاعتقاد تتولّد البطالة والكسل تحت اسم التوكّل، أو ينتج مذهب الاعتزال باسم مراعاة الأسباب، فإن المراتب والدوائر هذه إن لم تُفرز تنتج مثل هذه النتائج''.[80]

* * *

الهوامش:

[*] د.محمد عبد النبي: جامعة الجزائر ١ (بن يوسف بن خدة)، كلية العلوم الإسلامية.

[1] الكلمات: ٥٢/١.

[2] الكلمات: ٤١٣/١ بتصرف وانظر أيضا: المثنوي ٣٤١/٦.

[3] الكلمات: ٢٩٢/١ بتصرف يسير.

[4] الكلمات: ٣٥٧/١.

[5] الكلمات: ٥٥٨/١.

[6] المصدر السابق.

[7] المصدر السابق.

[8] المثنوي العربي النوري: ٣٦٣/٦.

[9] الشعاعات: ٨٣/٤.

[10] الشعاعات: ٢٢٠/٤.

[11] المكتوبات: ٥٤٠/٢.

[12] الكلمات: (٥٥٨/١) وانظر ٢٩/١.

[13] الكلمات: ٢٨/١-٢٩.

[14] الكلمات: ٣٤/١.

[15] الكلمات: ٤١١/١.

[16] إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز: ٣٥/٥.

[17] الكلمات: ١٣/١.

[18] الكلمات: ١٣/١-١٤.

[19] الكلمات: ١٩٥/١.

[20] الكلمات: ٤١١/١.

[21] المكتوبات: ٢٩٠/٢.

[22] المكتوبات: ٥٣٥/٢.
[23] المصدر نفسه.
[24] المثنوي العربي النوري: ٣٦١/٦.
[25] المكتوبات: ٥٣٦/٢.
[26] الملاحق: ١٠٢/٧.
[27] سيرة ذاتية: ١٥٣/٩.
[28] الكلمات: ٣٩٠/١.
[29] الشعاعات: ١٠٦/٤.
[30] اللمعات: ١٦٨/٣ وانظر: ٥٦٢/٣.
[31] اللمعات: ٥٦٢/٣.
[32] الشعاعات: ٦٨٦/٤.
[33] اللمعات: ٤٣٧/٣.
[34] المكتوبات: ٣٥١/٢.
[35] المكتوبات: ٣٥١/٢.
[36] المثنوي العربي النوري: ٢٥٧/٦.
[37] المكتوبات: ٣٦٢/٢-٣٦٣.
[38] المكتوبات: ٣٦٣/٢.
[39] المكتوبات: ٥٨٢/٢.
[40] المكتوبات: ٥٩٠/٢.
[41] الكلمات: ٤١/١.
[42] الملاحق: ٦٧/٧.
[43] الكلمات: ٣٥٧/١.
[44] المصدر السابق، وانظر أيضا الملاحق: ٢٤٢/٧.
[45] الكلمات: ٧٦١/١.
[46] المكتوبات: ٥١٣/٢.
[47] الكلمات: ٦٤٢/١.
[48] الكلمات: ٣٦٠/١ بتصرّف يسير.
[49] الكلمات: ٤٤٨/١.
[50] إشارات الإعجاز: ٣١/٥.
[51] المثنوي العربي النوري: ١٠/٦.
[52] المثنوي العربي النوري: ٢٩٣/٦.
[53] المثنوي العربي النوري: ١٠/٦- ١١ المدخل.
[54] إشارات الإعجاز: ٣١/٥.
[55] المكتوبات: ٥٨٢/٢.
[56] المصدر نفسه.
[57] صيقل الإسلام: ٥١٤/٨.
[58] صيقل الإسلام: ٥٣١/٨ بتقديم وتأخير.
[59] سيرة ذاتية: ٩٨/٩.

[60] صيقل الإسلام: ٣٩٥/٨.
[61] صيقل الإسلام: ٣٩٤/٨.
[62] صيقل الإسلام: ٣٩٥/٨.
[63] المصدر نفسه.
[64] صيقل الإسلام: ٤٢١/٨.
[65] المصدر نفسه.
[66] صيقل الإسلام: ٥١٤/٨.
[67] المصدر نفسه.
[68] صيقل الإسلام: ٥٣٥/٨.
[69] سيرة ذاتية: ٧٨/٩.
[70] صيقل الإسلام: ٤٥٣/٨، وانظر: ٨٤/٩.
[71] صيقل الإسلام: ٣٩٤/٨.
[72] الكلمات: ٣٥٣/١.
[73] المكتوبات: ٥٩٢/٢.
[74] الكلمات: ٣٥٢/١.
[75] الكلمات: ٣٥٣/١.
[76] صيقل الإسلام: ٤٠٢/٨.
[77] صيقل الإسلام: ٤٠٣/٨.
[78] المصدر السابق.
[79] صيقل الإسلام: ٤٠٣/٨.
[80] صيقل الإسلام: ٦٠/٨.

المقاصد العملية للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي

د.عبد الكريم عكيوي *

إن الناظر في سيرة بديع الزمان سعيد النورسي والمتأمل في أيامه وحياته، ليستوقف نظره ويثير انتباهه ما كان عليه هذا الرجل من علو هِمَّة وتجرد لخدمة غاية جعلها هدفا لحياته، وانقطاع تام لنشر أفكار خير صحتها وفائدتها. فقد علا رحمة الله عليه بهمته وسعة فكره وبعد نظره وقوة إيمانه على أهل زمانه، وخلص عقله وقلبه من أسر عصره ومحن أوانه وإبانه. فقد رأى العالم الإسلامي يضطرب بناؤه وتهتز أركانه بسبب رياح عاتية هبت عليه من كل جانب تثير نقعا يدخل الحزن والأسى على القلوب فيزين لها الإلحاد والزندقة، ويحرك فيها نوازع الشر والتمرد على الخير. فاضطربت الأفكار وطاشت العقول وزاغت الأبصار، إلا القليل النادر ممن رحم الله. وزاد الأمر إدبارا وشدة لما تولى أمور المسلمين أهل الإلحاد والزندقة فحملوا معاول الهدم وجردوا سيوفهم لقطع دابر الخير واقتلاع جذور الإيمان والصلاح من القلوب.

ومن يطالع رسائله يلفه معبرا أمينا وناطقا صادقا عن أقوال أمته وأهل زمانه. ثم إنه قد اكتوى بنار الفساد والإلحاد وناله من الأذى والبلاء ما قل نظيره في عصره وزمانه. وكانت ظروف وحدته في السجون والمنافي وآلام غربته في غيابات الأصقاع النائية، وأحزانه في القفار الخالية في أرجاء البلاد التركية وغيرها من الأمصار السيبيرية (نسبة إلى سيبيريا) الروسية، (كانت) فتحا لعقله وبصيرته ومثيرا لفكره وأنوار قلبه.

وإن المرء ليعجب كيف اخترق هذا الرجل كل الأسوار المنيعة والحواجز المحكمة التي وضعها أهل الفساد والإلحاد وهم يحسبون أنهم قد ألجأوا أهل الخير والصلاح إلى ركن قصي، فليس لهم من حيلة إلا الخضوع لسلطان المدنية الحديثة التي لا تعرف الإيمان والخير، ومن أبى فليس أمامه إلا الموت حسرة وألما.

ومن ينظر بميزان الحقائق المادية، ير أن بديع الزمان النورسي ليس له مال ولا سلطان، ولا قوة ولا منعة، فمثل حاله لا يحمل صاحبه إلا على التسليم لقدره والاستسلام لواقع حاله من غير تردد ولا مقاومة ولا مغالبة، وما كان خصومه يجدون صعوبة في إذايته وتعذيبه، لأنه ليس له من القدرة المادية والسلطة الدنيوية ما يردعهم. ولهذا فقد ذاق رحمة الله عليه جميع أصناف العذاب الدنيوي، من الفقر والحاجة، والسجن والأسر وما فيهما من آلام فراق الأهل والأحبة، والنفي والإقامة تحت حراسة الشرطة وعيون الحكام لكن ضعفه هذا ما لبث أن تحول إلى قوة لا تعبأ بمعاناة السجون وآلام الغربة وأحزان المنافي، فلا تزيده خطوب الدهر وآلامه إلا إقداما على الخير وقوة على الصلاح والإصلاح، فيجد اللذة في أحضان العذاب، فتسمو نفسه في مراتب الكمالات البشرية، فتتحول آلام جسده إلى لذات غامرة يسمو بها على النكبات والمحن. فكان كلما أحاطت به المحنة من كل جانب وأسرت جسده قوة الظالمين وأنزلت عليه العذاب والآلام، وجد الأنس والسلوان، وذاق لذة تنسيه عذاب جسده. لنستمع إليه رحمة الله عليه في مقام المحنة والشدة يعاني آلام الوحدة وغصة الوحشة، وقد فارق كل صديق ونأى عن كل قريب: ''بينما كنت وحيدا بلا معين في 'بارلا' تلك الناحية التابعة لمحافظة 'اسبارطة' أعاني الأسر المعذب المسمى بالنفي، ممنوعا من الاختلاط بالناس، بل حتى المراسلة مع أي كان، فوق ما كنت فيه من المرض والشيخوخة والغربة، فبينما كنت اضطرب من هذه الحالة وأقاسي الحزن المرير، إذا بنور مشع من الأسرار اللطيفة للقرآن الكريم ومن نكاته الدقيقة، يتفضل الحق سبحانه به علي برحمته الكاملة الواسعة، فكنت أعمل جاهدا بذلك النور لتناسي ما أنا فيه من الحالة المؤلمة المحزنة حتى استطعت نسيان بلدتي وأحبتي وأقاربي''[1] وكان من آلامه في النفي بلوغه نبأ وفاة ابن أخيه وتلميذه عبد الرحمن، قال رحمه الله: ''وبعد مضي حوالي شهرين وأنا أعيش في ذلك الأمل... إذا بي أفاجأ بنبأ وفاته، فيا أسفاه ويا حسرتاه، لقد هزني هذا الخبر هزا عنيفا... وأورثني حزنا شديدا وألما عميقا... كنت أقول إن نصف دنياي الخاصة قد انهد بوفاة أمي، بيد أني رأيت أن النصف الآخر قد توفي أيضا بوفاة عبد الرحمن، فلم تبق لي إذن علاقة مع الدنيا... فضياع مثل هذا الضياع -باعتبار الإنسانية- لهو ضياع محرق مؤلم لأمثالي. ورغم أنني كنت أبذل الوسع لأتصبر وأتحمل ما كنت أعانيه من الآلام، إلا أنه كانت هناك عاصفة قوية جدا تعصف أحيانا بأقطار روحي، فلولا ذلك السلوان النابع من نور القرآن الكريم يفيض علي أحيانا، لما كان لمثلي أن يتحمل أو يثبت''.[2]

ولنستمع إليه أيضا يحكي آلام النفي في "بارلا": "كنت أذهب وأسرح في وديان بارلا"... حاملا تلك الهموم والآلام المحزنة، فكانت تمر من أمامي لوحات الحياة السعيدة ومناظرها اللطيفة التي كنت قد قضيتها مع طلابي... فكلما كانت تمر تلك اللوحات أمام خيالي، كانت تسلب من شدة مقاومتي وتفت في عضدي، فضلا عما أنا فيه من الشعور المرهف وسرعة التأثر النابعة من الشيخوخة والغربة. ولكن على حين غرة انكشف سر من أسرار الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.القصص:٨٨ انكشف سر هذه الآية انكشافا بينا بحيث جعلني أردد مرتين: "يا باقي أنت الباقي يا باقي أنت الباقي"، وبه أخذت السلوان الحقيقي. أجل. رأيت نفسي بسر هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى...

الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمسا وخمسين سعيدا ماتوا وفنوا في حياتي وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة.

الثانية: رأيت نفسي كالكائن الصغير جدا، بل كالنملة تدب على وجه هذا العصر الذي هو بمثابة قبر للجنازة العظمى لمن هو بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام.

أما الثالثة: فقد تجسمت أمام خيالي بسر "الآية الكريمة" موت هذه الدنيا الضخمة مثلما يموت الإنسان، ومثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة، وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾التوبة:١٢٩ وأمدني بنور لا يخبو فبدد ما كنت أعانيه من الحزن... واهبا لي التسري والتسلي الحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه ما دام الله سبحانه وتعالى موجودا فهو الوكيل وهو البديل عن كل شئ، وما دام باقيا فهو كاف عبده، حيث إن تجليا من تجليات نوره العميم، يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية -أيما حياة- بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن انهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر".[3]

وإن هذه المواقف العظيمة وغيرها، لتدل على أن هذا الرجل كان له ميزان لا كغيره من موازين عامة الناس في عصره وزمانه، وأنه رحمة الله عليه قد وضع أمامه غاية كبرى وهدفا ساميا يهون دونهما كل متاع الدنيا الفانية.

فقد وقف نفسه وعمره على إبراز حقائق القرآن وإظهار نور الإيمان لينال بذلك رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الدار الآخرة.

ولكن ما حيلته لبلوغ غايته، وقد وقف دونه ركام من المعوقات وأوصدت في وجهه الأبواب ومنعت أمامه السبل والمسالك، واجتمعت قوى الشر على حربه، وسيطرت الغفلة على أهل الحق فلا تناصر بينهم ولا تعاون!

وكيف يخلص إلى غايته وخصومه قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا قبضتهم على البلاد والعباد، وجردوا حملاتهم لتزيين الباطل في النفوس، ونصبوا المحاكم والمشانق لمن خالف سبيلهم أو رام دعوة الناس إلى الخير وإصلاح البلاد وإرشاد العباد!

فإذا كان إنقاذ الإيمان غايته، وإظهار حقائق القرآن سبيله، فإن إذاية خصومه تناله لا محالة، فكيف تحتمل نفس إنسان ضعيف القوة إذاية خصوم كثيري العدد والعدة؟ ولما كان الأمر كذلك، فقد اختط رحمه الله لنفسه ولأصحابه ولكل من كان حاله مثل حاله، ممن يروم إنقاذ الإيمان ونشر الفضيلة، طريقا سالكا، جمع معالمه وأوضح مسالكه في رسائله وسار عليه طول حياته. فهو طريق سالك إلى مرضاة الله ﷻ، يعين صاحبه على احتمال خطوب الدهر والصبر على معاناة مسالك الحياة الوعرة، ويجد فيه العزاء والسلوان وهو يواجه المحن والمصائب الدنيوية، إنه طريق السلوك والسير نحو مراتب الكمالات الإنسانية، ولم يكن الشيخ بديع الزمان النورسي بدعا في هذا الطريق وإنما كان له فضل تجديده والتعبير الدقيق الواضح عن معالمه ومسالكه، وتقويمه وتصحيحه فلا يخرج عن قواعد الشريعة وأصول الملة. قال رحمه الله في التعبير عن هذا الطريق: ''هناك تحت عناوين 'التصوف' و 'الطريقة' و 'الولاية' و 'السير' و 'السلوك' حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة، أعلن عنها كثير من علماء أرباب الكشف والأذواق وتناولوها بالدرس والتمحيص والتعريف، فكتبوا آلاف المجلدات حولها فأخبروا الأمة وأخبرونا بها، جزاهم الله خيرا كثيرا. ونحن هنا سنبين بضع رشحات في ضوء ما تلجئنا إليه الأحوال الحاضرة، فهي بمثابة بضع قطرات من بحر تلك الحقيقة الزاخر''.[4] فبين رحمه الله هنا أن طريقته في السلوك راعى فيها أحوال عصره وزمانه وأمانة إنقاذ الإيمان ونشر الفضيلة في الحياة الدنيا وبلوغ مرضاة الله ﷻ في الدار الآخرة. فالسلوك عنده ليس لاتقاء شر الناس واعتزال الحياة واتقاء فتنها، والترويح عن النفس من مفاسدها وشرورها، وإنما السلوك عنده له مقاصد عملية

يبتغي منه حمل نفسه على السير في طريق التكليف داعيا إلى الخير من غير أن يصده عن ذلك مكايد الشيطان وأعوانه، ومن غير أن تنال من عزمه محن الدنيا وعذابها، حتى يدركه الموت وهو صابر محتسب مجاهد عامل في الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر والفساد. فطريقة السلوك غايتها التزام العمل بالشريعة والقيام بالتكاليف وأداء الوظائف والأعمال وعمارة الدنيا والدعوة إلى الإصلاح والخير، واكتساب القوة على مواجهة التحديات واقتحام حواجز الشر. وقد نص على الغاية العملية في الجملة لطريقة السلوك فقال رحمة الله عليه: ''لا ينبغي أن تتحول الطريقة والحقيقة لدى الصوفيين من كونهما وسيلتين، فيصيران غايتين، لأنه بذلك تنحسر الأعمال الدنيوية الشرعية المحكمة وآداب السنة السنية العملية إلى الدرجة الثانية من اهتمام السالك وتصبح صورية وشكلية''[5] ولهذا نبه رحمه الله في أكثر من موضع من رسائله إلى أن طريقة السلوك يجب أن توافق قواعد الشريعة وأصولها الواضحة في الكتاب والسنة. يقول رحمه الله: ''إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها، والاتباع يعني تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله... فضلا عن أن اتباع السنة وتحري شرع الله في شؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكر الشرع هذا يؤدي إلى تذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه''.[6]

ولما عرض رحمة الله عليه لمذهب ''وحدة الوجود'' الذي يحتج له أصحابه بأن الموجود الحق هو ''واجب الوجود'' سبحانه وأن سائر الموجودات ظلال باهتة وأوهام زائفة لا تستحق صفة الوجود، عقب على ذلك بقوله: ''أن هناك محاذير ومخاطر عدة لهذا المشرب (وحدة الوجود)، أولها وأهمها: أن أركان الإيمان ستة: فهناك، عدا ركن الإيمان بالله، أركان أخرى كالإيمان بالآخرة، فهذه الأركان تستدعي وجود الممكنات، أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي''[7] وذكر رحمه الله وجوها كثيرة من الانحراف في طريقة السلوك من ذلك مثلا قوله عن طائفة من السالكين: ''فهم المنجذبون لنشوة الأذواق البراقة للطريقة والحقيقة، فلا يبالون بالحقائق الشرعية التي هي أرقى من مستوى مذاقهم، ويعتبرها أحدهم غير ذات مذاق لعجزه عن بلوغها، فيؤديها صورية شكلية، وهكذا يبلغ به الأمر تدريجيا إلى أن يظن أن الشريعة مجرد قشر ظاهري، وإن ما وجده من الحقيقة هو الأساس والغاية والقصد، فيقول: حسبي ما وجدته، فيقوم بأفعال مخالفة لما يأمر به

الشرع''.[8] فطريقة السلوك التي تحمل السالك على ترك العمل واعتزال حياة التكليف ليست طريقة، فالتربية السلوكية وسيلة إلى غاية، وطريق إلى هدف ومقصد. فهذا أساس التربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي ومنطلقها على جهة العموم والإجمال. وأما على جهة التفصيل فإن التربية السلوكية لهم مقصد أصلي عام، وتفرعت عنه مقاصد جزئية تبعية.

"المقصد الأصلي للتربية السلوكية"

إن المقصد الأسمى والهدف الأعلى لطريق السلوك هو الحصول على نعيم الآخرة الذي يتوقف على بلوغ مرضاة الله ﷻ. وفي سعي السالك لبلوغ هذا المقصد تحصل له مقاصد أخرى عن طريق التبعية واللزوم.

فبلوغ مرضاة الله ﷻ يحصل منها محبة الله تعالى وهي قمة اللذات ورأسها. ومحبة الله تعالى يحصل منها الرقي المعنوي والسمو في درجات الإيمان والعلو في مراتب اليقين، والرقي في درجات الإيمان يحصل به الأنس المعنوي في الحياة الدنيا، والأنس المعنوي في الدنيا يحصل منه لذة الحياة الدنيا. وكل مقصد من هذه المقاصد التبعية تلازمه فوائد أخرى عظيمة ومقاصد جليلة، تجتمع كلها في مصلحة الدارين.

ونقف من هذه المقاصد التبعية على أصولها الجامعة:

١ـ محبة الله عز وجل وما يلازمها من لذة الحياة الدنيا:

لقد كان للشيخ بديع الزمان النورسي في هذه المسألة نظر دقيق عميق، سار فيه على خلاف المألوف المشهور عند أهل السلوك. فإذا كان الأصل المقرر عندهم أن محبة الدنيا وطلب اللذة من نعيمها مناف للسلوك، فإن بديع الزمان النورسي قد خالف ذلك، وذهب إلى أن محبة الدنيا وطلب لذاتها يلازم محبة الله ﷻ وأن محبة الدنيا طريق من طرق السلوك إلى الله تعالى وكسب نعيم الآخرة بعد نعيم الدنيا. لكن هذه المحبة التي يتوجه بها السالك إلى الدنيا ولذاتها، محبة خاصة وعلى وجه خاص. فهذه المحبة أساسها وسببها اجتماع الذكر والتفكر، أي ذكر الله تعالى والتفكر في آلائه ونعمه وخلقه، ولا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر، فمن اقتصر على الذكر دون التفكر لم تحصل له لذة الحياة ونعيم الدنيا، ومن اقتصر على التفكر دون الذكر أوشك أن يخرج إلى طرق الإلحاد والزندقة بالمرة. يقول رحمة الله عليه: ''إن مفاتيح هذا السير والسلوك القلبي ووسائل التحرك الروحاني إن هي إلا 'الذكر' و 'التفكر' فمحاسن الذكر وفضائل التفكر لا تحصى... إن أي إنسان كان لا بد أن يبحث عن

سلوان... يخفف عنه ثقل هذه الحياة'' وحيث إن ما يهيئه المجتمع الحضاري من الوسائل المسلية والأنس بالآخرين قد تمنح واحدا أو اثنين من عشرة من الناس أنسا مؤقتا، بل ذا غفلة وذهول، والثمانين بالمائة من الناس إما أنهم يحيون منفردين... أو ساقتهم هموم العيش إلى أماكن نائية موحشة أو ابتلوا بالمصائب... فالسلوان الكامل لأمثال هؤلاء، والأنس الخالص لهم ليس إلا في تشغيل القلب بوسائل الذكر والتفكر... في الأصقاع النائية وبين شعاب الجبال وعبر مهاوي الوديان يتوجه إلى قلبه مرددا 'الله، الله' مستأنسا بهذا الذكر ومتفكرا فيما حوله من الأشياء التي يتوجس منها خيفة وتوحي إليه بالوحشة، فإذا بالذكر يضفي عليها الأنس والمودة، وإذا بالذكر يقول: إن لخالقي الذي أذكره عبادا لا حد لهم منتشرين في جميع الأرجاء... إذن فأنا لست وحيدا، فلا داعي للاستيحاش ولا معنى له، وبذلك يذوق معنى الأنس في هذه الحياة الإيمانية، ويلمس سعادة الحياة فيزداد شكره لربه''.[9] فالغاية التي ينتهي إليها السالك والمقصد الذي يحصله هو لذة الدنيا والاستمتاع بنعمها وخيراتها وتذوق محاسنها وجمالها مع الشكر عليها، ومن لوازمه محبة المنعم الجواد مع ما يصاحبها من لذة عظيمة.

وسمى بديع الزمان النورسي مسلك الذكر ومسلك التفكر ''السير الأنفسي'' و''السير الأفاقي'' قال رحمه الله: ''فالسير الأنفسي يبدأ من النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج ويحدق في القلب مخترقا أنانيته، ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة. ومن هنا ينفذ إلى الآفاق الكونية... أما النهج الثاني 'وهو ما سماه السير الآفاقي' فيبدأ من الآفاق، ويشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة... فيصل إلى مقصوده ومنتهى أمله''.[10] ومن أصول هذه المسألة في السنة النبوية ما ورد في الحديث: ''أمرني ربي ﷻ بتسع: خشية الله في السر والعلن، والعدل في الغضب والرضا، والشكر في الفقر والغنى، وأن أعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرة'' وفي هذا يقول أيضا: ''إن السالك المنشغل بمراقبة قلبه، يفتح بهذا التفكر آفاقا واسعة أمام نظره وقلبه، فيشاهد ويراقب بفؤاده ولطائفه كافة الكائنات بكل عظمتها، ابتداء من الذرات إلى السيارات، ويرى بكل وجد في تلك العوالم تجليات أسماء الله تعالى وصفاته الجليلة بألف تجل وتجل، وبهذا يرى ويحس بعلم اليقين وعين اليقين بل بحق اليقين أنه في مسجد لا منتهى له، يدخله ما لا تستوعبه الأرقام من الجماعات،

الذاكرين خالقهم بكل خشوع وشوق وود ونشوة. ويرددون بصوت واحد تتخلله الألحان العذبة والأنغام المنسجمة والإيحاءات المتناسقة بشتى اللغات معا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر''.[11]

ومن وجوه مقصد محبة الله وحصول لذة الحياة الدنيا وزينتها، أن العادات اليومية التي ترتبط بحاجات النفس وشهوات الجسد لا تضيع من السالك وإنما يلازمها لما يجد فيها من لذة زائدة على لذتها الأصلية، لأن الذكر مع التفكر يزيدها بهاء وجمالا ويلبسها صفة العبادة والقربة، فتجتمع لذة الدنيا بلذة العبادة، يقول رحمه الله وهو يذكر فوائد الطريقة والتربية السلوكية: ''جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات، وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأسمال عمره من الحياة بدقائقها، وجعلها بذورا تتفتح على زهرات الحياة الأخروية وسنابلها. وذلك بدوام الذكر القلبي والتأمل العقلي، مع الحضور القلبي الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة والنية الصافية...''[12] وفي هذا المعنى ورد في الحديث: ''وفي بضع أحدكم صدقة'' الحديث. ''وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.''

ويزيد رحمة الله عليه هذا الأمر تفصيلا ليثبت أن التربية السلوكية من ثمراتها حصول نعيم الدنيا ولذة الحياة في أعلى مراتبها وأبهى صورها، وحصول لذة العبادة والطاعة لله ﷻ. يقول في هذا المعنى أيضا: ''إن الحياة التي وهبها الله للإنسان هي رأسمال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية. وهي كنز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة، ومن هنا فالمحافظة على الحياة الدنيا ومحبتها من هذه الزاوية وتسخيرها في سبيل الله ﷻ يجعلها تعود إلى الله سبحانه. إذ أن محبتها والشغف بها على هذه الصورة ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى، إذ هي في هذه الحالة تكون مزرعة للآخرة ومرآة لأسماء الله الحسنى، ورسائل ربانية إلى الوجود ودار ضيافة مؤقتة. فاجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الإسمي، أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها، ولا تقل لشيء ''ما اجمل هذا'' بل قل ''ما أجمله خلقا'' وإياك أن تترك ثغرة يدخل منها حب لغير الله في قلبك. وهكذا فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفا... فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالا مشروعاً، وشكراً لله في اللذة نفسها وفكر في آلائه بالمحبة عينها''،[13] ويقول أيضا: ''اجعل عينيك للحياة في سبيل الله ولوجهه الكريم. فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم يعني المحبة لاسم الرحمن واسم المنعم من

الأسماء الحسنى... أما محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية... فمن هذه الزاوية تصبح هذه المحبة لله''.[14]

فانظر كيف اجتمعت محبة متاع الدنيا بمحبة الله ﷻ، وكيف تجتمع للسالك لذة الدنيا الشهية بلذة محبة الله تعالى وطاعته ونيل رضوانه. وكلما زاد السالك في تناول لذات الدنيا زادت محبته لخالق الدنيا والمنعم بخيراتها. ''وإذا تناول الإنسان نعمة لذيذة ثم أدى شكره عليها، فإن تلك النعمة تصبح -بواسطة ذلك الشكر- نورا وضّاءً له وتغدو ثمرة من ثمار الجنة الأخروية، وفضلا عما تمنحه من لذة، فإن التفكر في أنها أثر من آثار التفات رحمة الله الواسعة وتكرمة منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذة عظيمة دائمة وذوقا ساميا لا حد له... لكن إن لم يشكر المنعم عليه ربه على النعمة واستنكف عنها فإن تلك اللذة المؤقتة تترك بزوالها ألما وأسفا وتتحول هي نفسها إلى قاذورات. فالأرزاق الزائلة تثمر بالشكر لذائذ دائمة... أما النعم الخالية من الشكر فإنها تنقلب من صورتها السامية الجميلة الزاهية إلى صورة دنيئة قبيحة ذميمة، ذلك لأن الغافل يظن أن مآل الرزق بعد اقتطاف اللذة المؤقتة منه هو الفضلات''.[15] وهذا وجه ولوع الشيخ بديع الزمان النورسي في رسائله وتأملاته بالطبيعة والكون، وما فيهما من أصناف الخلائق والنعم والخيرات، لأنه يجد فيه لذة التمتع بجمالها ولذة محبة خالقها وبارئها ﷻ. لقد تلذذ رحمة الله عليه بجمال المخلوقات كبيرها وصغيرها، من الأجرام والكواكب والسماوات، والنجوم والأرضيين، إلى الثمار والخضر والذرات، وكل ما خلق الله ﷻ.

ولنستمع إليه في بعض تأملاته في الكون من حوله لندرك معه لذة محبة الخلق الممتزجة بلذة حب الخالق ﷻ.

يقول رحمه الله: ''في إحدى الليالي كنت على ارتفاع عظيم في وكر منصوب على قمة شجرة القطران المرتفعة على قمة من قمم جبل ''جام'' نظرت من هناك إلى وجه السماء الأنيس الجميل بمصابيح النجوم، فرأيت أن في القسم الوارد في الآية الكريمة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾[التكوير:١٥-١٦] نورا ساميا من أنوار الإعجاز، وشاهدت فيه سرا بليغا لامعا من أسرار البلاغة.[16]

ويقول: ''لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيدا فريدا، وربما يأتيني ضيف في كل عشرين يوما أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيدا في سائر الأوقات، ففي هذه الجبال

الموحية بالغربة، وعندما يرخي الليل سدوله، فلا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين، رأيتني، وقد غمرتني خمسة ألوان من الغربة.''[17]

ويقول: ''كنت جالسا ذات يوم في الطابق العلوي من فندق شهر عقب إطلاق سراحنا من سجن ''دنيزلي'' أتأمل فيما حولي من أشجار الحور والصفصاف الكثيرة في الحدائق الغناء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلى بحركاتها الراقصة الجذابة تتمايل بجذوعها وأغصانها وتهتز أوراقها بأدنى لمسة من نسيم فبدت أمامي بأبهى صورها وأحلاها وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل. مست هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبي المحزون من فراق إخواني، وأنا مغموم لانفرادي وبقائي وحيدا، فخطر على البال فجأة موسما الخريف والشتاء وانتابتني غفلة إذ ستتناثر الأوراق وسيذهب الرواء والجمال، وبدأت أتألم على تلك الصور الجميلة، وأتحسر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما شديدا حتى اغرورقت عيناي واحتشدت على رأسي أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الستار المزركش البهيج للكائنات''.[18]

ويقول: ''بينما كنت على قمة جبل ''بارلا'' أيام منفاي، أسرح النظر في أشجار الصنوبر والقطران التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها إذ هب نسيم رقيق حول ذلك الموضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة، واهتزازات نشوة وتهليل، إذا بذلك المشهد البهيج السار يعتصر عبرا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لأحمد الجزري ترجمتها:

''لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، إنهم بجمالك يتغنجون ويدللون، وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبي على هذه الصورة يا رب إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معا إلى حسنك، ويتأملونه في روائع الأرض التي هي معرض صنعك، فهم كالدعاة الأدلاء ينادون من كل مكان من الأرض ومن السماوات العلى إلى جمالك.''[19]

ويقول في الكلمات: ''كنت سارحا في رفقة غربتي أسرح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل فقادتني قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة فرنت إليّ على استحياء من وسط هذا البساط الأخضر زهرة صفراء ساطعة النضرة وألوت جيدها إليّ تناغيني بود ومحبة، فأثارت مشاعري وأشواقي إلى زهرات مثلها التقيتها في ربوع بلدتي

''وان'' وفي سائر المدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرة بعد أخرى فانهال هذا المعنى فجأة على قلبي.''[20]

ويقول: ''إن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل المخلوقات اللطيفة ضمن الغروب والشروق، وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تدل على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موت تلك المصنوعات وزوالها بأسبابها الظاهرة يبين تفاهة تلك الأسباب وعجزها وكونها ستارا وحجابا ليس إلا، فيثبت لنا هذا الوضع إثباتا قاطعا أن هذه الخلقة والصنعة وهذه النقوش والتجليات إنما هي مصنوعات ومخلوقات متجددة للخالق ﷻ الذي جميع أسمائه حسنى مقدسة بل هي نقوشه المتحولة ومراياه المتحركة، وأختامه المتبدلة بحكمة.''[21]

ويقول: ''لو أن جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم لكل نوع جنس طعامه المستقل عن الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصته هي غير المدة للآخر... فقائد هذا الجيش الذي يزودهم وحده بالأرزاق المختلفة والأسلحة المتباينة والألبسة المتغايرة دون نسيانه أيا منها ولا التباس ولا حيرة لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما أن هذا المعسكر العجيب يرينا بداهة ذلك القائد الخارق، بل يحببه إلينا بكل تقدير وإعجاب كذلك معسكر الأرض، ففي كل ربيع يجند مجددا جيشا سبحانيا عظيما مكونا من أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته ورخصه الخاصة به من لدن قائد عظيم واحد جل وعلا بلا نسيان ولا اختلاط ولا تحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام.''[22]

ويقول: ''إن عقارب الساعة التي تعد الثواني والدقائق والساعات والأيام كل منها يناظر الآخر، ويأخذ منها حكم الآخر، كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فإن دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للساعة والسنوات التي تعد الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام كل منها يناظر الآخر ويماثله ويذكّر كل منها الآخر ويأخذ حكمه.

ووقت الفجر إلى طلوع الشمس يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم. وأما وقت الظهر فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف وإلى عنفوان الشباب وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا.

وأما وقت العصر فهو يشبه موسم الخريف وزمن الشيخوخة.

وأما وقت المغرب فإنه يذكر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف ويذكر أيضا بوفاة الإنسان.

وأما وقت العشاء فيذكر بغشيان عالم الظلام وستره آثار عالم النهار بكفنه الأسود.

وأما وقت الليل فإنه يذكر بالشتاء وبالقبر وبعالم البرزخ فضلا على أنه يذكر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمان.

وأما التهجد في الليل فإنه يذكر بضرورة ضياء ليل القبر، وظلمات عالم البرزخ وينبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي عبر هذه الانقلابات، ويعلن عن مدى أهلية المنعم الحقيقي للحمد والثناء.

وأما الصباح الثاني فإنه يذكر بصباح الحشر، نعم كما أن مجيء الصباح بعد هذا الليل ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مدى صباح الحشر وربيع البرزخ هو بنفس القطعية والثبوت.''[23]

ويقول في الكلمات: ''لقد أحصيت ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق بغلظ إصبعين، تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال، في بستان كرمه، فكانت مائة وخمسين عنقودا، وأحصيت حبات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين فتأملت وقلت: لو كانت الساق الهزيلة خزانة ماء معسل وكانت تعطي باستمرار لما كانت تكفي أمام لفح الحرارة ما ترضعه لمئات الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة، والحال أنها قد لا تنال إلا رطوبة ضئيلة، فليزم أن يكون القائم بهذا العمل قادرا عن كل شئ فسبحان من تحير في صنعه العقول.''[24]

فهذه كلها شواهد وأدلة من كلام النورسي ومن سلوكه اليومي العملي، على أن من المقاصد المرجوة من التربية السلوكية أن يذوق السالك لذة الحياة الدنيا وزينتها، وفي ذلك يشعر بالقرب من الله ﷻ وطاعته وعبادته فيزيده ذلك لذة إلى لذة.

ومعنى هذا أن التربية السلوكية عند هذا الرجل لا تنفصل عن الحياة الدنيا. ويتفرع عن هذا مقصد آخر هو مقصد عمارة الدنيا.

٢ـ مقصد عمارة الدنيا ومواجهة التحديات:

إن التربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي ليس من مقاصدها العزلة عن الناس بحجة أصل اتقاء الفتن والبعد عن مواطن التهم. وإنما القصد من السلوك عمارة الدنيا

والسعي في وجوه الخير وسبل الرشاد. يقول رحمة الله عليه: ''ينبغي ألا تتحول الطريقة والحقيقة لدى الصوفيين من كونهما وسيلتين فيصيران غايتين، لأنه بذلك تنحسر الأعمال الدنيوية الشرعية المحكمة وآداب السنة السنية العملية إلى الدرجة الثانية من اهتمام السالك وتصبح صورية وشكلية.''[25]

وواضح جدا من كلامه هذا أن طريقة السلوك إنما هي وسيلة إلى غاية، هي العمل في الحياة وعمارة الدنيا. فالتربية السلوكية هي التي تحمل المرء على الجد في العمل والاجتهاد في نشر الفضيلة والعناية بشؤون مجتمعه وأحوال أمته.

وهذا على خلاف المقرر عند عامة الصوفية من الانصراف عن أحوال الدنيا وهموم الناس. وقد روي أن رجلا من المحدثين سأل رجلا من الصوفية لماذا لم تشتهر تراجم الصوفية وأخبارهم كما اشتهرت أخبار المحدثين وتراجمهم، فأجابه بقوله:

وزاهد قد بات من ليلاه في شغل ولم يزعج بشكواه إنسان

ومعنى هذا أن المتصوف الزاهد الذي يحمل نفسه على العزلة والفراغ من مشاغل الحياة وهموم الدنيا، لا يعرفه أحد لأنه لا يخالط الناس ولا يهتم بقضايا المجتمع وأحوال الناس في معايشهم وهمومهم.

وبالنسبة للشيخ بديع الزمان النورسي فإن طريقته وسلوكه لا تستجيز له الغفلة عن الأحوال العامة لمجتمعه وهموم الناس في عصره. ومن ينظر في أخبار حياته يجده وقف عمره كله وجهده لخدمة هموم مجتمعه وعمارة البلاد وإرشاد العباد. ولما كان أمر ضمور الإيمان وظهور الإلحاد والشر معضلة عصره وزمانه وأصل المشكلات، فقد جعل حياته كلها وصرف جهده كله لإنقاذ الإيمان، فسعى في الأرض طول عمره عاملا مجتهدا محتملا المحن والشدائد. يقول: ''إن هذه الدنيا دار حكمة وعلم، وليست دار جزاء وثواب. ولذا فلا تطلب فيها اللذائذ والأذواق ولا تقصد فيها الكرامات، وإنما ينبغي فيها الالتزام بالشريعة لأن الحقيقة والطريقة وسيلتان لخدمة الشريعة'' فلا بد من ضبط أمور الحياة بقواعدها وسننها وقوانينها. وقد عرف عن بديع الزمان النورسي كراهية التعلق بالكرامات والخوارق، حتى إنه ذكر مرة لأصحابه أنه كان مرة مهموما مشغولا لأن شخصا أساء إليه وظلمه، فخشي رحمه الله إن نزلت مصيبة بهذا الرجل أو حل به بلاء -كما يحل بسائر البشر- أن ينسب ذلك إليه على انه من كراماته، ولهذا كان يدعو الله ﷻ ألا يصاب ذلك الرجل وقد أساء إليه وظلمه، بشر وأذى.

ومعنى ذلك أن المطلوب عمارة الأرض والسعي فيها بالتزام سنن الكون والحياة كما خلقها الله ﷻ. وإن عمارة الدنيا والسعي في خير البلاد والعباد يحتاج إلى علو همة ورباطة جأش وقوة شخصية وصبر وتحمل. ولهذا فإن من المقاصد المرجوة أيضا من التربية السلوكية حصول الأنس المعنوي والرقي في درجات الإيمان والعلو في مراتب اليقين.

٣ـ مقصد الأنس والرقي المعنوي:

يقول رحمه الله وهو يبين فوائد السلوك وغاية التربية السلوكية: ''التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ... فتندفع الأوهام والشبه عن النفس''[26] فمن فوائد السلوك أن يرتقي السالك درجات الإيمان ويعلو في مراتب اليقين. وتحت هذا الأصل أدخل الشيخ بديع الزمان النورسي معراج رسول الله ﷺ فقال: ''فمعراج الرسول هو سيره وسلوكه، وهو عنوان ولايته، إذ كما يعرج الأولياء إلى درجة حق اليقين من درجات الإيمان رقيا معنويا بالسير والسلوك الروحاني بدءا من أربعين يوما إلى أربعين سنة، كذلك الرسول وهو سلطان جميع الأولياء وسيدهم عرج بجسمه وحواسه ولطائفه جميعا لا بقلبه وروحه وحدهما... حتى بلغ أعلى المراتب وأسماها.. ورقي إلى العرش بسلم المعراج وشاهد ببصره بعين اليقين-في مقام قاب قوسين أو أدنى- أعظم حقائق الإيمان، وهو الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، ودخل الجنة وشاهد السعادة الأبدية، وفتح باب الجادة الكبرى وتركه مفتوحا ليمضي جميع أولياء أمته بالسير والسلوك الروحاني، أي بسير روحاني وقلبي في ظل ذلك المعراج كل حسب درجته.''[27]

ومعنى هذا أن المعراج النبوي هو التشخيص العملي لطريق السلوك والسير نحو منازل القرب. فالنبي قد ارتقى في المعراج إلى أعلى مقام لن يبلغه أحد بعده، لأن سلوكه وسيره سلوك مادي ومعنوي وحصل له الارتقاء المعنوي والمادي، ولهذا فهو سيد الأولياء وإمام المتقين وقدوة العارفين والسالكين. والاقتداء به في السلوك يقتصر على السلوك المعنوي الذي يحصل به الارتقاء المعنوي لعله يقترب من مقام رسول الله، أما بلوغه فإنه متعذر لأن الله تعالى خصه بالسلوك المادي والمعنوي، وأما غيره فليس له إلا السلوك المعنوي. فالرقي المعنوي سلوان للنفس وقوة لها فيرتفع السالك إلى المقام الإيماني الذي يكسبه لذة وقوة على احتمال المحن الدنيوية فيهون كل عذاب الدنيا أمامه فيتحقق فيه المثل القائل: ''من عرف ما قصد هان عليه ما وجد''.

وهذا المقام هو مرتبة الكمال البشري المرجوة من السلوك. يقول رحمه الله عن هذه الفائدة: ''العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم إن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليا لله وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي احسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.

وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها''.[28]

٤ــ مقصد اتقاء أمراض القلوب ونوازع النفس:

لقد كانت للشيخ بديع الزمان النورسي وقفات عميقة مطولة مع النفس الإنسانية وصفاتها وخصائصها وما أودع الله ﷻ فيها. وكانت له وقفات خاصة مع أمراض القلوب وأدوائها. وخلاصة ذلك أن النفس بحكم ما أودع فيها من الشهوات تميل إلى الشر واللهو والعبث كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾[آل عمران:١٤] وقد فصل بديع الزمان النورسي هذه المسألة في مناسبات كثيرة من رسائله، وخاصة في كلامه على أصل التعاون بين أهل الحق والإيمان، فذكر أن من أسباب العداوة بين المسلمين، الغفلة عن حقيقة النفس وصفاتها وعدم تعهدها بالتهذيب والرعاية والتزكية والصيانة. فقد يغتر العالم بعلمه وصاحب الحق بكونه على حق، فيزين له أنه قد استغنى عن التربية والسلوك وتهذيب النفس وتزكيتها، فيفتح الباب لغرائز النفس وطبائعها لتعمل عملها، وهي مفضية لا محالة إلى الشر، من العداوة والحسد والغرور والأنانية. يقول: ''وإذا كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقا ومخالفيه على باطل، فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون أثرا بعد عين.''[29]

ولهذا فإن من مقاصد التربية السلوكية اتقاء هذه الأمراض التي تعرض للقلوب فتشوش على الإيمان والأعمال والتصرفات والمعاملات. فلما كانت النفس على هذه الصفة من الميل إلى الشر، فإن السلوك حاجة وضرورة. وأصل هذه المسألة حديث: ''وإن في الجسد مضغة الحديث.'' ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] ويترتب عن هذا المقصد مقصد آخر:

٥ـ مقصد سلامة العقل وصفاء العلم:

إن من النظرات الدقيقة عند بديع الزمان النورسي، أن طاقة العقل قد تتعطل وينحرف في عمله، بسبب أمراض القلوب وغلبة الهوى عليها. ولهذا كان من مسالكه في التربية والتعليم تآلف العقل والقلب، فكل منهما يحتاج إلى تزكية وتربية، فتنمية العقل تكون بالعلوم المختلفة، وتنمية القلب بالتربية السلوكية. وان من أسباب انحراف البشر مع وجود العلوم المادية والإنسانية عدم الجمع في التربية بين العقل والقلب. ذلك أن أمراض القلب قد تشوش على أعمال العقل فتغلبه فيكون المرء تابعا لنفسه وهواه مخالفا مقتضيات عقله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اَهْوَاءهُمْ﴾. القصص:٥٠ يقول رحمه الله: ''إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، لذا إن هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان. فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم، إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها تأخذ منها وتمصها حسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها.''[30]

ويقول: ''إن نور الفكر ظلام يفجر ظلاما ما لم يتوهج بضياء القلب ويمتزج به فكما إذا لم يمتزج نهار العين الأبيض غير المنور بليلها الأسود فلا تكون بصرا، كذلك لا بصيرة لفكرة بيضاء لا توجد فيها سويداء القلب إذا لم يكن في العلم إذعان القلب فهو جهل، لأن الالتزام شيء والاعتقاد شيء آخر.''[31]

وإن التربية السلوكية تعمل على تحريك قلب الإنسان الذي يعتبر مركزا لجسمه ولولا لحركته وتوجيهه إلى الله فيندفع بهذا كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان''.[32]

* * *

الهوامش:

[*] د.عبد الكريم عكيوي: كلية الآداب، أكادير - المغرب.

[1] اللمعات، ص ٣٧٣.

[2] اللمعات، ص ٣٧٤.

[3] اللمعات، ص ٣٧٦.

[4] المكتوبات ص ٥٧١

[5] المكتوبات ص: ٥٨٤

[6] المكتوبات ص: ٥٨١

[7] المكتوبات ص: ٥٧٩

[8] المكتوبات ص: ٥٨٦

[9] المكتوبات ص: ٥٧٢-٥٧٣

[10] المكتوبات ص: ٥٧٥

[11] سيرة ذاتية ص: ٣١-٣٢

[12] المكتوبات ٥٩٢

[13] النورسي: أنوار لا تغيب، محمد التهامي (ط ١٤١٨: ١-١٩٩٨ مطبعة المدني ونقله عن الكلمة الثانية والثلاثين من ص: ٧٦٥ وما بعدها.

[14] الكلمات ص: ٢٢١-٢٢٣

[15] المكتوبات ص: ٤٧٢-٤٧٣

[16] انظر الكلمات ٢٤٦/١ والمكتوبات ١٨/٢

[17] المكتوبات ٢٩/٢

[18] الكلمات ٥٣٨/١-٥٣٩

[19] اللمعات ٢٤٢/١

[20] الكلمات، ص ٨٢٢.

[21] الكلمات، ص ٣٤٢.

[22] الكلمات، ص ١٧٦.

[23] الكلمات، ص ٣٩-٤٢.

[24] الكلمات ص: ٣٣٧/١

[25] المكتوبات ص ٥٤٨

[26] المكتوبات ص: ٥٩١

[27] المكتوبات ص: ٣٩٥-٣٩٦

[28] المكتوبات ص: ٥٩٣

[29] اللمعات ص: ٢٢٧

[30] المكتوبات ص: ٤٢٦

[31] المكتوبات ص: ٦٠٣

[32] المكتوبات ص: ٥٩١

منهج التربية عند النورسي

د.محمد قنديل *

مقدمة

يعتبر المنهج من أهم موضوعات التربية، فهو لب عملية التربية، والأساس الذي ترتكز عليه. كما يعتبر القنطرة الحيوية التي تصل الطالب بالعالم المحيط به.كما أنه الوسيلة الرئيسية التي يصل بها المجتمع من خلال الطالب إلى ما يبغيه من أهداف وآمال.

والمفهوم الحديث للتربية يقوم على أن ''المتعلم'' هو مركز عملية التربية، وذلك من خلال مكوناته العقلية، والجسمية، والوجدانية إذ هي ثلاثة أبعاد متوازية. كما أن هذه التربية تضع اهتمامات الفرد وحاجاته ومشكلاته موضع الاهتمام عند بناء المنهج التربوي أو تنفيذه وكذلك الأمر بالنسبة لخبراته السابقة.

كما يرتكز هذا المفهوم الحديث للتربية على ''المعلم'' الذي يقوم بدور التخطيط والتوجيه والمتابعة.

وعملية التربية إنما هي تخليه وتحليه؛ بمعني تمشيط القلب والنفس من الأخلاق السيئة، والتحذير منها، وتنظيف كيان الفرد مما علق منها، مع السعي إلى اكتساب الأخلاق الحسنة المنضبطة، وفعالية المسلم التربوية تستند إلى درجة التحقق بتلك المعاني في النفس قبل دعوة الآخرين إلى تجسيدها.

ساد الإسلام ربوع الأرض، وبلغ ما بلغ بفضل الله أولاً ثم بفضل رجال نذروا أنفسهم للدعوة لهذا الدين ابتغاء وجه الله تعالي، بعد أن أظهروا في شعاب الحياة تحقق قلوبهم وقلوهم بمعانيه مبادئه، لهذا لم ينتظروا من أحد من البشر جزاءً ولا شكوراً.

وفي عصرنا الحاضر يعد تكالب الأمم على أمتنا الإسلامية ومحاربة الدعاة في الداخل والخارج، أمتنا بحاجة إلي رجال بهمم عالية، كمثل هِمَّة ربيعة بن كعب الأسلمي عندما قال له رسول الله ﷺ: ''سلني. فقال: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قال ربيعة: لا، فقال رسول الله ﷺ: وهو المربي الأول لأمة الإسلام وللعالمين: أعني على نفسك بكثرة السجود وليست التربية الإسلامية دنيوية عملية كما كانت عند اليونان مثلاً، وليست دينية محضة كما كانت عند اليهود قديماً، وإنما هي جماع بينهما.''[1]

تعد التربية في الإسلام ضرورة حياتية وفريضة شرعية لإعداد الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح الذي يطلق عليه القرآن الكريم ''الأمة الوسط''، والتي حملها الله تعالي مسئولية إقامة الحياة على منهاجه وشريعته، لتكون نظاماً حياتياً شاملاً حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى يأمن الناس على دمائهم وأعراضهم، وعقائدهم.[2]

كما أن التربية في الإسلام هي تزكية للإنسان بمعني تهذيبه وإصلاحه، وتنميته روحاً وعقلاً، وجسداً وخلقاً، وسلوكاً... حتى يتمكن من كسب حياته الدنيا في مستوي يليق بكرامة الإنسان. وبذلك فهي تشمل كل المؤثرات في حياة الشخص، والتعليم هو وسيلة من وسائل التربية فقط، وحينما نتناول التربية، إنما نقصد بها ذلك المعني الأعم الذي يشمل التعليم، وغيره من وسائل.

ولقد صرف بديع الزمان سعيد النورسى جلّ جهده لتربية النفوس، وتقوية الإيمان، وتذكير الناس بالله واليوم الآخر، من خلال رسائل النور، والرسائل غنية ببيان الاتجاهات التربوية، وهوما نعرض له في الفقرة اللاحقة.

اتجاهات النورسي التربوية

يمكن استنباط اتجاه الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى التربوية من رسائل النور من خلال المحاور التالية:

أولاً: تربية الفرد:

يري الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى أن التعليم الفردي أساس تكوين المواطن المسلم. ويكون التعليم الفردي بتعلم مقدار معين يومي من رسائل النور، وهي رسائل في توضيح حقائق الإسلام ومحاسنه، وكيفيه تكوين الشخصية المسلمة، مع ضرورة

أن يكون الفرد من طلاب النور -طوال حياته- يتعلم هذه الحقائق، وهذه المحاسن، ويشتغل بها.

وعن ضرورة التعليم الفردي يري الشيخ ضرورة تلازم العلم والإيمان معاً، قال الأستاذ ''إنّ الإنسان قد جاء إلي هذه الدنيا لكي يرتقي ويكتمل عن طريق شيئين: العلم والدعاء'' وهو بذلك يؤكد أن في التعليم الفردي مزج بين عمليتين: ''التعليم والإيمان''.[3]

يدرك طالب النور بعملية التعليم الفردي واجباته تجاه الله، وتجاه الحياة التي يحياها.[4]

وذلك من خلال الأمور الآتية:

١- إذا ما صان الشاب نفسه بتربيتها بالقرآن، والسنة النبوية الشريفة، فسيكون شاباً رائداً حقاً، وإنساناً كاملاً، ومسلماً صادقاً سعيداً، وسلطاناً علي سائر المخلوقات. نعم إن الشاب إذا ما دفع ساعة واحدة إلى إقامة الفرائض، وتاب عن سيئاته ومعاصيه وتجنب الخطايا والذنوب... فإنه سيعود بفوائد جمة على حياته، ومستقبله، وبلاده، وأمته، وأحبائه وأقاربه... فضلا عن أنه يكسب شباباً خالداً في النعيم المقيم يوم القيامة.[5]

٢- إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعادي ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها، واستئصال شأفتها. وحاول أن تعادي أعدى أعدائك، وأشد ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك. فقاوم هواها، واسع إلي إصلاحها ولا تعاد المؤمنين لأجلها. فإن عداءك للمؤمنين ظلم مبين. وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبها تخمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها، فالخصومة تزداد، حتى لو أصبح مغلوباً -ظاهراً- فقلبه يمتلئ غيظاً عليك... بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، فمن شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته، وجعلته أخاً لك، حتى لو كان لئيماً -ظاهرا- إلا أنه كريم من حيث الإيمان.[6]

٣- أنْ يُرَوِّضَ الإنسان لسانه على الصوم عن الكذب والغيبة، والعبارات النابية، ويمنعه عنها، ويرطب ذلك اللسان بتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله سبحانه وتعالى، والتسبيح بحمده، والصلاة والسلام على الرسول الكريم محمد ﷺ، والاستغفار... ويغض بصره عن المحرمات، ويصون أذنه من الكلام البذيء... حتى يصل بنفسه إلى الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله تعالى طوال سيره وسلوكه، أي الوصول

إلى مرتبة المؤمن الحق، والمسلم الصادق، ثم يلي ذلك أن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين...[7]

٤– إن خلق الحواس والمشاعر في وجود الإنسان، وإدراجها ضمن فطرته إنما يستند إلى أساسين اثنين:

أ– الشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها علينا المنعم سبحانه وتعالى؛ أي واجب علينا الشعور بها، والقيام بشكره تعالى وعبادته.

ب– معرفة أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعم الوجود كله.

٥– عدم تزكية النفس. قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا اَنفُسَكُمْ ﴾.النجم:٣٢

ذلك أن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته محب لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته. ويضحي بكل شيء من أجل نفسه ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحدة، وينزه شخصه، ويبرئ ساحته، بل لا يقر بتقصيره أصلا ويدافع عنه دفاعاً مستميتاً بما يشبه العبادة، حتى كأنّه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه... فلابد إذن من تزكيتها، فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها إنما يكون بعدم تزكيتها... نعم إن من يعجب بنفسه ويعتد بها شقي بينما الذي يري عيب نفسه محظوظ سعيد.[8]

٦– ومن عُمَد منهج التربية الإسلامية للفرد المسلم: –

أ– تربيته على معرفة الله معرفة صحيحة.

ب– تربيته على التعامل الصحيح مع المجتمع.

ج– تربيته على التعامل الصحيح مع الكون.

ثانياً: تربية البيت:

اعتمد الشيخ، حتى عام ١٩٥٠م، في نشر مفاهيمه التربوية علي الجهود الفردية في البيوت، بمعني أنه يعلم الفرد نفسه، عن طريق فهم الإسلام من خلال رسائل النور داخل بيته.[9]

وبيت كل إنسان هي دنياه الصغيرة، بل جنته المصغرة. فإنْ لم يكن الإيمان بالآخرة حاكما ومهيمناً على البيت أفضى ذلك إلى اضطراب الأفراد والعائلة، فتتحول تلك الجنة إلي جحيم لا يطاق، ولكن ما أن يحل الإيمان بالآخرة في ذلك البيت حتى ينور

أرجاءه مباشرة، ويستضيء لأن علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربطهم لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جداً بل تقاس علي وفق علاقات تمتد إلى خلودهم، وبقائهم في دار الآخرة، والسعادة الأبدية فيقوم -عندئذ- كل فرد باحترام خالص تجاه الآخرين ويوليهم محبة صافية، ويظهر رأفة صادقة...[10]

أوصي الأستاذ النورسى بحسن المعاملة الزوجية إضافة إلى حسن تربية الأولاد. والزوج السعيد هو الذي يقلد زوجته الصالحة فيكون صالحاً مثلها لئلا يفقد رفيقته في حياة أبدية خالدة ''الجنة'' والزوجة كذلك لئلا تفقد رفيقها الأبدي فتفوز بسعادة آخرتها ضمن سعادة دنياها. والويل كل الويل للزوجين الذين يعين كل منهما الآخر في دفعه إلى الشر.

والبيت هي النواة الأولى للمجتمع، إذا صلح البيت صلح المجتمع، بذل الأستاذ النورسى كل ما في وسعه لأجل استعادة البيت هويته الإسلامية ظاهراً وباطناً، فوجه رسالته إلى أرباب البيوت، وخاصة طلاب النور قائلا: ''اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة على الإيمان، فيكونون لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا. وبخلافه لو تربى الأولاد على التربية الأوربية وحدها، فإن أولئك الأولاد يكونون غير نافعين لكم في الدنيا من جهة، ومدعين عليكم يوم القيامة من جهة أخرى إذ يقولون لكم ''لما لم تنقذوا إيماننا؟ فتندمون وتحزنون من قولهم هذا يوم لا ينفع الندم''.[11]

ولأجل إصلاح الركن المهم فى البيت -المرأة- كتب الأستاذ النورسى رسالة ''الحجاب'' التي حوكم من أجلها، والتي نادى فيها بصيانة المرأة المسلمة من الأفكار الإلحادية الهدامة التي انتشرت في تركيا، وخاصة تلك التي تنادت بانسلاخ المسلمة من عقيدتها وشريعتها، وبالتالي من عفتها وطهارتها بحجة التقدم، ومسايرة ركب الحضارة الغربية... وأوصاهن بالتمسك بأوامر الله تعالى وعرفهن بالمدنية الغربية، وأوصاهن ببيوتهن، ورعاية الأولاد وتربيتهم على الإسلام.

ورأس ما ييسر تحقيق هذا المسعى حسن اختيار الزوجة، فإن لهذا الاختيار أكبر الأهمية وأعظم الأثر في بناء البيت المسلم، فهي أكثر ملازمة للبيت من الرجل -في غالب الأحيان- وهي التي تهيء البيت وتشرف عليه، ذلك أنّه يعد مملكتها الخاصة... فإذا أضفنا إلى ذلك أن المرأة هي التي تحضن الأولاد وتربيهم، وتؤثر فيهم قبل

ذهابهم إلى المدرسة بأكثر مما يؤثر الأب، فضلا عن كونها المسئولة عن استقرار البيت وسعادته.[12]

وتبدأ تربية الأبناء في وقت مبكر، بل مبكر جداً منذ وعيهم بما يدور حولهم. وإذا ما قصر الآباء في ذلك، فقد خالفوا أمر الله تعالى، ذلك أنّهم بذلك ضيعوا من استرعاهم الله، وبتضييع الأبناء تسوء سلوكهم، فيكون أوّل من يجني علقم فساد السلوك الأولياء، ورأس ما يثمر الخلال الطيّبة أن يكون الأولياء قدوة في التحقق بالقيم التي يرغبون في تعليمها، فالصدق والأمانة، وسائر الفضائل وإن كانت تنال تعلما وموعظة، فإنما أوقع في النفس إن بدرت من قدوة.

ويستطيع الإنسان المسلم تكوين البيت المسلم من خلال: -

أ – حمل أهله على احترام فكرته الإسلامية.

ب– المحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية.

ج– حسن اختيار الزوجة وتوقيفها على حقها وواجبها.

د – حسن تربية الأولاد والخدم، وتنشئتهم على مبادئ الإسلام.

والبيت المسلم إذا صح تكوينه، وإعداده، وصح عمله، وصحت ممارسة الحياة فيه على النظام الإسلامي، يكون لبنة قوية في بناء المجتمع المسلم الملتزم بمنهج الله تعالي في الحياة.

ثالثاً: تربية المجتمع "تربية الجماعة المحدودة" أو "المدارس النورية":

أخذ الشيخ النورسى يوجه اهتمامه إلي تأسيس أماكن تربوية وتعليمية أطلق عليها مسمي ''المدرسة النورية''، في مكان واحد، لتدارس المسائل الإيمانية والحقائق القرآنية، من واقع كتابات الشيخ في رسائل النور. وعلى ذلك يمكن اعتبار هذه المدرسة النورية -في نفس الوقت- مؤسسة تعليمية. والواقع أن بديع الزمان سعيد النورسى قد ركز اهتمامه على هذه المدرسة النورية في خطابات له أرسلها إلى طلابه، وركز عليها أيضاً -اهتمامه- في أماكن مختلفة من كليات رسائل النور.

وعلى هذا، كان من المقرر على طلاب النور في حال الفراغ الاجتماع في هذه المدارس النورية، يتدارسوا رسائل النور لفترة وجيزة كل يوم يمكن أن تصل إلي ربع ساعة، ويعتبرون أنفسهم بذلك قد نالوا شرف وثواب ''طلاب العلوم'' الذين يكونون

في عبادة، علاوة على تحول عاداته ومعاملاته الاعتيادية لمتطلبات معيشته عبادة يثاب عليها أيضاً، كما هو حال طالب العلم.[13]

ومما زاد من أهمية المدرسة النورية في استراتيجية حركة طلاب النور، أن القرارات الجمهورية التي ألغيت بموجبها التربية الدينية شملت بالضرورة مؤسسة ''الدرس العام''، وهذه كان لها دورها البالغ الأهمية في المساجد الكبيرة، وكان المكلف بإلقائها، خريج المدرسة الدينية القديمة -الجامعة- والذي لا يقوم بها إلا من هو في درجة الأستاذ Professor، يلقي دروسا جادة في الفقه، وعلم الكلام والتفسير والحديث، وتاريخ الإسلام، وغير ذلك من العلوم الإسلامية، وكان لكل فرد مسلم أن يشترك في حلقات دروس ''الدرس العام'' هذه ليستفيد منها الجميع، ذلك أنّها لا تقتصر على سن معين، ولكن مع إلغاء التربية الدينية ألغيت حلقات الدرس العام، مما جعل المدارس النورية في مقدمة المؤسسات المحافظة على الدين.

ومن هنا نستطيع القول أن المدرسة النورية التي سعي بديع الزمان سعيد النورسى إلى إنشائها إنما كانت لنشر دعوته من ناحية ولملء الفراغ التربوي الذي حدث بإلغاء ''الدرس العام'' من المساجد من ناحية أخري.

ومما زاد من انتشار فكرة المدرسة النورية، إن لم يكن السبب الرئيسي في انتشارها، أنّ طلاب النور كانوا يتشكلون في مجموعات، بما فيها أهل كل منزل، إذ من السهل تكوين جماعة في المنزل الواحد، فتضم الأبناء البنات، فضلا عن الزوجة، فيتحوّل البيت بسهولة إلى ''مدرسة نورية'' إذا قرروا تدارس رسائل النور معاً. أما إذا كان الرجل وحيداً فليجمع عدداً -ولو قليلاً- من جيرانه المقربين إليه جداً، ويتخذ من المنزل الذي يقيمون فيه ''مدرسة نورية'' وبالذات في أوقات فراغهم.[14]

وقد كان للمدرسة النورية مقومات أساسية، كانت سببا في نجاحها، لعلّ أهمها:

١- أن يكون الخلاف أو الاختلاف إيجابي بناء، ومعناه أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم، وأبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع، والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة، والعداوة.[15]

٢- أن أهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك ''الأنا'' حتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم ''أنا'' فعليهم تركه، حتى لا يعبدوا أنفسهم، فلا تقولوا

''أنا'' بل قولوا ''نحن''، وإذا نظرنا إلي نظرة الشيخ النورسى في تربية المجتمع بوجه عام نري أنه قد اعتمد علي عدة مبادئ تتمثل فيما يلي:

أ– أن الحسد هو أشد إيلاماً للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهيبه، أما المحسود فلا يسمه من الحسد شئ، أو يتضرر طفيفاً.

وعلاج الحسد هو: أن يلاحظ الحاسد عاقبة ما يحسده ويتأمل فيها، ليدرك أن ما ناله محسودة من أعراض دنيوية –من مال وقوة ومنصب– إنما هو أعراض زائلة، فانية، فائدتها قليلة، مشقتها عظيمة. ثم إن الحاسد في حسده يسخط على قدر الله. إن ما يسببه التحايز والعناد، والحسد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين، وما يوغر في صدورهم من حقد وغل، وعداء، مرفوض أصلاً من قبل الإسلام، الذي يمثل روح الإنسانية كلها، فظلاً عن أن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والاجتماعية.

ب– أنه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص.[16] ولا يتأتى ذلك إلا بالقضاء على الربا وأداء الزكاة لمستحقيها عن طريق الفرض العام. لأن أهمية الزكاة لا تنحصر في أشخاص وجماعات معينة فقط، بل أنها ركن مهم في بناء سعادة الحياة البشرية ورفاهها جميعاً، بل هي عمود أصيل تتوطد به إدامة الحياة الحقيقية للإنسانية وإلا ستنهال مطارق الظلم والتسلط على هامات العوام من أولئك الخواص وينبعث الحقد والعصيان اللذان يضطرمان في أفئدة العوام تجاه الأغنياء الموسرين. وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراع معنوي مستديم... حتى يؤول الأمر تدريجياً إلي الشروع في الاشتباك الفعلي والمجابهة. حول العمل ورأس المال كما حدث في روسيا.[17]

لقد أصبح الإسلام حصناً حصيناً للعوام اكثر منه للخواص، إذ لا يجعل الخواص مستبدين على العوام، بل يجعلهم خادمين لهم –من جهة– وذلك بتأدية فريضة الزكاة وتحريم الربا.

جـ– العمل على عفة المجتمع وطهارته: قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٩] صدق الله العظيم.

خلاف هذه الآية الكريمة تأمر بالحجاب، بينما تذهب المدنية الزائفة إلي خلاف هذا الحكم الرباني، إن رفع المدنية الحجاب وإفساحها المجال للتبرج، يناقض الفطرة

الإنسانية. وإن أمر القرآن الكريم بالحجاب -فضلاً عن كونه فطرياً- يصون النساء من المهانة والسقوطً، ومن الذل ومن الرذيلة، والسفالة، وهن معدن الرأفة والشفقة، والرفيقات العزيزات لأزواجهن في الأبد.

د- تفضيل الإخوان على النفس في المراتب، والمناصب والتكريم، والتوجه، وحتى في المنافع المادية التي تهش لها النفس، وترتاح إليها، بل في تلك المنافع التي هي خالصة زكية كتعليم حقائق الإيمان إلي الآخرين.

هـ- إن وحدة المصلحة تجعل الترابط بين أفراد المجتمع ترابطاً لا يتخلخل ولا تنقطع عراه، أنهم ركاب سفينة واحدة، ناجية أو غارقة، فكيف يمكن أن ينفصل بعضهم عن بعض أو يتجاهل بعضهم وجود بعض؟ هذا بالإضافة إلي ترابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله وترابط التعاون على البر والتقوى، وليس ترابط التعاون على الإثم والعدوان.

و- يمكن إنقاذ البلاد، وإنقاذ الحياة الاجتماعية لأبنائها من الفوضى والانقسام بالاحترام المتبادل بين الناس، حاكم ومحكوم، ثم بالشفقة والرحمة والابتعاد عن الحرام، والحفاظ على أمن البلاد والعباد.

ز- ولقد دعا الشيخ النورسى أصحاب الاتجاهات الأخرى القريبين من دائرة رسائل النور إلي مدرسة النور ''أرباب العلم، وأهل الطريقة، وأصحاب المشارب الصوفية''، ليمدوها بما لديهم من رأسمال علمي سابق.

ح- ومن أهداف المدرسة النورية الانشغال بالأصول والكليات دون الفروع والجزئيات، والانتقال من المختلف فيه إلى المتفق عليه، ومن التعالي على المجتمع إلى التغلغل فيه... ومن الأهداف السامية استغلال الوقت في الدعوة إلى الله تعالى ''دعوة فردية'' فى بعض الأحيان، ودعوة عامة الناس في أحيان أخرى. حيث تقرأ الرسائل على جماعات شتى، ويكون منهم أحيانا علماء.

رابعاً: اتجاهات تربوية يمكن للدولة العمل بها:

١- نوعية التربية وهدفها:

إن التربية فى نظر الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي هي: أخلاقية، تمنحها حكمة القرآن الكريم للحياة الشخصية. والإسلام كله هو: حسن الخلق.

أما حكمة القرآن الكريم، فهى تقبل الحق نقطة استناد فى الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة، وتجعل رضى الله تعالى ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساساً فى الحياة بدلاً من دستور الصراع. وتلتزم برابطة الدين، والصنف الواحد[18] من الناس المنسجمين فى الميول، والأفكار، والأذواق والطبائع كأرباب الحرف والمهن، والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.[19]

بين التربية الإسلامية وحكمة الفلسفة، وللوصول إلي مدي الفرق بين التربية الأخلاقية التي يربي بها القرآن الكريم تلاميذه، والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة، نري أن نضع تلميذيهما في الموازنة الآتية:

فالتلميذ المخلص للفلسفة ''فرعون'' ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس شيء لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له. ثم أن ذلك التلميذ يرضي لنفسه منتهى الذل في سبيل الحصول علي لذة. ثم أن ذلك التلميذ نفعي ومصلحي، لا يري إلا ذاته فغاية همته تلبية رغبات النفس والبطن والفرج، وهو ''دساس مكار'' يتحرى عن مصالحة الشخصية ضمن مصالح الأمة.

بينما تلميذ القرآن المخلص هو ''عبد'' ولكنه عبد عزيز لا يستذل لشيء حتى لأعظم مخلوق. ثم أنه تلميذ متواضع، لين هين، ولكنه لا يتذلل بإرادته لغير فاطره الجليل. ثم إنّه فقير وضعيف، موقن بفقرة وضعفه ولكنه مستغن عن كل شيء بما ادخره له مالكه الكريم من خزائن لا تنفذ في الآخرة. ثم أنه لا يعمل إلا لوجه الله، بل لا يسعى إلا ضمن رضاه بلوغاً إلي الفضائل.

وأما ما تعطيه حكمة الفلسفة من تربية للمجتمع الإنساني فهي أن حكمة الفلسفة تري ''القوة'' نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية وتهدف إلي المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستوراً للحياة، وتلتزم بالعنصرية، والقومية السلبية رابطة للجماعات.

والذي يعمل في ساحة الفلسفة، والعلوم العقلية دون أن يفتح نوافذ نفسه على عالم الروح والقلب، لن يكون إلا فيروساً ينقل الأمراض، ولن يكون هو نفسه إلا علامة من علامات المرض والسقم.

٢ـ صفات المُربِي

إنه لمن الخطأ المبني على الغفلة، تصور أن المربي قد بلغ من النضج الحد الذي

يجعله في غني عن التربية، والتزود بالعلم والخبرة؛ والآن كل إنسان بحاجة إلي هذا التزود طالما هو مطالب بأن يعطي.[20]

قال تعالي: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾طه:١١٤ صدق الله العظيم.

وبالتالي لابد للمربي أن يستمر في عملية التربية دون توقف عند حد معين، كما عليه أن يكون داعية إلي الله، لا تفارقه هذه الصفة حتى يلقي الله تعالي. كما لابد أن تتوفر فيه مهارة الاختلاط بالناس، والتأثير فيهم، وحبهم وحب الخير لهم والمربي البارع لا يترك أحداث الحياة تمر أمامه دون أن يستفيد مما فيها من عبر ومواعظ، ودروس... إذ أنها تحدث في النفس أثراً كبيراً، وتنفعل معها النفس الإنسانية انفعالاً خاصاً... مثال ذلك: حينما ظن المسلمون في غزوة حنين أنهم أقوي عدداً وعدة من الأعداء، وظنوا أن القوة وحدها سبيل النصر.

قال تعالي: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾التوبة:٢٥ صدق الله العظيم.

وعلى المربي أن يتكلم على حسب المستويات التي تتلقى على يديه، سواء أكان المستمع من عوام الناس أو من خواصهم. وقد تكلم الشيخ النورسى مع أهل القرى أو الرعاة بنفس لغتهم ومستواهم وبنفس منكسرة متواضعة، بينما إذا تكلم مع أستاذ التعليم العالي (البروفسور) تكلم عن علم الفلك أو عن مساحة الكرة الأرضية.[21]

ولقد توجه الأستاذ النورسى إلي شرق الأناضول عام ١٩١٠م وبدأ بجولة واسعة بين مختلف العشائر الكردية، والتركية، وعقد معهم اجتماعات وندوات أجري فيها مناقشات حول أمور اجتماعية وسياسية، وأختار معهم أسلوب الحوار السهل المستساغ، القريب إلي الأذهان...[22]

وفي أثناء تجواله بين العشائر البدوية في شرق الأناضول دعاهم إلي التحضر وحثهم بلهفة وشوق على التمدن والرقي في مجالات حياتهم كلها.

والمربي لابد أن تتوافر فيه الصفات الجهادية، ولقد لمسنا ذلك عندما أوجد الأستاذ النورسى لطلابه بنادق الماوزر، وتحولت مدرسته إلي ما يشبه المعسكر، إذ الكتب جنباً إلي جنب مع البنادق.[23]

ولما قامت الحرب العالمية الأولي عام ١٩١٤م تطوع فيها برتبة ضابط، وكان يعود في أمسيات الحرب إلي المعسكر، حيث يتحلق حوله طلابه فيدارسهم علوم القرآن،

كما ألف في تلك الفترة إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز وهو أول مؤلف له باللغة العربية.

وعلى المربي إظهار الخير في بعض الأحيان دون إخفائه لاستفادة الآخرين أو تنبيههم من الغفلة، أو إظهار العزة الدينية بما يشبه من إعلان للشعائر الإسلامية أمام الضال السادر في السفاهة، وغيرها من الفوائد... ولا سيما في هذا الزمان... بشرط عدم تدخل التصنع.[24]

ويري الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى ان للمربي صفات لازمة، بدونها لا يكون ناضج الشخصية، ومن هذه الصفات:

١– عدم المبالغة إذا قام بتصوير مسألة من المسائل وعدم إهمال تحري الحقيقة، وإيجاد الدلائل إثبات تلك المسائل.

٢– أن يحافظ على التوازن الشرعي، عندما يعرض مسألة بالترغيب والترهيب.

٣– العمل على تطابق الحال مع مقتضى البلاغة؛ بمعني التكلم بكلام مناسب مع تشخيص العلة.[25]

٤– عدم تلقينه لشيء يصعب على متلقيه هضمه.[26]

٣– تلازم العلم والأيمان.

لم يفصل الإسلام أبداً بين الدين والحياة، بل اعتبر كل أمور الحياة، وما تستطيع أن تقدمه هذه الحياة للإنسان كي يعيش، جزءاً من الدين ووجه إلي ضرورة الإفادة به، والحث عليه.[27]

وما دام الإسلام لم يفصل بين الدين والدنيا، بل جعل الدنيا في خدمه الدين، واعتبر أن أشرف ما في هذه الدنيا هو العلم فإنه حرص على أن يوظف العلم لصالح الدنيا والدين.

ويرى الشيخ النورسى أن العلوم، إنما تقود إلي الإيمان... والإيمان يدفع إلي العلم. ولذا فامتزاج العلم والدين، أساس تكوين الشخصية التربوية. وقد أهتم الإسلام بالتربية العقلية، وذلك بربط جوانب المادة النظرية بالتجربة العملية المحسوسة. وقد أشار القرآن الكريم إلي دور التجربة العملية في ترسيخ اليقين في وقوله تعالي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ اَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾البقرة:٢٦٠ صدق الله العظيم.

هذه تجربة عملية محسوسة لما في ذلك من زيادة في اطمئنان العقل. كما قدم القرآن العلم على الإيمان والإخبات. قال تعالي: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾الحج:٥٤ صدق الله العظيم.

لذلك فإن الذين تعبدوا بدون علم كالخوارج، خرجوا بأسيافهم على المسلمين، ولو طلبوا العلم وربطوه بالعبادة ما دلهم على ما فعلوا.

وكان الشيخ النورسى يدلل على وجود الله تعالي بالعلوم الطبية نفسها، والتي تقول إن وراء كل تركيب دوائي كيميائياً، وصيدلياً حاذقاً. أفلا تقول -نفس هذه العلوم- أن وراء كيمياء الحياة المبثوثة في كل مخلوق على هذه الأرض خالقاً حكيماً مدبراً؟ خلق كل شئ بميزان، وصاغ كل مخلوق ضمن معادلة الحياة، وممارسة عمله، ووظيفته.

ولعل ظروف مجتمع الأستاذ النورسى القاسية قد دفعته إلي تجديد علم الكلام تجديداً واضح المعالم والأركان، بحيث أوجد علماً قرآنياً جديداً ''علم الكلام'' استطاع من خلاله نقل علم التوحيد من نظريات فكرية مجردة يفهمها الخاصة إيماناً عقلياً مجرداً إلي سلوك عملي في الحياة ينفعل به العقل وتثور العاطفة.

ويرى الشيخ النورسى، ضرورة تلازم عنصري ''الدين والعلم'' في العملية التربوية، وأن الإسلام هو سيد الفنون والعلوم، ومرشدها، وأنه -أي الإسلام- هو رئيس العلوم الحقيقية وأنه أبوها.[28]

ومعني هذا أن الشيخ يحث على تدريس العلم والإيمان جنباً إلي جنب، والإيمان يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلي التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلي سعادة الدارين. ولا تظن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية.

٤- النظر للعلوم بنظرة عقدية:

يسلم الشيخ بأن المسلمين يأخذون العلوم والفنون من أوربا وأمريكا، ولكنه يرجع أصل هذه العلوم وهذه الفنون إلي الإسلام، ويعتبر أن هذه قضية منطقية تقوده إلي القول بضرورة تناول هذه العلوم، وهذه الفنون في ضوء الإسلام. وقوله في هذا هو: ''إن العلوم والفنون التي نأخذها عن أوربا وأمريكا، والتي هي في الحقيقة علوم الإسلام وفنونه لابد أن نضعها في ضوء نور التوحيد، وينظر إليها بنظر التفكير الذي منحه لنا القرآن، وينظر المعني الحرفي للقرآن.''[29]

٥ـ مستوى الذكاء والسن والمستوى الواحد:

يضع الشيخ في اتجاهاته التربوية، ضرورة أن يكون مستوي الذكاء متقارباً في المجموعة التعليمية الواحدة ويعطي مثلاً على الأول هو عندما يتحدث أحد مع طفل من الأطفال، فينزل إلي مستواه، ويتحدث معه الأطفال، ويُفهمهم حتى يستطيع هذا الطفل أن يفهم. وأن الله تعالي قد خاطب الناس على قدر عقولهم حتى من الحقائق.[30] وعلى سبيل المثال ''هناك ملابس كثيرة تكون جميلة على قامة وقبيحة على أخري.

وتعليم الطفل بإحدى طريقتين: الجبر أو لمس الإحساس.[31] ولنعلم أن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته، وسعادته. فالأطفال الذين يمثلون نصف البشرية، لا يمكنهم أن يتحملوا تلك الحالة التي تبدو مؤلمة ومفجعة للموت والوفاة إلا بما يجدونه في أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من ''الإيمان بالجنة''. وذلك الإيمان الذي يفتح باب الأمل المشرق أمام طبائعهم الرقيقة التي لا تتمكن من المقاومة والصمود، وتبكي لأدنى سبب. فيتمكنون به من العيش بهناء وفرح وسرور فيحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه: ''إن أخي الصغير أو صديقي الحبيب الذي توفي أصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو إذن يسرح من الجنة حيث يشاء ويعيش أفضل وأهنأ منا''.[32]

٦ـ مراعاة التخصص:

ويري الشيخ أن مراعاة التخصص جزء هام من العملية التربوية العلمية فلابد من تطبيق قاعدة تقسيم العمل بتمامها كقاعدة، وأن هذه العملية لابد أن تتشعب إلي شعب، وتخرج كل شعبه متخصصين فيها.[33]

فالأمور الاجتماعية، وقراءة الجرائد أصبحت على سبيل المثال من اختصاص طالب النور ''زبير'' والاتصال مع المسؤولين في الدولة وأخذ الرسائل إليهم من اختصاص طالب النور الأخر ''وصونكور''، والذي يصلح في إلقاء الدروس العامة في المساجد لا يصلح في غيرها من الأعمال الأخرى كالطب، والهندسة، وهكذا.[34]

وفي مناقشة مسألة علم أو فن قال الشيخ: ينبغي أن لا تكون حجج وأحكام وكلام الرجال الذين هم خارج ذلك العلم وذلك الفن، مهما كان مقدار هم حججاً وأحكاماً، وكلاماً يُعمل بها، ولا يمكن اعتبارهم داخلين في إجماع علماء ذلك العلم. وعلى سبيل المثال: فإن مهندساً لا يمكن أن يكون كلامه معتبراً مأخوذاً به في كشف مرض أو علاجه قدر طبيب مبتدئ.[35]

٧ـ مراعاة الاستعداد الفطري والقابلية:

وفيه يقول الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى: ''أنه لمن العصيان الكبير لشريعة الخلق الخليقة، وأن يقوم رجل بترك شئ يجد في نفسه له استعداداً وقابلية، وكذلك المحاولة في شئ ليس هو أهلاً له. ويمكن هنا استخدام تعبير الغناء في الفن.[36]

فالمرأة من حيث كونها مدبرة لشئون البيت الداخلية، ومأمورة بالحفاظ على أولاد زوجها وأمواله، وكل ما يخصه فإن أعظم خصالها هي: الوفاء والثقة. إلا أن تبرجها وتكشفها يفسد هذا الوفاء، ويزعزع ثقة الزوج بها.[37]

كما أن الفضل والسبق هو: أن لا يترك الطالب أخاه عندما يراه مبتلي بفساد، بل عليه أن يزيد أخوته معه ويسعى لإصلاحه. فهذا شأن الأوفياء الصادقين. والشرط الأول لكي يكون الإرشاد والتعليم تاماً ونافعاً، ضرورة أن يكون حسب استعداد الجماعة، والجماعة هنا تعني العوام من الناس وهم لا يستطيعون رؤية الحقائق عالية، وإنما يرونها تحت أردية وبأسلوب معلوم ومألوف لديهم.[38]

٨ـ الحركة الإيجابية في التربية:

إن الحركة الإيجابية في مفهوم الشيخ التربوي تعني المحافظة على الأمن والأمان داخل البلاد. ولابد من التوضيح هنا أن الحركة الإيجابية عند الشيخ تعني الحركة الفكرية، والاجتماعية في إطار مبادئ رسائل النور. ومن المعلوم أن الشيخ يرفض تماماً العنف السياسي والاجتماعي، كما أنه يرفض العداء والخصومة. ولعل كلماته في رسائل النور توضح هذا:

''الاعتداء الخارجي يقابل بالقوة. أما الحركة في الداخل فهي ليست كذلك. إنها حركة إيجابية تسير بسر الإخلاص المعنوي ضد التخريبات المعنوية...''

''إن الله أعطاني ملايين الطلاب الحقيقيين (خدمة رسائل النور)، وإننا معاً سنتحرك حركة إيجابية في سبيل المحافظة على الأمن والأمان في الداخل''.[39]

''سنجاهد ولكن بسلاحي: العلم والفن، وسنجاهد ضد الجهل والفقر. وسنجعل الجهاد الخارجي يتحول على السيوف الماسية القاطعة لرسائل النور، إلي براهين للشريعة الغراء. ذلك لأن الانتصار لا يكون إلا بالإقناع، وليس بالإجبار، نحن فدائيو المحبة، وليس الوقت وقت الخصومة''.[40]

٩- التربية ومقتضيات العصر:

إن بعض المربين يعتمدون على المبالغة في تصوير بعض المسائل التربوية وهم - لكي يحدثوا تأثيرهم- يبتعدون عن الإقناع، ويجرون وراء ضرورة إخضاع التربية المعاصرة لظروف مضت، وعهد سابق ولي، والشيخ بديع الزمان سعيد النورسى يعارض هؤلاء، ويقول: بأن العملية التربوية لابد أن تكون في إطار عصرها، وحسب مقتضياته. يعني أنه يعارض هذه الفئة التي نتحدث عنها من المربين، وينقدهم بقوله: إنهم يزوقون تصوير المسائل عندما يقارنون بين الزمن الماضي والزمن الحاضر. وإنهم يهملون إثبات حقيقة الأمر، ويهملون تحري الحقيقة لكي يحدثوا التأثير في النفوس، في الوقت الذي لابد لهم فيه من الإقناع.[41]

نخلص من ذلك أن تصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق، وفي سبيل الوصول إلي حقيقة، إنما يكون عند اختلاف الوسائل، مع اتفاق في الأسس والغايات فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح ولكن إن كانت المناقشة والبحث عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية، وللتسلط والاستعلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية، ونيل الشهرة، وحب الظهور، فلا نتلمس بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولد شرارة الفتن.[42]

وكان الشيخ يري أن الأسلوب الذي يجب إتباعه في الدعوة إلي الله تعالي ينبغي أن يكون "فطرياً"؛ أي طبيعياً لا كلفه فيه، ولا تصنع، حتى لا يضيع المقصود من الكلام. كما ينبغي أن يرصع الكلام بفنون البلاغة... لذا رأينا الأسلوب اللين الرقيق جداً، كما رأينا الأسلوب العلمي الدقيق، والعبارات المنطقية الفطرية الداعية إلي أعمال الفكر والعقل معاً.

أهم النتائج

إن التعرف على الجانب التربوي في فكر بديع الزمان سعيد النورسى وهو شخصية إسلامية واسعة الشهرة، وذات فكر موسوعي دقيق - له تأثيره الهام على الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، ولا شك أن إمكان التربية الشاملة للفرد، والبيت، والمجتمع على السواء بالأساليب التي أشار إليها الشيخ، واهتمامها بالقدرات الفردية للنشء، وتفتحها على استعداد الطالب الفطري، وقابليته للتعليم، تؤكد النظريات التربوية الحديثة في هذا المجال.

وإن اهتمام الشيخ بديع الزمان تسد احتياجات اجتماعية ضرورية لتكوين المجتمع الصالح الذي لا يهتم بالجانب العقلي على حساب الجانب الروحي، ولا يهتم بالجانب الروحي على حساب الجانب العقلي، وإنما يتوخى وسطيه الإسلام بين هذا وذاك.

ويلفت النظر، اهتمام الشيخ بديع الزمان النورسى بإقامة الجامعات الإقليمية وتخصصها، وضرورتها في تنمية المجتمعات وهذا ما سعت له الدول بعد ذلك بعقود.

ومما تقدم فإن التربية توجب على الفرد عدة واجبات تجاه مجتمعة منها ما يلي:

١– نشر دعوة الخير فيه.

٢– محاربة الرذائل والمنكرات.

٣– تشجيع الفضائل.

٤– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥– المبادرة إلى فعل الخير.

٦– كسب الرأي العام إلي جانب الفكرة.

وذلك كله تحقيقاً لأهداف التربية الإسلامية المتمثلة في:

إعداد الإنسان المسلم، العابد لربه، الصالح في ذاته، الناجح في حياته الدنيا، المعد لحياته الآخرة.

هذا وقد استخدم الشيخ النورسى عدة وسائل في تربية طلابه من أجل تحقيق ذلك الهدف منها ما يلي:

١– توجيه الخطاب إلي العقل والقلب والروح معاً.

٢– الدعوة إلي التعلم من كتاب الله تعالي وسنه نبيه محمد ﷺ، من خلال رسائل النور، لأنها ملك القرآن الكريم ومشدودة به.

٣– ضرب الأمثال لتقريب المعاني والألفاظ.

٤– تقوية الأخلاق للمتربي، والتي بدونها تضيع الأمم وتزول.

٥– الاهتمام بالتربية الخاصة للنساء وقد ظهر ذلك جلياً أثناء استنساخهن لرسائل النور، ونشرها بين صفوف أخواتهن وفي بيوتهن.

٦– تربية طلاب يتحلون بالإخلاص الكامل والتفاني في العمل.

٧- الدعوة إلي عدم الارتباط به شخصياً، حيث إنه إنسان عاجز، وله عيوب وتقصيرات

٨- الدعوة إلي الوحدة وإلي الاتحاد دائماً، وتجنب الأمور التي تعيق ذلك فكان لا يشغل نفسه بأمور فرعية غير مهمة.

٩- التخصص في أداء الواجب.

وهذا المقال قد يدفع الباحثين إلي الاهتمام بالجانب التربوي المقارن بين فكر الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى -وهو فكر متقدم- وبين غيره من المفكرين المسلمين، والمفكرين الأوربيين على حد سواء. ومنه تتضح مكانه التربية في الفكر الإسلامي.

١٠- كان المسلمون في أول عهدهم بالتعليم يتخذون مدارسهم في الجوامع والمساجد، وكانوا يسمون التلاميذ المجتمعين حول أستاذهم لتلقي العلم ''حلقة''، وقد عمل الشيخ النورسى بهذه الفكرة لمدارسة رسائل النور سواء في المسجد أو البيت.

كما لعبت المساجد دوراً تربوياً هاماً في أول الدعوة الإسلامية، وكانت مركزاً للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية وكانت تقوم بوظائف متعددة من. أهمها تصريف شؤون الدولة قبل إنشاء الدواوين الحكومية

* * *

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

باللغة العربية:

١. إحسان قاسم الصالحي. مؤلف رسائل النور ومؤسس جماعة النور، بديع الزمان سعيد النورسى، نظرة عامة عن حياته وأثاره، إستانبول ١٩٨٧.
٢. أسيد إحسان قاسم. ذكريات عن سعيد النورسى. القاهرة، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٧م.
٣. الإمام السيد موسي الصدر. الإسلام عقيدة راسخة ومنهج حياة. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٥م.
٤. حسن البنا. تربية النشء. الزقازيق - مصر. أصالة للتجارة والتسويق ط١، ١٩٩٩م.
٥. بديع الزمان سعيد النورسى. الآثار البديعية، إستانبول.
٦. بديع الزمان سعيد النورسى الآية الكبرى ''مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه'' ترجمه إحسان قاسم الصالحي، ط٢ - المنصورة - مصر - ١٩٩٨م.
٧. بديع الزمان سعيد النورسى ''رسائل النور'' القاهرة، سوزلر للنشر، ٩ مجلدات.
٨. بديع الزمان سعيد النورسى محموعة عصا موسى. بيروت ترجمة الملا محمد زاهد الملا زكردي، دار ابن زيدون، ط١، ١٩٨٧م.
٩. د. علي عبد الحليم محمود. منهج التربية عند الأخوان المسلمين. المنصورة، دار الوفاء ط١، جزءان، ١٩٩١م.
١٠. علي لبن، جمال عبد الهادي. المهام التربوية للآباء ''مرحلة ما قبل البلوغ''. القاهرة، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٩٨م.
١١. فريد الدين أيدين. جامعة الزهراء مقال في كلية الدعوة الإسلامية، العدد الخامس، ١٩٩٨، طرابلس - ليبيا.
١٢. محمد السيد قنديل. أثر بديع الزمان سعيد النورسى في إحياء الإتجاه الإسلامي المعاصر في تركيا. الزقازيق - مصر، ظافر للطباعة، ١٩٩٨م.
١٣. د. محمد منير مرسي. التربية الإسلامية ''أصولها وتطورها في البلاد العربية'' القاهرة،
١٤. عالم الكتب، ١٩٩٨م.
١٥. ١٤-مصطفي أمين. تاريخ التربية. القاهرة، مطبعة المعارف، ط٢، ١٩٢٦م.

باللغة التركية:

- Ozer Ozankaya, Atatürk Ve Laiklik, Istanbul 1983.
- Mithat Sertoglu, Osmanlı Tarih Lügati, Istanbul 1986.
- Gotthaed Iasckke, Yeni Turkiye'de İslam, Çeviren: Hayrullah Ors, Istanbul 1972.

- Bediazzaman Said Nursi, Sözler, Istanbul 1980.
- Bediazzaman Said Nursi, Divan-i Harb-i Örfî , Istanbul 1977.
- Bediazzaman Said Nursi, Lem'alar, Istanbul 1976.
- Bediazzaman Said Nursi, Tarihçe-i Hayat, Istanbul 1976.
- Bediazzaman Said Nursi, İşârâtü'l-İ'caz , Istanbul 1976.
- Bediazzaman Said Nursi, Şu'alar, Istanbul 1958.

* * *

الهوامش:

* د.محمد قنديل: جامعة زقازيق، كلية الأداب، مصر.

[1] حسن البنا: تربية النشء. الزقازيق، أصالة للتجارة والتسويق، ط١، ١٩٩٩م.

[2] علي ابن، جمال عبد الهادي. المهام التربوية للآباء "مرحلة ما قبل البلوغ". القاهرة مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٩٨م، ص٣.

[3] B. S. N. Sözler, 23, S. 294. Istanbul 1980

[4] بديع الزمان سعيد النورسى، "الآية الكبري"؛ مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، ص٢٩٣، الطبعة الثانية – المنصورة مصر، ١٩٨٨م.

[5] الشعاعات، ص٥٢٢.

[6] المكتوبات، ص ٣٤٣.

[7] المكتوبات، ٥١٩، ٥٩٣.

[8] المكتوبات، ص٤٢٣، ٥٩٥.

[9] أنظر علي سبيل المثال في هذا العدد بديع الزمان سعيد النورسى، لاحقه أميرداغ (٢) ص١٠١.

[10] الشعاعات: ٢٨٢، ٢٨٣.

[11] اللمعات: ٣٠١.

[12] د. علي عبد الحليم محمود. منهج التربية عند الأخوان المسلمين. المنصورة، دار الوفاء، ط١،

[13] لاحقه أميرداغ، مرجع سابق، ص١٠١.

[14] بديع الزمان سعيد النورسى، الآثار البديعية، ص١٣٦، إستانبول.

[15] المكتوبات: ٣٤٧.

[16] الكلمات: ٤٧٤.

[17] المكتوبات: ٣٥٥.

[18] التربية المهنية: لاستنفاد الطاقة البشرية في عمل مفيد، مع إكساب الفرد قيم الصدق، والإتقان، والاعتماد على النفس، والقدرة على الكسب وقوة الشخصية.

[19] الكلمات، ١٤٥.

[20] علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١١٧٢.

[21] أسيد إحسان قاسم ص ٧٨

[22] صيقل الإسلام ص ٣٧٨.

[23] الشعاعات ص ٥٦٨.

[24] الشعاعات ص ٣٥٩.

[25] B. S. N. Divan-ı Harb-i Örfî, S. 69. Istanbul 1977

[26] Sözler: 656.

[27] د. علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٥٩٢.
[28] B. S. N. Muhakemat, S. 8. Istanbul 1911.
[29] B. S. N. Tarihçe-i Hayat, Barla Hayatı, S. 140. Sözler Yayınevi 1976.
[30] B. S. N. İşârâtü'l-İ'câz, S. 131. Istanbul 1976.
[31] مناظرات، المرجع السابق، ص٧٤.
[32] الشعاعات، ص ٢٢٨.
[33] مناظرات، المرجع السابق ص٧٣.
[34] أسيد إحسان قاسم، مرجع سابق، ص٥٥.
[35] B. S. N. Şu'alar, S. 85. Istanbul 1958.
[36] محاكمات، المرجع السابق ص٤٦.
[37] اللمعات، ص ٣٠٣.
[38] إشارات الإعجاز، ص ١٢٦.
[39] لاحقة أميرداغ - مرجع سابق، ص ١١٤.
[40] ديوان حرب عرفي، مرجع سابق، ص ٤٩.
[41] المرجع السابق، ص ٦٩.
[42] المكتوبات، ص ٣٤٧.

من ملامح التربية السلوكية عند النورسي

ذ. أديب إبراهيم الدباغ *

١- مدخل إلى حكمة "النورسي" التربوية

لو شئنا أَنْ نلخص حكمة ''النورسي'' التي تُوَجّهُ منطلقاته في ''التربية السلوكية'' للأفراد والجماعات لقلنا إنَّها كلمتان اثنتان لا يعدوهما، وهما ''الجمال والجلال''، فالجمال عنده هو لُبُّ الحقيقة الإنسانية، ولُبُّ كُلِّ الحقائق في الوجود.

فجمال الحقيقة الإنسانية لا بُدَّ له من مِرْآةٍ ينعكس عليها ويتجلَّى فيها، والسلوك البشري في الفكر والحياة هو المرآة التي تعكس من صور هذا الجمال على قَدْرِ استشعار الإنسان بقيمته الجمالية النفيسة في هذا العالم، ومن حيثُ كَوْنُه سيدَ الكائنات، وأعلاها قَدْراً، وأعظمها قدرةً على ترجمة إشارات الجمال في سويداء الروح إلى سلوكٍ حياتي، وشعورٍ وجداني، ومنهج ذهني يمارس من خلاله شؤونه المعيشية والحياتية، ويُقَوِّمُ على ضوئه ما يعرض له من أفكار ومذاهب، فيحكم لها أو يحكم عليها، في إطارٍ من رُؤى ذوقية سامية المنشأ، رفيعة المنبع، يتناول برهافتها المعاني والمباني، ويتعامل بموجبها مع كليات الأفكار وجزئياتها وتشكلاتها في بُنَى الإنسان الحضارية والمدنية، ونشاطاته الفنية والأدبية.

وَقَدْ رَأَيتُ تجليات هذا الجمال منعكساً على السلوك الإيماني العملي لقراء رسائل النور ولطلبتها، رأيتُه رأي العين، ولَمَسْتُهُ لمسَ اليد، حيثما تكررت زياراتي لهم في بيوتهم ومدارسهم ومكاتبهم، وأماكن أعمالهم، فإذا واحدهم كأَنَّه جَمَالٌ قُرْآنيٌّ مسكوبٌ في قالبٍ بشريٍّ، ومرآة صقيلة شفّافة تعكس من صور الذوق والخُلُقِ والأدب ما يكاد يكون نادر الوجود في هذا العصر المجدب الكسيح، وليس هذا رأياً رأيْتُهُ أنا وحدي، بل هو رأي جمهرة من كبار الأساتذة والمربّين مِمَّنْ تهيأتْ لهم فرصُ رؤية ''طلبة النور'' على الطبيعة في أماكن وجودهم وتجمعاتهم، فأعربوا عن الرأيّ نَفْسِهِ.

٢- الجمال والجلال:

والجمال والجلال صنوان لا يفترقان، فكُلُّ جمالٍ هو جلالٌ في الوقت نفسه، وكُلُّ جلالٍ هو جمال في الزمن ذاته، ولو شئتَ لقَلتَ: إنَّ الجلال هو العظمة والكبرياء اللتان يحتجبُ وراءهما الجمال، وهو هالةٌ من المهابة والحشمة تحيط بالجمال فتحفظهُ وتَصُونَهُ من أنْ تطاله الأيادي الطامعة والعيون المسمومة، والإيمان بمسكوباته الجمالية والجلالية في الأرواح والقلوب هو الذي يصنع المؤمنين الذين يُشَكِّلون المعنى الجلالي الذي يحيط بالإيمان ويصونه مِمَّنْ يريد به الأذى، وينوي به الشرّ وقد قامت الحضارة الإسلامية في الماضي ولن تستأنف قيامها في المستقبل إلاّ على هذين العنصرين، الجمال والجلال، جمال في القلب والروح والفكر يَعْقُبُه جلالٌ مُجَسَّمٌ في رجولة الرجال، وفي عظمة البناء والإعمار.

وما أفْزَرَتْهُ هذه الحضارة من بطولات إنسانية في مختلف مناحي الحياة، وما تركته من هياكل البناء والمعمار في أرجاء العالم الإسلامي ينبئ عن ذلك ويشير إليه، وقد ظلَّ القرآن والسيف في الرايات المرفوفة فوق رؤوس الجموع رمزاً من رموز هذه الحضارة للجمال والجلال.

والفكر التربوي الذي تحول لدى طلبة ''النورسي'' إلى سلوكٍ يمارسه ''الطالب'' في حياته اليومية ويكاد يكون علامة عليه وحدَه من بين الناس، هو مزيج من روح الجمال وروح الجلال، وقد لمستُ ذلك بنفسي حيث وجدتُ لدى طالب النور وداعةً تكاد تكون طفولية، ولكن ليس عن ضعفٍ بل عن قوة إيمانية تمتلئ بها نفسه، وطالعتني منه رحمةٌ تكاد تذوب رقةً ليس عن هوانٍ نفسي بل عن عِزّةٍ قعساء لا تتطامنُ إلاّ لربِّ العالمين، ورأيتُ إشفاقاً دونه إشفاقُ الأُمّ على وليدها نابعاً من طاقة رجولية ترى في الإشفاق على المتجانفين عن طريق الله تعالى معنىً من معاني الإنسانية الإيمانية.

و ''طالب النور'' هيّنٌ سهلٌ موطأُ الأكناف يضع خَدَّه على التراب تواضعاً إنْ أخطأ في حق أحد أو أساء إلى أحد، إلاَّ أنّه لا يفعل ذلك بانكسارٍ نفسي بل بشعورٍ من تواضع العِزّة التي تستعصي على أي معنىً من معاني الإذلال والخنوع.

و''النورسي'' الأستاذ والقدوة، هذا الرجل الذي لم يكن له مأوى يُؤويه على ظهر الأرض سوى المنافي والسجون والزنزانات، وعلى الرغم من أهوال العذاب الذي كان يَصُبُّهُ عليه سَجَّانوه، إلاّ أنَّ قلبه المفعم بالإشفاق والرحمة كان يمنعه من رفع يديه

والدعاء على جلاَّديهِ، وعندما فعل ذلك ذات مَرّةٍ فتوجَّهَ بقلبه الكسير إلى الله تعالى رافعاً يديه بالدعاء على واحد من سجَّانيه مِمَّنْ أفرط غاية الإفراط في إيذائه وتعذيبه، ولم تكد شفتاه تتحركان بالدعاء حتى رأى من كوةِ زنزانته صبياً لهذا السجَّان يلعب في شرفة المنزل المطلّ على باحة السجن ببراءة طفولية عذبة، فإذا به يُنزلُ يديه ويعدل عن الدعاء إشفاقاً ورحمةً بهذا الصبي الذي لم يُرِدْ أن يعكر صفو براءته بالحزن على والده الذي ربما كان سيتأذّى بدعائه عليه.

٣- تربية الوجدان:

تُعَدُ صياغة الوجدان البشري وتربيته من أصعب مهمَّات قادة الفكر والدعوة في كُلِّ الأوقات. وقد سعى ''النورسي'' -على ضوء التربية الإيمانية التي أرادها لتلامذته- أن يسمو بوجدان ''طالب النور'' إلى آفاق الجمال والجلال في النفس والكون والحياة، واستطاع من خلال ''رسائل النور'' أن يملأ خيال هذا الوجدان بصور باهرة من جمال العالم الأبدي حيث استطاع أن يعكس على العالم الخارجي أعظم الصفحات في تاريخ الفتح الإيماني العتيد على هذه الأرض، وذلك باستثارة عنصر الرجولة فيه لمواجهة التحديات والمخاطر مهما كان نوعها.

إنَّ قهر الخوف وتركه وراء الأذن، وتحت القدم، هو من أولويات ما يعرف به ''طالب النور'' لأنّ جلال الشجاعة هو ينبوع جمال الرحمة والصدق والشرف والكرم والمروءة، هكذا كان ''النورسي'' وهكذا أراد أن يربي تلامذته.

وأودُّ أَنْ أُنبِّهَ إلى أنَّ الإمام ''النورسي'' رحمه الله، كان يوصي طلبته دائماً وفي كل مناسبة، بعدم التعلق بشخصه الفاني، وكان يؤكد على أنَّ ''رسائل النور'' التي كتبها هي شخصه المعنوي الذي يمكن أن يزوروه ويحاوروه في كل وقت إذا أحبُّوا ذلك، فَمَنْ يُحبُّ التقاءَهُ فليَلْتقِه عبر ''رسائل النور''.

والذين لم يلتقوا ''النورسي'' في حياته التقوه بعد وفاته رحمه الله من خلال ''رسائل النور'' فهذه الرسائل هي التي ربَّتهم وارتقت بسلوكياتهم الإسلامية المثالية التي أشرنا إلى بعض ملامحها في الصفحات الماضية من هذا البحث، وإني شخصياً أعرف جَمَّاً غفيراً من شباب ''النور'' انصبغت حياتهم بالصبغة السلوكية نفسها التي كان قد انصبغ بها الجيل الأول من الذين التقوا ''النورسي'' وعاصروه، وهذا يؤكد وجهة نظرنا بأنَّ المربي الحقيقي والأساس هو الرسائل وليس غيرها.

وعلى قدر علمي لم أعرف كتاباً كان له من التأثير السلوكي التربوي في قرائه كما

وجدت ذلك في أولئك المنكبّين على قراءة ''الرسائل'' من طلاب ''النور'' في هذا العصر، وهذه شهادة أسجلها على نفسي وأرجو الله تعالى ألاَّ أكون حانثاً فيها، لأنَّها نتيجة المشاهدة والمخالطة والمعاملة.

٤- مع الكون وجهاً لوجه:

ومن أجل أن يحفز التفكر الإيماني في أذهان تلامذته يتقدمهم ''النورسي'' ليوقفهم على الكونيات وجهاً لوجه من دون واسطة من الكلمات التي قد تتحول أحياناً إلى حاجز فكري يحجز الإنسان عن الكون مسبباً له شيئاً من الجمود العقلي والكسل الروحي الذي يريد أن ينأى بتلامذته عنهما، فأَشَدُّ الأشياء بداهةً جديرة بالاهتمام من لدن ''طالب الإيمان'' فهي تنطوي على الكثير من موجبات الدهشة والعجب. فالأشياء الكونية ذات سلك واحد يربط بينها جميعاً، فالشيء يفضي إلى الشيء، والشيء طريق لكل شيء وعلى صلة بكل شيء، فالذين ينكفئون تحت ظل الكلمات قد يفقدون مع الزمن الاستمتاع الناشط الإيجابي، والفرح الاستكشافي من خلال معالجة المعطيات الكونية بالحسيّات مباشرةً ومن غير واسطة، فتاريخ الكون يمكن قراءته في جزء من أجزائه دون مشقة، وجلال الربوبية، وجمال الألوهية يمكن مشاهدتهما في أية جزئية من جزئياته، والنظام والقصد والعلم والإرادة في الخلق والإيجاد تتكشف بكل سهولة عند الفحص والتدقيق في الأشياء.

فإثارة تدقيق العقل عند ''طالب الإيمان'' في تفكره بالأشياء وفي استكناه أسرارها وخفاياها من مستلزمات تكوين العقل العلمي الاستكشافي والاختراعي، وهي في الوقت نفسه من مهمات السلوك التربوي العملي عند ''النورسي''.

يحدّثُ أحد ''طلاب الإيمان'' قائلاً:

''كان الأستاذ يرتقي التلال التي تشرف على مدينة ''إسبارطة'' ليشاهدَ من فوقها مناظر الفطرة، ومشاهد الطبيعة، وكانت الطريق مكسوةً بأشجار الفواكه وبخاصة ''العنب''. فيمسك الأستاذ بعنقودٍ منها -دون أن يقطعه- وَيَعُدُّ حبَّاته مبيناً لنا ما فيه من بدائع الصنعة الإلهية والإتقان الربَّاني فيقول: انظروا وتأملوا في حلويات القدرة الإلهية هذه...

فكان يعلمنا هكذا كيف نفكر في مخلوقات الله المبثوثة في معرض الله... وهكذا كنا نتلقّى دروساً إيمانية في التدبر وِفْقَ منهج القراءة في كتاب الكون المفتوح أمامنا.

وذات يوم وقف على مقبرة وقال: ''إنَّ شواهد هذه القبور الحجرية تذكّرنا بالآخرة، وتنذرنا. فهي كالمعلم الحي لنا. ألا ترون أن هذه الأحجار ترشدنا إلى دروس بليغة بلسان حالها، وكأنها تقول لنا: أنتم أيضاً قادمون إلى هنا... لا مناص. هكذا كان يعلمنا كيفية التفكير في الأمور كلها''.[1]

٥- السلوك والخلود:

إنَّ السلوك البشري ذو المنظور الروحي المستهدي بفكرة الخلود الأبدي في عالمٍ أخروي. يبقى القاعدة الثابتة والمقيمة في أغوار النفس يعود إليها الإنسان المسلم مهما طوحَتْ به أحداث الزمن في دروب الحياة وشعابها ليستأنف دورة جديدة من عملية تزكية النفس وبنائها على ثوابت الإيمان، وبذلك يبقى المسلم في شدٍّ وجداني متيقظ لدواعي الانحرافات عن الثوابت إياها، فلا يسترخي ولا يستنيم، أو هكذا ينبغي أنْ يكون طوال حياته.

كما أنَّ الائتلاف بين الفضيلة والطبيعة، وبين الإيمان والكون، هو واحد من توكيدات ''النورسي'' التربوية على طلابه، ففي الإنسان تكمن روح الطبيعة، أو بعبارة أخرى روح ''الفطرة'' بطهرها ونقائها.

ومن أجل هذا الطهر والنقاء الذي يُرادُ ''لطالب الإيمان'' أن يتحلَّى به عَمَدَ ''النورسي'' إلى تعزيز قوى الحواس في طلابه، وفتح نوافذ الروح على عالمي الغيب والشهادة باعتبارهما وجهين لعملية خلاَّقية واحدة، هذه الخلاَّقية التي يحثُّ ''النورسي'' طلابه على الغوص في معانيها وأسرارها لينعم الطالب بعد ذلك بفيضٍ من حُبٍّ إلهيّ أبدي يجعله مركز جذبٍ وإنجذابٍ للقلوب النزيهة الطاهرة.

والآلام المركوزة في طريق هذه التزكية للأفراد والجماعات هي مصفاة عظيمة تصفي النفوس وتنقيها من بقايا أدرانها أو أخطائها، فالآلام رغم قسوتها هي جمال لأنها طريق النفوس إلى الصفاء والنقاء، والصفاء والنقاء هو الجمال كل الجمال، وما من ألمٍ أو حزنٍ يصيب المؤمن إلاَّ وهو خيرٌ له، لأنه يزيد في خصب روحه وقوتها، فالسجون والزنزانات والمنافي هي مدارس يوسفية كما يصفها ''النورسي'' لطلابه فكما كان السجن ليوسف عليه السلام طريقاً إلى ارتقاءاته الروحية والدنيوية معاً، كذلك هي عند ''النورسي'' وعند طلابه. وعلى ضوء الآية الكريمة ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾يوسف:٤٢ يقول النورسي:

''نفهم من أسرار هذه الآية الكريمة أن يوسف عليه السلام هو قدوة المسجونين ورائدهم.

فيصبح السجن إذاً نوعاً من (مدرسة يوسفية). وحيث إن عدداً غفيراً من طلاب النور قد دخلوا هذه المدرسة مرتين، لذا ينبغي لهم أن يتدارسوا ويُدرِّسوا قسماً من خلاصة المسائل الإيمانية التي أثبتتها رسائل النور ولها مساس بالسجن، للاسترشاد بها ولتقويم الأخلاق والسلوك في هذه المدرسة المفتوحة لتلقي التربية''. ويقول كذلك:

''أما إذا صرفنا ساعة واحدة في أداء الصلوات الخمس، فكل ساعة من ساعات الابتلاء وأوقات المحن تتحول إلى يوم من العبادة، فكأن الساعات الفانية قد اكتسبت - ببركة هذه الساعة - صفة الخلود، وأصبحت في حكم ساعات أبدية باقية.. فتنزاح عن القلب سحب اليأس ويتبدد عن الروح ظلام القنوط.. وتصبح هذه الساعة من العبادة كفّارة لبعض ما ارتُكب من أخطاء وذنوب، ربما كانت السبب في الدخول إلى السجن.. وبذلك نكتشف حكمة ابتلائنا بالسجن ويغدو السجن مدرسة نتلقى فيها الدروس النافعة.. ونجد فيه مع اخوتنا في المصيبة والبلاء العزاء والسلوان''.[2]

٦- إخفاق التربويات غير الإيمانية:

والبلقع الرهيب، والجدبُ المُمْحِلُ في روح الإنسان ووجدانه، وجفاف ينابيع الإيمان في قلبه، هو موضع نظر ''النورسي'' وأعظم اهتماماته الفكرية من إنسانِ هذا الزمان، حيث يبدو واضحاً إفلاس التربويات غير الإيمانية في تنشئة النفوس العظيمة الراغبة باستيعاب المعارف الإلهية بجانب ما تزخر به الأذهان من أكداس من المعلومات لم تُجْدِ في تحصين الفرد من مغريات الجريمة وتعاطي المخدرات، وفضائح المال والجنس والانتحار، والسقوط المخيف في الغلظة والقسوة، وممارسات الابتزاز والقهر على الأفراد والجماعات دون وازع من ضميرٍ أو خُلُقٍ. وقد تَحَدَّى ''النورسي'' مرةً رجال الشرطة والأمن ومكافحة الإجرام في بلاده أن يكونوا قد سجّلوا على أي طالب من طلاب النور البالغ عددهم مئات الألوف ومنذ عشرات السنين مخالفة تخدش أمنَ البلاد، أو جنحة أو جريمة أمكنَ تجريم واحد منهم بسببها ويمضي قائلاً:

أليس هذا دليلاً كافياً على أن مسلكنا التربوي الإيماني هو أقوم المسالك. وإذا كانت الدولة تريد تجفيف منابع الجريمة في البلاد فما عليها إلاَّ أن تسمح لنا بحرية العمل لكي نسلّمَ لها البلاد -في يوم ما- نظيفةً وخاليةً من الجريمة والفساد.

ثم إذا كان لكل حقيقة حياة قائمة بذاتها وهي لا تموت أبداً حتى عندما لا يكون لها وجود في حياة الناس وفي أذهانهم وسلوكياتهم، فكذلك حقائق الإيمان فهي تبقى

حيةً عندما تُقْفرُ العقول والقلوب منها، إلاَّ أنها تظلُّ تمارس الحياة في الخفايا المطوية من النفوس والأكوان وفي فضاءات القرآن الكريم، وكل ما تحتاجه لتظهر على السطح شيءٌ من التنبيه والتذكير، وحتى عندما تصمت لأي سبب من الأسباب بعضَ الوقت إلاَّ أن صمتها يظل همساً يحاور أسماع القلوب والأرواح شاءت ذلك أم أبَتْ، ولا بدَّ أن تنتبه في لحظة ما وتبدأ الفهم وتذعن للتذكير فتبادل هذا الصامتَ المتكلمَ الحديث والحوار والفهم والإدراك.

غير أنَّ الناس وبخاصة شباب هذا العصر مشغولون بقضايا بعيدة عن نقطة المركز في دائرة وجودهم، بينما ينبغي أن تكون أولويات انشغالاتهم هي التركيز على هذه النقطة لأنها هي الأساس في بناء هذا الوجود وفي تكويناته النفسية والفكرية، فلياليهم وأيامهم سكرى بلذائذ لا تُشْبَع، وعذابات من الحرمان لا تنتهي، وبشهواتٍ نَهَّاشةٍ لا تنفكُّ تنهش القلوب والعقول ولا تتركها إلا بقايا قلوب محطمةٍ، وعقول ممزقة، لأنَّ كُلَّ لذة تورث ألماً إذا هي زالت -كما يقول النورسي- وكل فرح يورث حزناً إذا مضى وانقضى، وكُلُّ وصال فهو إلى فراق، وكل اجتماع فهو إلى افتراق، فالمطلوب إذن لذة لا تزول، وفرح مقيم، ووصال دائم، واجتماع بالأحباب تحت سماء البقاء والخلود، وهذا ما لا يمكن أن يحظى به المرء إلاَّ في الإيمان والتربية الإيمانية التي تهيؤه لهذا الكسب العظيم الذي هو مطمح كل عاقل أريب.

ولا جدال في أنَّ إنسان هذا الزمان لا يستطيع مهما حاول أنْ يغمض عينيه، ويسُدَّ أذنيه عما يجري حوله من أحداث في هذا العالم الذي غدت الأمكنة فيه -بفضل التقنيات الحديثة- مكاناً واحداً، والأزمنة زماناً واحداً. وصار العالم الوسيع قرية صغيرة كما يقولون يمكن أن يجوبه الإنسان خلال ساعات، فلا بدّ لهذا الإنسان الواقع تحت ضغوط هذه التقنيات المذهلة أن يهتمَّ بالعالم ويتابع أحداثه وَيُكِّونَ رأياً حولها. إلا أنَّ أحداث ''القلب والنفس'' وما يخوضانه من تجارب. وما يتقلبان فيه من أحوال، وما يعتورهما من انقلابات وتقلبات، وما يحتربان من أجله، ويسعيان لبنائه، ينبغي أن يكون لهما سبق الاهتمام والتعرّف والفهم والإدراك، وأن تكون لهما الأولويات من التفكر قبل الخوض في مجريات العالم من حولهما، فانصباب الإنسان وانكبابه ينبغي أن يبدأ بخويصة نفسه، وبالسويداء من روحه، ثم ينتقل من هناك نحو الأوسع من الدوائر ثم الأوسع حتى يصل إلى دائرة العالم من حوله، وهذا هو الأساس في البناء الفكري والنفسي لطالب النور كما أراده ''النورسي'' وبهذا الخصوص يقول:

"إن رأس مال العمر قليل، ورحلة العمر هنا قصيرة، بينما الواجبات الضرورية والمهمات التي كُلّفنا القيام بها كثيرة، وهذه الواجبات هي كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز حول الإنسان"

فابتداءً من دائرة القلب والمعدة والجسد والبيت والمحلة والمدينة والبلاد والكرة الأرضية والبشرية وانتهاء إلى دائرة الأحياء قاطبة والعالم اجمع كلها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر، فكل إنسان له نوع من الوظيفة في كل دائرة من تلك الدوائر. ولكن أعظم الواجبات وأهمها، بل أدومها بالنسبة له هي في أصغر تلك الدوائر وأقربها إليه، بينما أصغر الواجبات وأقلها شأناً ودواماً هي في أعظم تلك الدوائر وأبعدها عنه. فقياساً على هذا: يمكن أن تتناسب الوظائف والواجبات تناسباً عكسياً مع سعة الدائرة، أي كلما صَغُرَت الدائرة -وقَرُبَت- عَظُمَت الوظيفة، وكلما كبرت الدائرة -وبَعُدت- قَلَّتْ أهمية الوظيفة... ولكن لما كانت الدائرة العظمى فاتنة جذابة، فهي تشغل الإنسان بأمور غير ضرورية له، وتصرف فكره إلى أعمال لا تعنيه بشيء، حتى تجعله يهمل واجباته الضرورية في الدائرة الصغيرة القريبة منه، فيهدر - عندئذ - راس مال عمره، ويضيّع حياته سدى".[3]

٧- القلب البشري بين المجاز والحقيقة:

إنَّ القلب البشري هو ينبوع كل العواطف والأشواق والمحبَّة والوَجْد والحب، فيظلُّ يَضُخُّ من هذه المعاني فيوضاً هائلة مع كل نبضة من نبضاته، ومع كل دقة من دَقّاته على أبواب الحياة وجدران الوجود.

أرأيتَ أنَّ الله تعالى الذي خلق الإنسان ليُعْرَفَ ويُذْكَر ويُشْكَر ويُعْبَدَ ثمَّ لا يخلق فيه الأداة التي بها يعرفه ويذكره ويشكره ويعبده، أو لا يخلق فيه المرآة التي تتجلّى عليه صفاته الجلالية والجمالية لكي يزداد به شغفاً، ويهيم به محبةً وعِشقاً، ويمتلئ له شكراً وتعبُّداً.

إلاَّ أنَّ القلب المسكين الذي مُنِحَ حرية الاختيار قد يَضِلُّ الطريق، وينحرف في سيره عن الغاية والهدف، فيتعلق بالضلال، وينجذب للأطياف، ويغرق في المجاز، ويشغف بالاستعارة، بينما الحق والحقيقة تظلُّ في متناول إدراكه، وهي أقرب إليه من حبل الوريد، وأقرب مِمَّا يتوهمه من أوهام ويسبح فيه من خيالات فيجره ذلك إلى الاستغراق في أهواء حسيَّةٍ جسدية تبدد فيه من الطاقات الخارقة ما كان يمكن أن يدير

أجنحة أعظم أشواقه إلى صاحب الجلال والجمال الحقيقي، الذي كُلُّ جمال وجلال في هذا العالم إنما هو ظلٌّ من ظلال جماله، وقبسة من نور جلاله.

أما مراهقو السلوك الأرعن مِمَّنْ لم يحظوا بتربية إيمانية رشيدة، فشأنهم دائماً التحويم حول خضر الدِمّنَ، والتلهي كالأطفال بالدُّمى، والوقوف على الرسوم والأطلال، والركون إلى الظلال، واصطحاب أشباح بلا أرواح، يجذبهم إلى ذلك ما في الهبوط السلوكي من سحر أسود وما في اقتراف الفسق من غباء أحمق، ولأنَّ هذه الممارسات تخالف الفِطَرَ السليمة، فأنها تعقب ردودَ أفعال نفسية حزينة مؤلمة، وشعوراً بالحِطّةِ والانحطاط وهذا هو الهلاك الروحي الذي حذَّر منه ''النورسي'' وعزا إليه ما نشاهده في السجون والمستشفيات والخمارات من مآسٍ إنسانية تفطّر القلب، وتملأه إشفاقاً وحزناً.

إنَّ الرجل كُلَّ الرجل هو الذي يتجاوز هذه المراهقات السلوكية الفجَّة، ويعلو فوقها، ويرتفع بظمأ قلبه وأشواق روحه إلى منابع الجمال الحق، والجلال الصدق، ليروي ظمأ القلب، ويطفئ لهب الروح، فيسمو به الإيمان إلى بحار هذه المنابع ليَرِدَهَا ثمَّ يَصْدُرُ عنها وقد أطفأ غلَّةً وَبَلَّ أُواماً...

يقول ''النورسي'' محذراً: إن الحب المحرم، أو العشق لغير وجه الحق، فيه من الآلام ما ينغّص اللذة الجزئية فيه، منها الشعور بألم الغيرة والحسد، ومنها ألم الفراق عن المعشوق، ومنها ألم عدم مقابلة المحبة بالمثل.. وغيرها كثير من المنغصات التي تجعل تلك اللذة الجزئية بحكم عسل مسموم.

فإن كنت تريد أن تفهم أن سوء تصرّف الشباب وإسرافهم في أمرهم يسبب فيهم من الأمراض ما يسوقهم إلى المستشفيات أو المقابر..

وإن كنت تريد أن تفهم أن غرور الشباب وطيشهم يدفعهم إلى السجون.

وإن كنت تريد أن تفهم أن ما يصيبهم من آلام معنوية وهموم نفسية - من الخواء الروحي والجوع القلبي والفراغ - يسوقهم إلى أبواب الحانات والملاهي.. نعم إن كنت تريد أن تتحقق من هذا، فاسأل المستشفيات والسجون والخمارات والمقابر، فستسمع حتما أنات وآهات، وبكاء مريراً، وحسرات الندم، وأصوات الأسى والأسف، يطلقها -على الأغلب- شباب أشقياء، تلقوا الصفعات الموجعة والضربات الأليمة لخروجهم عمّا أباح الله لهم من الطيبات بدافع نزواتهم وإسرافهم وسيّء أعمالهم، وارتكابهم المحرمات، وانسياقهم وراء اللذات المشؤومة''.[4]

٨- قوى النّفس وطاقاتها:

الإمام ''النورسي'' ومن خلال قراءاته المُعَمَّقة للنفس البشرية على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يرى أنَّ قوى النّفس وطاقاتها الهائلة في الإعمار والتخريب، وفي السلب والإيجاب حبيسة ''إنِيَّةِ'' الإنسان أو ''أناه'' كما يعبّر هو نفسه، فـ ''أنا'' الإنسان عالمٌ فسيحٌ ذو أُفقٍ واسع، تسبح في أجوائه صور الوجود، وظلال الأكوان، فانعدام ''أنا'' الإنسان أو غيابه لأيّ سبب من الأسباب يعني نوعاً من أنواع انعدام العالم قُبالَتَهُ، لأنه هو الذي يرسم صورة العالم على صفحة وجدانه كما تتراءى له، أو كما يُحِسُّها ويشعر بها.

ويرى ''النورسي'' كذلك أنَّ ''أنا'' إذا ما نَفَذَ ببصيرته عميقاً في كيان نفسه، فأنَّ سِرّ الخلق والإيجاد الإلهيين سيتوضحان أمامه، قياساً على ما عنده من نازع استشرافيٍّ خَلاَّق يعمل دوماً على خلق دنياه وعالمه الخاص به. وفي معرض حديثه عن عَالَمِ ''أنا'' الموّار بالأعاجيب يقول ''النورسي'': ''وهكذا...فقد اندرجت في 'أنا' آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تدلُّ وتبين -إلى حدٍّ ما- الصفات الإلهية الحكيمة كلها''.[5]

ولا بُدَّ من اختراق طبقات ''النفس'' وحتى لو كان ذلك عبرَ طوفان من الحقارات والتفاهات المتراكمة لكي نصل إلى العمق النهائي الذي يستقُّر فيه النّازع الإلهي الذي فُطِرَت عليه.

وهذا الوازع الإلهي الفطري هو الذي جعل ''النورسي'' ينبش عنه بقلمه طبقات النفس لكي يصل إليه، ويطلعه على السطح ويكون مُعْتَمَدَهُ في فكره الدعوي والتربوي على حدٍّ سواء.

٩- الدين والعلم:

لقد حذّر ''النورسي'' الإنسان المسلم من أنَّ سقوطاً مريعاً يمكن أن ينتظره حينما ينساق مع التيار المستغرب، فيرى في قوة العلوم قوةً تفوق قوة الدين. ونبَّهَ إلى أنَّ هذه العلوم لا يمكن أن تكون دائماً هي المرآة المطلوبة لكي يرى المسلم روحه فيها، فيقع في الشَرَكِ نفسه الذي وقع فيه الإنسان الغربي حين ظنَّ أنه قادرٌ على اتخاذ ''العلم'' ديناً يقوم مقام الدين ذي المصدر الإلهي.

و ''النورسي'' لا ينكر بل يؤكد على أن هذه العلوم ترسل كثيراً من الأحيان بروقاً

والتماعات ذات مستويات عالية تومئ إلى الأصل الإلهي للإنسان، إلاَّ أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تشكل البديل عن شفافية الدين وروحانيته والطمأنينة التي يبثها في النفس، وحين تنكرت المدنية الغربية للدين انقلبت إلى وحشٍ كاسرٍ بلا قلب ولا ضمير ينهش في أوصال الإنسانية في كل مكان، الأمر الذي جعل ''النورسي'' يعبر عنها بأبشع التعابير حيث قال: ''لقد قَاءَتْ هذه المدنيةُ وحشيةً فاقت جميع وحشيات القرون السابقة''.[6]

١٠- أنواع النفوس:

ذكر القرآن الكريم ثلاثة أنواع من النفوس يتراوح بينها الإنسان، أدناها ''النفس الأمارة بالسوء'' ثمُّ ''النفس اللوامة'' والأرقى وهي ''النفس المطمئنة''.

وقد حذر ''النورسي'' طلبته من ''النفس الأمارة'' تحذيراً شديداً، ووصفها في رسائله بأنها نفس زئبقية لا تلبث على حال واحدة، وتتشكل بأشكال مختلفة، تطل برأسها إذا وجدت من صاحبها فرصة ضعف، وتتوارى إذا خافت، تلبس لكل حال من أحوال صاحبها الملبوس الذي يناسبه، وربما أفسدت على المطيعين طاعاتهم وعلى المتعبدين عباداتهم، وعلى المخلصين إخلاصهم، وهي بارعة في المناورة والمراوغة والخداع، فصارت بذلك مبعث كل شر. يقول ''النورسي'' محذراً:

''وهكذا... يا أخوتي...

تأملوا جيداً وراقبوا أنفسكم لئلا تخدعكم نفوسكم الأمارة بالسوء من زاوية قياس الآخرين بالنفس ومن حيث سوء الظن بالآخرين، ولا تساوركم الشبهة بأن 'رسائل النور' لا تربي طلابها''.[7]

أما ''النفس اللوامة'' وهي الأرقى في درجات النفوس، إلاَّ أنها الأكثر تعباً، والأشدُّ معاناةً والأرهف شعوراً، والأعنف توتراً، والأعظم تألماً، والأعمق حزناً، فهي لَوَّامةٌ عَتَّابة، نَقَّادة عيَّابة، لا تعرف السكينة، لأنها ضمير الوجدان، والعصب الذي يهزه الغلط، ويوتره الانحراف، تلوم صاحبها إذا أخطأ، وتذكره إذا نسي، وتعنفه إذا اعوجَّ، وتوخزه إذا سكن إلى باطل، وتنذره إذا مارس فسقاً أو أتى فجوراً. وتكبح جماحه، وتلجم أهْواءهُ وهي في صراع دائم مع نفسه الثانية ''الأمارة بالسوء'' حين تطلُّ برأسها من مخبئها بين تارة وأخرى، فالحرب بينهما سجال، كرٌّ وفرٌّ هزيمة وانتصار، وهي البوصلة الهادية إلى الطريق المستقيم، ولبيان أهمية هذه النفس ربط جلَّ وعلا في

قَسَمه بينها وبين يوم القيامة، فقال: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. القيامة:١-٢

فبين يوم القيامة بأهواله الرهيبة وبين ''النفس اللوامة'' سلكٌ نورانيٌّ خفي ينقل صراخ هذه النفس إلى مسامع ''القيامة.. أملاً في شمول صاحبها بالرحمة الإلهية.

وإذا ما قُدِّر لمعدن ''النفس اللوامة'' أن يتصفَّى في بودقة الاختبار من الشوائب والأخباث، وأن يُنَقَّى سرُّها، ويتطهر لُبُّها، وتخرج من جحيم ''النفس الأمارة بالسوء'' سالمة مبرأة، صارت نفساً مطمئنة، ودرجت لتأخذ مكانها في صفوف المرضيين المطمئنين، وصارت هي المعينة بخطابه جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. الفجر:٢٧

إلاَّ أنَّ هذه النفوس التي استعرضنا بعضاً من سماتها وملامحها في صدر هذا الكلام لا يفصل إحداها عن الأخرى في الإنسان حَدٌّ فاصلٌ، أو حاجزٌ لا يمكن تجاوزه واختراقه، فـ ''النفس الأمارة بالسوء'' موجودة حاضرة مع كل نفس، تتوارى أحياناً إلى حدّ الظنّ بأنها لم يعد لها وجود، ثم لا تلبث حتى تخرج رأسها من بعض ثغورٍ ضعيفة غفل الإنسان عن تحصينها جيداً، وقد تضعف وتهزل وربما دخلتْ مرحلة الاحتضار إلاَّ أنها لا تموت، وسرعان ما تتراءى وكأنها قد استردّت قوتها وعافيتها حتى أن أكابر الأولياء والأصفياء والبررة الأتقياء يستغيثون بالله منها، ويرجون عونه تعالى ليظهروا عليها، وإلى هذا المعنى يكتب ''النورسي'' إلى طلبته موجهاً: ''إخوتي الأعزاء الأوفياء:

لقد خَطَر إلى قلبي أن أبين لكم حقيقة لئلا يتهم بعضكم بعضاً بالأنانية وعدم الوفاء لقد رأيتُ -يوماً- من وليٍّ عظيم قد ترك الأنانية وانْمَحْت نفسه الأمَّارةُ، رأيتُ منه يشكو بشدّةٍ من النفس الأمَّارة. فحرتُ في الأمر. ثمَّ عَرَفْتُ يقيناً إنه لأجل إدامة المجاهدة المثابة عليها إلى نهاية العمر تتحول أعتدة النفس الأمارة بموتها إلى العروق والمشاعر.

وهكذا يشكو أولئك الأولياء العظام من هذا العدو الثاني الوارث للنفس الأمَّارة''.

ويمضي ''النورسي'' قائلاً: ''بل إنَّ بعضاً مِمَّنْ هم في أعلى المقامات يعدون أنفسهم أكثر الناس ضعفاً وعجزاً وإفلاساً لأنهم لا يستشعرون إحساناً إلهياً أُنعم عليهم (أي لا يجدون أنفسهم ممن يستحقون هذا الإنعام الإلهي عليهم)، مما يدل على أن

الكشف والكرامة والأذواق والأنوار التي تعتبر في نظر العوام مدار الكمالات لا تكون قطعاً محكاً ولا مداراً لتلك المقامات والقيمة المعنوية''.[8]

١١- حياة النورسي وانعكاساتها على حياة طلبته:

عاش ''النورسي'' طوال حياته عميقاً في كل شيء، ولم تَشْتَهِوِهِ أبداً المُسطَّحاتُ في الدين والفكر والحياة. إنه جوهري في أموره كلها، سبّار أغوار، حمّال أثقال، غوّاص أعماق، ما جافى أحداً مجافاته للنفوس الباهتة، والعقول الساهية، والأرواح الفارغة.

إنه يتساءل دائماً: هذه الحياة التي أُعطيناها، ماذا نفعل بها..؟ وكيف نصرفها..؟! إنه لا يكره شيئاً كراهيته للكسل والفراغ لأنهما سبب لكل انحلال وتدهور، إنَّ زيادة الإدراك والتفتّح على الحياة هي إحدى مهمات عقله، وهي نفسها المهمة التي حَثَّ طلابه على السّموِ إليها، إنَّ لسان حال رسائله يقول لهم: كونوا على أعلى مستوى من التوتر الروحي، اربطوا أنفسكم بأعمدة الوجود، تحركوا بحركته، واحيوا بحياته، انتقلوا من كونكم مستهلكين لحياتكم إلى مستثمرين لها، ومن أن تعيشوا إلى أن تحيوا، ما زمان مضى لم تكونوا موجودين فيه ولا زمان سيمضي لا تكونون موجودين فيه... ليبعثكم النفير القرآني من قبور أنفسكم قبل أن يبعثكم من قبور أجسادكم... إنَّه الإسراء من حرم الإسلام إلى أقصى الإيمان، ومن هناك إلى سدرة منتهى الإِحسان.[9]

* * *

الهوامش:

[*] ذ.أديب إبراهيم الدباغ: مركز النور للدراسات والأبحاث، إستانبول.

[1] ذكريات عن سعيد النورسي ص ٩٧-٩٨.

[2] الشعاعات ص ٢٥٢.

[3] الشعاعات ص ٢٥٢.

[4] الشعاعات ص ٢٥٥-٢٥٦.

[5] أنظر رسالة ''أنا''.

[6] سيرة ذاتية، ص ١٤٠.

[7] الشعاعات/ ٣٨٩.

[8] الشعاعات ٣٨٩.

[9] في إحدى اللقاءات مع طلاب النور، قال واحدٌ من المعنيين برسائل النور: أرى أن الأستاذ استطاع أن ينقلكم بسرعة عجيبة ومن خلال رسائله من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان. فأنتم ترون الله تعالى فيما تأخذون وتعطون، وتأتون وتتركون، فإن لم تكونوا تروه فإنه يراكم، وهذا هو مقام الإحسان كما ورد في الحديث الشريف.

الحكمة وفصل الخطاب
في منهج التربية عند النورسي

د. خالد الصمدي *

لماذا الحكمة وفصل الخطاب؟

أما الحكمة فمصطلح تكرر استعماله من قِبل الشيخ بديع الزمان النورسي في غير ما موضع من الرسائل مقترنا بالقرآن كقوله ''موازنة بين حكمة القرآن وحكمة الفلسفة'' و ''ثروة حكمة القرآن وغناها'' و ''حكمة القرآن وفلسفة الإنسان'' و ''حكمة تلاميذ القرآن وحكمة القرآن نفسه''.

والناظر في مصطلح الحكمة في رسائل النور واقترانها بالقرآن ''كخطاب'' والإنسان ''كمخاطب'' يدرك سر العلاقة القائمة بينهما في فكر الشيخ سعيد، فالقرآن خطاب أساسه التربية موجه للعالمين غايته الإصلاح، ومحوره ومقصده هذا الكائن العاقل المكلف وفق ما نزلت به الرسالة، المتأثر -سواء في عصر النورسي أو قبله أو بعده- بمؤثرات اقتصادية واجتماعية وسياسية، تقتضي هدايته ''من حيث الأسلوب'' خطابا حكيما تمتزج فيه سلاسة العبارة وتدرج وقعها على السامع بحسب الأحوال والأمكنة والأزمنة ''ومن حيث الجانب العلمي والمعرفي ''سهولة الإقناع وسيادة منطق المناظرة والحجاج ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ''ومن حيث الجانب النفسي والتربوي'' الدخول إلى الأعماق الغامضة الكامنة في النفس الإنسانية التي لا يعلم مكوناتها ومكنوناتها إلا خالقها من أجل إعادة بناء قواها ونفي الدرن عنها ''ومن حيث الجانب الواقعي'' النزول على حاجات الناس واهتماماتهم ومعالجة مشاكلهم بالنظر إلى ظروفهم المتغيرة.

ولن يكون هذا الخطاب إلا إلهيا، ولن تكون تلك إلا الحكمة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾. البقرة:٢٦٨

ولذلك لخص النورسي هذه المعاني حين صدر الكلمة الثانية عشر بهذه الآية حيث قال: ''هذه الكلمة تشير إلى موازنة إجمالية بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشير أيضا إلى خلاصة مختصرة لما تلقنه حكمة القرآن من تربية الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، فضلا على أنها تضم إشارة إلى جهة ترجح القرآن الكريم وأفضليته على سائر الكلام الإلهي وسموه على الأقوال قاطبة.''

وأما فصل الخطاب: فأقصد بها تلك الطريقة التي تبرز للعالم خصائص الخطاب القرآني من حيث لفظه وإعجازه وتفسيره وترجمته وفهم مشكلاته والعناية به وبمقاصده وعالميته ومنهجه وأسراره ودفع الشبهات عنه، وهذا لا يتأتى إلا لمن أتاه الله بسطة في العلم والفهم فامتلك فصل الخطاب.

وهذه القضايا أخذت من الرسائل الحظ الوافر، فقد كانت حاضرة كهواجس يومية في فكر النورسي، وقد آتاه الله من بلاغة القول وقوة الحجة ما جعله يبسط كل قضية ويفصلها بما يقنع ويمتع.

وقد امتلكتني هاتان القضيتان ''الحكمة 'كمفهوم تربوي' وفصل الخطاب 'كأسلوب لإبراز مكانة القرآن في بناء المعرفة' وأنا أقرأ فقرات رسائل النور بأجزائها التسعة، مستقرئا المادة العلمية التي تمكنني من مقاربة البعد التربوي للقرآن في شقه الفردي والجماعي كما بناه الفكر التربوي الإصلاحي لبديع الزمان النورسي، وسميت ما توصلت اليه بـ ''الحكمة وفصل الخطاب في منهج التربية عند النورسي بكلام منزل الكتاب''.

وسأحاول أن أقارب هذا الموضوع في محاور ثلاثة هي التالي:

١– التربية بالقرآن وتكوين شخصية النورسي.

٢– الحكمة في الفكر التربوي النورسي وبناءها من خلال القرآن.

٣– فصل الخطاب في الفكر التربوي النورسي للدفاع عن الكتاب.

ثم خاتمة.

١- التربية بالقرآن وتكوين شخصية النورسي:

لقد قرأت الخلاصة الجامعة التي كتبها الإمام سعيد في ملحق ''أميرداغ'' تحت عنوان ''الحقيقة القرآنية في الرسائل'' وقد اعتبرت هذه الفقرة جماع ما كان يقصد النورسي في تجربته الإصلاحية ملخصا محررا، وقد فضلت الانطلاق منها لأنها أثر لتكوين النورسي، وهو مقصدي للتفصيل في هذا المحور الأول من عرضي.

قال الإمام بديع الزمان: ''إن أجزاء رسائل النور، قد حلت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضحتها وكشفتها، وألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأوضحت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيدا عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج والحشر الجسماني، أثبتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم حظيرة الإيمان، فرسائل هذا شأنها لابد أن العالم وما حوله بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف ألماسي بتار في قبضة أهل الإيمان''.[1]

إن هذه النتيجة لها مقدمات، فكيف أثر القرآن تربويا في فكر النورسي حتى أبدع ما أبدع وصنف ما صنف وقاوم الابتلاء؟

إن قراءة متمعنة فاحصة في السيرة الذاتية لبديع الزمان النورسي في مختلف مراحلها، تؤكد حضور القرآن في مختلف مراحلها من النشأة وزمن الطلب، إلى فكرة مدرسة الزهراء، إلى المشاركة في الحرب والنفي والسجن والفرار منه والعودة إلى إستانبول، وظلم ذوي القربى برفع الدعاوى ضده، إلى نفي جثته.

ففي كل هذه المراحل كان التوجيه التربوي القرآني حاضرا، قال بديع الزمان تحت عنوان ''حياتي بذرة لخدمة القرآن'': ''لقد تحقق لدي يقينا أن أكثر أحداث حياتي قد جرت خارجة عن طرق اقتداري وشعوري وتدبيري إذ أعطي لها سير معين، ووجهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الكريم، بل إن كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن بالكلمات 'أي كليات رسائل النور' حتى لأنه في غضون هذه السنوات السبع من حياة النفي والاغتراب، ونفيي عن الناس دون سبب أو مبرر، وبما يخالف رغبتي، أمضي أياما من حياتي في قرية نائية خلافا لمشربي، وعازفا عن كثير من الروابط الاجتماعية التي ألفتها سابقا، كل ذلك ولد لدي قناعة تامة لا يداخلها شك من أنه تهيئة وتحضير لي للقيام

بخدمة القرآن وحده خدمة صافية لا شائبة فيها، بل أنني على قناعة تامة من أن المضايقات التي يضايقونني بها في أغلب الأوقات، والعنت الذي أرزح تحته ظلما إنما لدفعي بيد عناية خفية رحيمة إلى حصر النظر في أسرار القرآن دون سواها، وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك، وعلى الرغم من أنني كنت مغرما بالمطالعة، فقد وهبت لروحي مجانبة وإعراضا عن أي كتاب آخر سوى القرآن الكريم، فأدركت أن الذي دفعني إلى المطالعة التي كانت تسليتي الوحيدة في مثل هذه الغربة ليس إلا كون الآيات القرآنية وحدها أستاذا مطلقا لي''.[2]

وكان الإمام سعيد قد اتخذ هذا القرار بعد أن تمكن من علوم الآلة المعينة على فهم القرآن، حيث أتقن اللغة العربية وحفظ مئات المتون وناظر كبار العلماء من خلال التطواف والترحال إليهم في مراكز العلم حتى سلموا بقوة ذاكرته وحفظه ولقب ببديع الزمان

ومن المفيد أن يعرف قارئ هذا البحث صورا من معايشة النورسي للقرآن في محطات مختلفة من حياته، لأنها محطات يمتزج فيها التكوين بالتربية، بالأبعاد النفسية، بالمعاناة المعرفية، بالاشتغال بهموم الأمة ومستقبلها، وهذا ما يمكن أن يستفيد منه خدام القرآن بعد عصر النورسي، لأن خدمة القرآن رسالة خالدة، ومن جهة أخرى فهذه الصور التي تمتلئ بها رسائل النور تؤكد معادلة امتزاج القرآن بواقع الناس ويكشف منهجا في بناء التصورات الإصلاحية من القرآن نظريا وتطبيقيا لأنه يحرك مكامن القوة فيها.

أثر القرآن في تربية النورسي أول الطلب:

منذ أن تتلمذ سعيد على أخيه الكبير الملا عبد الله، بدأ يتنقل بين الأساتذة والمدارس في القرى والمدن يتلقى بدءا علوم اللغة العربية نحوا وصرفا، والتي هي مفتاح دراسة العلوم الإسلامية، فتوقد ذكاءه، واتسعت ذاكرته وحفظه، فجلس أول الأمر للإقراء والتدريس بالمسجد الجامع بمدينة ''ماردين'' حيث بدأ يجيب على أسئلة الناس ''فوشي به إلى الوالي، فأصدر أمرا بإخراجه وسيق إلى 'بتليس' فلما عرف واليها حقيقة هذا الشاب العالم ألح عليه أن يقيم معه، وهناك وجد الفرصة سانحة لمطالعة الكتب العلمية لا سيما علم الكلام والمنطق وكتب التفسير والحديث الشريف والفقه والنحو حتى بلغ محفوظه نحو ثمانين متنا''.[3]

واتسعت مطالب النورسي من العلوم حتى كانت الحيرة تنتابه أحيانا في ترتيب

الأولويات نظرا لولعه وشغفه بكل العلوم تلقيا عن الشيوخ، وللخروج من هذه الحيرة كان يقتطع لنفسه سويعات من التفكير والتأمل وفي هذا يقول: ''وحينما كنت أتفكر في هذه الحيرة الشديدة إذ بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على بالي ويهتف بي: إن بداية هذه الطرق جميعها ومنبع هذه الجداول كلها وشمس هذه المواكب السيارة، إنما هو القرآن الكريم، فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن، فالقرآن هو أسمى مرشد وأقدس أستاذ على الإطلاق، ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه''.[4]

التربية القرآنية والمحنة في حياة بديع الزمان

إن هذا الاستمداد وهذا الاعتصام بالقرآن جعلا بديع الزمان أكثر صلابة في مواجهة الصعاب وخاصة منها ظروف الأسر والنفي بعد الحرب العالمية الأولى، فتجد في الرسائل مشاهد يصف فيها الإمام ضيق نفسه وسوء حاله لولا فسحة الأمل التي ادخرها من تكوينه التربوي المتين بالقرآن وعلومه، ومنها قوله على سبيل المثال: ''تلك الليالي الطويلة الحزينة، وفي ذلك الجو الغامر بأسى الغربة ومن واقعي المؤلم، جثم على صدري يأس ثقيل نحو حياتي وموطني فكلما التفت إلى عجزي وانفرادي انقطع رجائي وأملي، وإذ أنا في تلك الحالة جاءني المدد من القرآن الكريم فردد لساني ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣] فأصبح عجزي وضعفي في تلك الليالي المحزنة الطويلة والحالكة بالفرقة والغربة وسيلتين للتقرب إلى عتبة الرحمة الإلهية، وشفيعين لدى الحضرة الإلهية حتى إنني لا أزال مندهشا كيف استطعت الفرار بعد أيام قليلة، وأقطع بصورة غير متوقعة مسافة لا يمكن قطعها مشيا على الأقدام إلا في عام كامل''.[5]

وفي موضع آخر من المكتوبات قال: ''وفكرت كيف يمكن أن تقاوم كل هذه الظلمات المتراكمة، وأنواع الغربة المتداخلة، فاستغاث قلبي قائلا: يارب أنا غريب وحيد ضعيف غير قادر عليل، عاجز شيخ لا خيار لي فأقول الغوث الغوث، أرجو العفو وأستمد القوة من بابك يا إلهي، وإذا بنور الأمان وفيض القرآن ولطف الرحمان يمدني من القوة ما يحول تلك الأنواع الخمسة من الغربة إلى خمس دوائر نورانية من دوائر الأنس والسرور، فبدأ لساني يردد ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣] وتلا قلبي الآية الكريمة ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ...﴾''.[التوبة:١٢٩] 6

لم يكن بديع الزمان ينقل هذه الصور من واقع حياته كما يكتب الأدباء سيرهم الذاتية، ولكنه كان يرسل رسائل إلى المجاهدين والمرابطين في كل وقت وكل مكان وزمان أن اركنوا إلى القرآن تسلوا قلوبكم وتتقوى عزائمكم ففي كل عبارة من سيرته عبرة تربوية من عبر ورثة الأنبياء الصالحين المصلحين، فهل من معتبر بعزة القرآن وعظمته؟ هذا لسان حاله وهو يسطر عبارات الأمل بعد الكلل، وكأنه يردد قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾الإنشراح:٦ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. الطلاق:٢-٣

٢- الحكمة في الفكر التربوي النورسي كما بناها من خلال القرآن الكريم:

إن هذا التكوين العلمي والتربوي، وهذا المحك الواقعي أثناء المحنة أورثا بديع الزمان حكمة تجلت في فكره التربوي نظرا وتطبيقا.فحين صنفت ما جمعت من نصوص مرتبطة ببيان الحكمة التربوية كما بناها النورسي من خلال القرآن الكريم، أظنني أستطيع أن أصنفها في المحاور الآتية:

- الحكمة في بناء التصور من خلال الموازنة بين حكمة القرآن وحكمة الفلسفة.
- الحكمة في تربية النفس والوجدان وتزكيتهما من خلا ل القرآن.
- الحكمة في التربية المعرفية أو (تعلم فصل الخطاب للدفاع عن الكتاب): وإليك التفصيل بعد الإجمال:

الحكمة في بناء التصور من خلال الموازنة بين حكمة القرآن وحكمة الفلسفة:

إن عناية النورسي بالإصلاح من خلال القرآن جعله يفكر في التي هي أقوم، لأن القرآن يهدي إليها، إلا أن طبيعة المخاطبين من المسلمين وغيرهم، تقتضي الحكمة لفت نظرهم إلى عظمة القرآن، عن طريق الموازنة بين مسلك القرآن ومسلك الفلسفة أو الفلسفات السائدة في تربية الإنسان، ولذلك صدر الكلمة الثانية عشرة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً﴾البقرة:٢٦٩ ثم لخص محتواها بقوله: "هذه الكلمة تشير إلى موازنة إجمالية بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشير إلى خلاصة مختصرة لما تلقنه حكمة القرآن من تربية الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، فضلا عن أنها تضم إشارة جهة ترجح القرآن الكريم وأفضليته

على سائر الكلام الإلهي، وسموه على الأقوال قاطبة".[7] وقد ذكر النورسي أسُسا أربعة تفصل بين حكمة القرآن وحكمة الفلسفة:

– القرآن ينظر إلى الجوهر والفلسفة تنظر إلى المنظر.

– تربية القرآن للفرد روحية، وتربية الفلسفة نفعية.

– تربية القرآن للجماعة تربية على الحق والتعاون لنيل رضا الله، وتربية الفلسفة تربية على المنفعة والصراع والتزاحم.

– سمو القرآن على سائر الكلام الإلهي لأن القرآن كلام الله والباقي كلمات إلهية

والجميل في تفصيل بديع الزمان لهذه الأسس الأربعة، كونه يستمد من القرآن منهجه في ضرب المثل، ثم يستنتج من ذلك قاعدة بارعة، أو حكمة صامتة تنطق حينما تقرأ، قال بديع الزمان: "إذا أردت أن تعقد موازنة ومقارنة بين حكمة القرآن الحكيم والعلوم الفلسفية... فإن القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة، إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة... أما معجزات الفلسفة فهي تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية تحت غطاء الألفة والعادة".[8] وبعد أن ضرب الأمثال قال: "فشاهد في ضوء هذه الأمثلة ثروة القرآن الطائلة وغناه الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة، وإفلاس الفلسفة وفقرها المدقع في دروس العبرة والعلم بمعرفة الصانع الجلي.

لا يهمنا في هذا المقام أن نكرر كلام بديع الزمان، فهو مسطر مبسوط في الكلمات خاصة والكليات عموما، لكن الذي يهمنا هنا هو القاعدة التي يعتمدها الرجل في بناء معرفة متكاملة عن القرآن، إذ أن منهج الموازنة والمقارنة هو المنهج الأمثل لعصر ساد فيه بريق الفلسفة المادية وخبا فيه نور القرآن، وهو الأسلوب الأنجع للتذكير والبيان حتى توتي الكلمة الطيبة أكلها بإذن ربها، والحالة هذه أن الرجل يعايش عالما تتأرجح كفتاه بالفلسفة المادية الخارجة للتو في قوة وعنفوان، مدعمة ماديا وحتى عسكريا، وجيل القرآن الذي وإن بقي في القلوب فإنه غشيها درن، والسبيل لصقله إبداع منهج جديد لفقه القرآن، وإعادة اكتشاف ما تجدد من أسراره، ولذلك كثرت مواضيع هذه الموازنات بين حكمة القرآن وحكمة الفلسفة في غير ما موضع من الكلمات بما يشعرك أن الرجل يصنع نموذجا، ثم ينظر إليه بإمعان، ثم يسارع إن ظهر اعوجاج إلى مزيد من السبك والصقل، حتى يبدو هذا الصنيع في أبدع صورة، ولذلك نجد الرجل

يعود إلى هذا الموضوع كلما عايش المجتمع واستمع إلى أفكاره ونظر إلى واقعه، فإذا وجد ما يستدعي التذكير ذكر، وخلاصة ذلك قوله في الكلمة الخامسة والعشرين، حين وازن بين الحكمتين في النظر إلى الدنيا، فحكمة القرآن تنظر إليها أنها عابرة سيالة، وحكمة الفلسفة البشرية تنظر إليها أنها ثابتة.

لقد قدر للنورسي أن يعيش حياة يختبر فيها هذا الذي ذكره نظريا، وكأن الله أراد لفكرته الإصلاحية أن تحتك بالواقع حتى توتي أكلها، وكانت له مراجعات مع نفسه تتجاذبها الحكمتان في كل حين، قال في بعضها: ''بينما كنت في هذه الحالة إذا بحكمة القرآن تسعفني رحمة من العلي القدير، وفضلا وكرما من عنده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية وطهرت روحي منها، كما هو مبين في كثير من الرسائل، إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أدري نورا ولا أجد قبسا، ولم أتمكن من التنفس والانشراح حتى جاء نور التوحيد النابع من القرآن الكريم الذي يلقن لا إله إلا هو، فمزق ذلك الظلام وبدده وانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان''.[9]

العجيب في حياة النورسي أن إنتاجه التربوي النظري كان نتيجة معاناة وتفكير، وهما معا كانا نتيجة هذا الإنتاج النظري، وهكذا البذرة لا تنمو حتى يحفر لها وتطمر، فإذا سقاها ماء الجهاد والمعاناة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وهذا هو الفرق بين حكمة القرآن التي لها جذور عميقة في النفوس بحكم الفطرة، وحكمة الفلسفة التي لا أصل لها إلا نزعات ظرفية شهوانية مادية ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء﴾. إبراهيم:٢٦-٢٧

الحكمة في تربية النفس والوجدان وتزكيتهما من خلال القرآن:

حين تأملت كلام النورسي عن رسالة القرآن ومقاصده في التربية النفسية وتنمية الوجدان، وبعد حصر الفقرات المتعلقة بهذا أستطيع أن أخلص إلى أن هناك مقصدين مركزيين استنبطهما النورسي من القرآن يتعلقان بالموضوع:

– علاج الأدواء النفسية بالتربية القرآنية.

– دور التربية القرآنية في تنمية الوجدان وتقوية الجنان.

أ- علاج الأدواء النفسية بالتربية القرآنية:

إن المتصفح لرسائل النور يجد المؤلف يلخص كلامه في قواعد تربوية جامعة، يشخص فيها الداء ويأخذ من القرآن الكريم وصفة مستخلصة من عباراته وألفاظه وأحكامه ومقاصده، ''ففي القرآن الكريم علاج للمبتلين بالوسوسة''، ''والقرآن حجة على الشيطان وحزبه''، ''وبشارة القرآن تعود إلى وجدان الدواء في الداء نفسه''، ''وتحول الحزن إلى سرور بنور القرآن''، ''والتحذير من ختم القلب من خلال القرآن''، ''والقرآن علاج للأدواء بالصبر والسلوان'' هذه مقتطفات من عناوين في التربية النفسية بالقرآن، تضم تفاصيل ممتعة من الفكر التربوي للإمام سعيد في رسائله.

والحق أقول أن المطلع على الكتابات الحديثة في علم النفس التربوي والمشتغل به من وجهة نظر إسلامية لا يستنكف أن يؤكد على أثر الصبر في الشفاء، وإبراز دور الإيمان في العلاج وبناء الصحة النفسية، وأثر الدعاء عند الابتلاء في تجاوز الأزمات، وعلاج حالات الاكتئاب، وغيرها من المباحث المهمة.

ولا يخفى أن المحن التي مرت ببديع الزمان من نفي وسجن وتغريب وملاحقة واضطهاد، جعلت الرجل يخبر الأدواء ويجرب ذلكم الدواء ''تربية النفس بالقرآن'' فحقق من النتائج الباهرة في قوة النفس على المواجهة، ما جعله يبسط صورا في رسائله عبرة لمن بعده، وليؤكد للعالمين بالملموس معنى قوله تعالى: ﴿اَلاَ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.[الرعد:٢٧] فقد قسم الصبر على سبيل المثال في المكتوب الثالث والعشرين إلى أنواع ثلاثة ''صبر على المعصية، فهذا الصبر هو التقوى ويجعل صاحبه محظيا بسر قوله تعالى: ﴿اَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:١٢٣] وصبر على المصيبة، وهذا هو التوكل، مما يدفع صاحبه الى التشرف بقوله تعالى: ﴿اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾،[آل عمران:١٥٩] ﴿وَاللّٰهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾،[آل عمران:١٤٦] أما عدم الصبر فهو يتضمن الشكوى من الله، الذي ينتج انتقاد أفعاله، واتهام رحمته، ورفض حكمته... ولكن يجب أن تكون الشكوى إليه كما قال سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا اَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّٰهِ وَاَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[يوسف:٨٦] والصبر الثالث: الصبر على العبادة، الذي يمكن صاحبه من أن يبلغ مقام المحبوبية فيساق إلى حيث العبودية الكاملة التي هي أعلى مقام''.

هكذا تجد الرجل يستعرض لحظات من حياته وسيرته، سواء في أسره، أو في تأملاته الذاتية على أطراف إستانبول بعد عودته من الأسر وتوليه عضوية دار الحكمة الإسلامية، أو أثناء خلوته بعد ذلك، فينطلق لسانه بما يختلج في نفسه من تحسر على

واقع الناس، وتصورهم للحياة واستشراء مرض الغفلة عن الآخرة بينهم، يصور كل ذلك بعبارات تأسر اللب ثم لا يلبث أن ينتشلك من كل ذلك بالرجوع إلى القرآن أصل كل دواء.

وفي اعتقادي أن أحسن ما كتب في علاج الأدواء النفسية م، ما كتب النورسي في اللمعة الخامسة والعشرين، وهي خمسة وعشرون دواء صدرها بقوله: ''هي عيادة للمريض، وبلسم للمرضى، ومرهم تسلية لهم، ووصفة معنوية، وقد كتبت بمثابة القول المأثور 'ذهب البأس والحمد لله على السلامة' ومنطلقها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾،البقرة:١٥٦ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾''،الشعراء:٧٩-٨٠ ويختم ذلك بقوله في الدواء الخامس والعشرين: ''أيها الاخوة المرضى، إذا كنتم تشعرون بحاجة إلى علاج قدسي نافع جدا، وإلى دواء لكل داء، يحوي لذة حقيقية، فمدوا إيمانكم بالقوة واصقلوه بالتوبة والاستغفار والصلاة والعبادة والعلاج القدسي المتمثل في الإيمان''.

ب- دور القرآن في تنمية الوجدان وتقوية الجنان:

وهنا نجد بديع الزمان يكتب عن الصراط المستقيم وقوي الإنسان، وأدب وفائدة الاستماع إلى القرآن، ويصف قبسات من رياض القرآن، ويسرد بعضا من صور هداية القرآن، وصفات الذين هم على هدى من ربهم، ووصف لشعاع القرآن، وغيرها من المباحث التي قصد منها تربية الوجدان وتهذيب طاقات الإنسان وقواه.

ففي إشارات الإعجاز قال: ''اعلم أن الصراط هو العدل الذي هو ملخص الحكمة والعفة والشجاعة التي هي أوساط للمراتب الثلاث للقوى الثلاث، توضيحه أن الله ﷻ لما أسكن الروح في البدن المتحول المحتاج، المعروض للمهالك أودع لإدامتها فيه قوى ثلاث:

- القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع.
- القوة الغضبية السبعية الدافعة للمضرات والمخربات.
- القوة العقلية الملكية المميزة بين النفع والضرر.

لكنه تعالى بحكمته المقتضية لتكمل البشر بسر المسابقة، لم يحدد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات، وإن حددها بالشريعة لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط وتأمر بالوسط، يصدع بهذا قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ﴾.هود:١١٢ وبعدم

التحديد الفطري تحصل مراتب ثلاث، مرتبة النقصان وهي التفريط، والزيادة وهي الإفراط، والوسط وهي العدل.‘‘[10]

ولقارئ الرسائل أن يتتبع دررا من هذا في تفسير سورة الفاتحة وآي من سورة البقرة، وقد خصص بديع الزمان أيضا في المثنوي الذي يعد مشتل رسائل النور وغراسها. كما قال الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في مقدمة تحقيقه للكتاب فصولا كلها تقصد تقوية الوجدان بنور القرآن، وترشيد استخدام طاقات الإنسان المحدودة، في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

٣- فصل الخطاب في الفكر التربوي النورسي للدفاع عن الكتاب:

إن ملكة الفهم والإدراك والتفكير، تحتاج إلى تربية، ولن تكون رسالة الإصلاح حين تكون إلا بعد بناء التصورات السليمة عن طريق الحكمة في التعبير وحسن الفهم والتفكير، وقد قرر القرآن الكريم هذا قواعد في أساليب الخطاب والحوار والإقناع قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾،آل عمران:١٥٩ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا اَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾،آل عمران:٦٤ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا اَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ﴾،العنكبوت:٤٦ ودعا القرآن الكريم أكثر من غيره إلى إعمال الفكر والبصيرة والنظر في الكون المنظور والمسطور.

والإمام بديع الزمان يعلم من خلال الصراع الفكري في واقعه، أنه محتاج إلى إبراز نور القرآن بأساليب وطرق تجعله ظاهرا على غيره، وقصده من ذلك أمران:

١- بناء قناعة أبناء القرآن المؤمنين به على أساس صلب.

٢- نفي الشبهات والأباطيل عن القرآن والتي يثيرها الخصوم حتى يحجبوا نوره عن الناس.

إن تحقيق هذين المقصدين، يحتاج إلى بناء حس معرفي عند أبناء أمة الدعوة، وهذا لن يكون إلا بتربية ملكات الفهم والتفكير والتحليل والتعليل والنقد والتعزيز وتوظيف الوسائل المناسبة، وهو ما أسميته‘‘ بالتربية المعرفية‘‘ وقد أودع الله القرآن من أسرار المعرفة وأدوات فصل الخطاب دررا وعبرا.

إن الناظر في رسائل النور يجد الإمام بديع الزمان يتحدث عن أربعة جوانب في بناء المعرفة من خلال القرآن:

١- قراءة في بنية القرآن من الداخل:

وفي هذا تجده يبسط الكلام عن حكمة الإطلاق في القرآن، وحكمة التكرار في القرآن، والمشكلات القرآنية، والحروف القرآنية، ودلالة القرآن وبيان عظمتها، وتأملات في آيات بينات، ورحمة القرآن في مراعاة أفهام العوام.

٢- قراءة في بنية القرآن من حيث تنزيله:

وفيه تجد الكلام مبسوطا عن التعريف بالقرآن، وهداية القرآن، والقرآن والرسول، ورياض القرآن، ودليل الاختراع في القرآن، وهيمنة القرآن على الرسالات السماوية السابقة.

٣- قراءة في مقاصد القرآن:

وفيه تجد بسط الكلام عن مقاصد القرآن الأربعة، وحكمة القرآن، وبيان نظائر الحقائق القرآنية، وثروة حكمة القرآن وغناها، وذكر القرآن لبعض الغايات.

٤- قراءة في منهج القرآن وكيفية التعامل معه:

وتجد في هذا مباحث مثل: منهج القرآن كعصا موسى، والسورة الواحدة قرآن، وشمولية القرآن وموازينه، وجامعية القرآن، ومهمة المفسر ونهج القرآن، وكتاب الكون تفسير للقرآن، ودفع الشبهات عن القرآن، ومحاولة لترجمة القرآن.

إن هذه التقسيمات الأربعة التي تشكل قراءة غنية لبنية القرآن كفيلة بأن تحقق التربية المعرفية لجيل الدعوة الإصلاحية كما يصورها مشروع بديع الزمان النورسي، ففي فهم تنزلات القرآن يقين بمصدره، وفي فهم خطابه وأسلوبه استلهام لحكمته، وفي بيان مقاصده توسيع لأبعاده وإشعاعه، وفي معرفة منهجه وكيفية التعامل معه أدب وحسن استنباط، وتلك أسس لا تمتلكها مصادر الخطاب الأخرى الوضعية الموجهة للإنسان.

قال بديع الزمان في بيان مقاصد القرآن الأربعة: ''إن المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأساسية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة... وكما تتراءى هذه المقاصد الأربعة في كله، كذلك قد تتجلى في سورة من سوره، بل قد يلمع بها في كلام كلام، بل قد برمز إليها في كل كلمة كلمة... إن قلت أرني هذه المقاصد الأربعة في باسم الله والحمد لله قلت: لما أنزل ﴿باسم الله﴾ لتعليم العباد كان ''قل'' مقدرا فيه، وهو الأم في تقدير الأقوال القرآنية، فعلى هذا يكون في ''قل'' إشارة إلى الرسالة، وفي ﴿باسم الله﴾ رمز إلى الألوهية، وفي تقديم الباء تلويح إلى التوحيد، وفي

﴿الرحمن﴾ تلميح إلى نظام العدالة والإحسان، وفي ﴿الرَّحِيم﴾ إيماء إلى الحشر''.[11]

وبهذا المنهج المعرفي استطاع بديع الزمان أن يبني نسقا علميا متميزا في التعامل مع التراث الإسلامي كله يلخصه قوله: ''إن أركان الدين وأحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له وهي تشمل سبعين في المائة من الدين، أما المسائل الخلافية التي تحتمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه.''[12] ثم يدعو إلى اعتماد هذا المنهج في التربية والتعليم والتوجيه المعرفي في قوله: ''فلو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبني على الرغبة والتوجيه، الناشئة الحاجة إليه، أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن مهيمنا هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة منفذة كليا، وما كان يظل كتابا مباركا يتبرك به فحسب.''[13]

كتبت هذه الفقرة في سياق حديث النورسي عن كيفية التعامل مع القرآن وكتب الحديث والفقه كموطأ مالك والفقه الأكبر لأبي حنيفة وغيرهما، إذ يعتبر هذه الأصول مغنية عن الفروع، وإن تشتيت أذهان الناس بالقضايا الفرعية التي هي جداول العلم، تصرفهم عن الأنهار والبحار التي لا تكدرها الدلاء.

ويتذكر الباحثون المختصون في الغرب الإسلامي دعوة مماثلة لأمير الموحدين أبي يعقوب يوسف المنصور (١١٨٤-١١٩٩م) الذي دعا إلى إحراق كتب الفروع، ينقل صورتها الفقيه ابن الجد في قوله: ''لما دخلت على أمير المسلمين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر انظر في هذه الآثار المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا عبد الله المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر، فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي -وقاطع كلامي-، يا أبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى سنن أبي داود.'' الإحالة

ينطبق هذا تماما مع توجهات النورسي الإصلاحية في المجال التعليمي والتربوي حين قال: ''هذا وإن هناك خطرا عظيما في مزج الضروريات الدينية مع الجزئيات الفرعية الخلافية وجعلها كأنها تابعة لها''.

وهكذا توحد تشخيص هذا الداء المعرفي في جسم الأمة الإسلامية منذ زمن أبي يعقوب المنصور الموحدي في القرن السادس الهجري غربا، وبديع الزمان النورسي في القرن الرابع عشر الهجري شرقا، غير أن أبا يعقوب كان يملك قوة السلطان التي لم

يملكها بديع الزمان، ومهما اختلفت وسائل نشر الفكرة فإن المصلحين ينظرون من مشكاة واحدة وإن تباعدت الأزمان.

فإذا نظرت إلى هذا ومثله في رسائل النور، علمت ما أوتي الرجل فصل الخطاب وهو ينظر إلى القرآن بنفس العالم المجرب المحتك بواقعه، المنزل للآيات على ملابسات الناس وحاجاتهم وفق مقاصد القرآن وغاياته، والرجل وقد امتلك هذا النفس، يريد أن يصنع بمنهج القرآن وأسلوبه من يفكر، ويفهم، ويعلم، ويدعو، بهذا المنهج.

القرآن الكريم والمشروع التربوي التعليمي لبديع الزمان (فكرة مدرسة الزهراء):

إن هذا النضج المعرفي والمنهجي كوّن لدى الإمام سعيد قوة دفع إصلاحية بالقرآن وللقرآن، فاصطبغ بصبغته وصقلت به فطرته ورسم في ضوئه مستقبل تفكيره في إصلاح واقع الأمة انطلاقا من ميدان التربية والتعليم، فقرر أن يخرج مشروعه إلى الوجود بإنشاء مدرسة لتلقين هذا النهج، فكانت فكرة إنشاء مدرسة الزهراء،

ولئن كانت حادثة مجلس العموم البريطاني من الأسباب التي حفزت الإمام الى إنشاء موقع علمي للدفاع عن القرآن ونشره، فإن أساس الفكرة الأصيل هو هذا البناء المعرفي القرآني الذي ترسخ في وجدان الإمام ووعيه فأراد أن ينشره بوسائل العصر، وعلية تكون أسباب دعوة النورسي إلى إنشاء مدرسة الزهراء مرتبة كما يأتي:

١– هيمنة فكرة الدعوة القرآنية على التوجه المعرفي والوجداني لبديع الزمان وسعيه إلى إيجاد أتباع و ''مريدين'' لهذه الفكرة.

٢– تقويمه لوضعية تدريس العلوم الدينية المنتشرة في أنحاء الدولة، فهناك اضطراب في تصنيف العلوم، وقصور في بناء المناهج، يقول بديع الزمان: ''إن السبب المهم الذي أدى إلى تدني علوم المدارس الدينية وصرفها عن مجراها الطبيعي هو أن العلوم الدينية لما أدرجت في عداد العلوم المقصودة أصاب الإهمال العلوم العالية، إذ سيطر على الأذهان حل العبارة العربية التي لباسها في حكم معناها، وظل العلم الذي هو أصل القصد تبعا، زد على ذلك أن الكتب التي أصبحت في سلسلة التحصيل العلمي رسمية وعباراتها متداولة إلى حد أن هذه الكتب حصرت الأوقات والأفكار في نفسها ولم تفسح المجال للخروج منها''.[14]

٣– وعيه التام بالمؤامرات التي يحيكها الخصوم للقرآن الكريم يقول: ''قبل خمسة وستين عاما أخبرني وال من الولاة أنه قرأ في الصحف بأن وزير المستعمرات البريطاني خطب وبيده نسخة من المصحف الشريف قائلا: 'إننا لا نستطيع أن نحكم المسلمين ما دام هذا الكتاب بين أيديهم، فلا مناص لنا أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به' وهكذا دأبت المنظمات المفسدة الرهيبة على تحقيق هتين الخطتين: إسقاط شأن القرآن الكريم من أعين الناس، وفصلهم عنه، فسعوا في هذا المضمار سعيا حثيثا، إضرارا بهذه الأمة المنكوبة البريئة المضحية. وقد قررت قبل خمس وستين سنة أن أجابه هذه المؤامرات الخطرة مستمدا القوة من القرآن العظيم، فألهمني قلبي طريقا قصيرا إلى الحقيقة وإنشاء جامعة ضخمة''.[15]

٤– كما كان الشأن بالنسبة لقاسم بن أصبغ البياني محدث الأندلس المتوفى سنة ٣٤٠هـ والذي ألف كتابا في الحديث على نحو كتاب المنتقى لابن الجارود لأنه لم يكتب له اللقاء به وفاته السماع منه لأنه وجده قد مات، فإن إنشاء جامعة الزهراء كانت رغبة دفينة في نفسية بديع الزمان، لأنه أراد الذهاب إلى الأزهر فلم يكتب له ذلك، فقرر إنشاء جامعة على غراره في المشرق الإسلامي، يشع منه نور الإسلام على كل آسيا.

وهكذا كان ديدن العلماء، إذ يجعلون من كل قدر قدرا، فهم من قدر الله إلى قدره، منشغلين بما يحقق صلاح الأمة، قال بديع الزمان: ''قبل خمس وستين سنة أردت الذهاب إلى الجامع الأزهر باعتباره مدرسة العالم الإسلامي لأنهل فيه من العلوم، ولكن لم يكتب لي فيه نصيب، فهداني الله إلى فكرة وهي: أن الجامع الأزهر مدرسة عامة في قارة إفريقيا فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غراره، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا إلى إفريقيا.''[16]

الإبداع التربوي والتعليمي للنورسي في صياغة المشروع:

ومن نبوغه التربوي والتعليمي أنه لم يقترح المشروع نظريا بل كان يملك تفاصيله من حيث الأهداف والمناهج والوسائل والآفاق.

– تحديد الأهداف:

كانت المقاصد والأهداف الكبرى للمشروع محددة وواضحة لدى بديع الزمان وكانت خدمة القرآن ورسالته محورها، وقد صاغها كما يأتي:

أ– قوية الأخوة الإسلامية وتمتين رابطتها إذ يقول: ''وذلك لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران والقفقاز وتركستان وكردستان، وذلك لأجل إنماء الروح الإسلامية التي هي القومية الحقيقية الصائبة السامية الشاملة، فتنال شرف الامتثال للدستور القرآني ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾''. الحجرات:١٠ 17

ب– تصالح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين وتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة

ج– التصالح بين أهل المدرسة الدينية والمدرسة الحديثة، وأهل الزوايا وجعلهم يتحدون على الأقل في المقصد.

د– توحيد المدارس الدينية وإصلاحها.

هـ– إنقاذ الإسلام من الأساطير والإسرائيليات والتعصب الممقوت.

والناظر في طبيعة الأزمة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية في هذا الزمان يقر بواقعية هذه الأهداف المسطرة وانسجامها مع متطلبات الإصلاح، وكثيرا ما فشلت التجارب الإصلاحية، إما لكون أهدافها غير محددة بوضوح، أو بعيدة عن الواقع ومثالية أكثر من اللازم، بحيث تبقى نظرية ولا تجد طريقها للتنفيذ.

صياغة البرامج والمناهج الدراسية:

ولتحقيق هذه الأهداف الكبرى حدد الإمام بديع الزمان خطوطا عريضة للبرامج والمناهج الدراسية ورسم توجيهات حتى في طرق التدريس وأهمها:

– مزج العلوم الكونية الحديثة ودمجها مع العلوم الدينية.

– جعل اللغة العربية واجبة، والكردية جائزة، والتركية لازمة.

– الاستشارة باستعداد الأكراد وقابليتهم، وجعل صباوتهم وبساطتهم نصب العين وتعليم الأطفال قد يكون بالقسر أو بمداعبة ميولهم.

– فتح باب لنشر محاسن المشروطية والحرية والاستفادة منها.

– جعل امتحانات هذه المدارس كامتحانات المدارس الحديثة دون تركها عقيمة ضمانا لتقدم الخريجين واستفاضتهم وتقدمهم وتساويهم مع خريجي المدارس العليا

توجيهات في هيكلة نظام المؤسسة:

– أن تسمى باسم المدرسة لأنه مألوف ومأنوس وجذاب.

– تطبيق قاعدة تقسيم الأعمال بحذافيرها حتى يتخرج من كل شعبة متخصصون مهرة مع أن مداخل ومخارج بعضها ببعض ''وهو ما يسمى في النظام التربوي والتعليمي المعاصر بمسالك التكوين ومد الجسور بينها''.

– اتخاذ دار للمعلمين مؤقتا ركيزة للمدرسة ودمجها معها ليسري الانتظام والاستفادة من العلم.

مصادر التمويل:

إن مشروعا تعليميا وتربويا كهذا المشروع الطموح، لم يكن ليعزب عن بال صاحبه أن يبحث له عن مصادر التمويل، لذلك لما سئل بديع الزمان في المناظرات التي عقدها مع السلطات حول المشروع ''ما وارداتها؟'' أجاب: ''الأوقاف لو انتظمت تنظيما حقيقيا، ثم الزكاة فإذا أبدت مدرسة الزهراء بعد حين خدماتها للإسلام، فلا ريب أن يتوجه إليها قسم من الزكاة، ثم النذور والصدقات التي هي من جملة التكافل الاجتماعي في الإسلام، ثم الإعارة من المؤسسات المماثلة مؤقتا إلى حين الاستغناء ثم ترد بعد ذلك لأهلها.''[18]

إن نضجا كهذا في الرؤية التربوية والتعليمية كفيل بأن يجعلنا نستنتج أن الرجل استلهم من القرآن رؤيته المعرفية الإصلاحية، وجعل من الواقع وحاجة الناس معمل اختبار، وناظر من أجل إنجاز فكرته فجمع في مشروعه بين النظر والتطبيق، ولعمري إن مفاتيح هذا الميدان لتنوء بالعصبة أولي القوة.

خلاصة:

إن هذا التكوين التربوي والعلمي من خلال القرآن لبديع الزمان، وهذه التجربة الثرة، الذي ارتشفنا من بحرها قطرات، وهذا الأنس بالقرآن في ساعات الوحشة والعبرات، هو الذي تجلى بوضوح ولخص ما أنتجه أثناء الأسر وبعده من زلال العلم وفيض الحكمة في رسائله التي لخصها في قوله عن البداية: ''وأول آية كريمة التمعت لعقلي وقلبي، وشغلت فكري هي ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾النور:٣٥ وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلهية هو اسم ''النور'' من الأسماء الحسنى، ولشدة شوقي نحو القرآن وانحصار خدمتي فيه، فإن إمامي الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه''.[19]

وقوله عن النهاية: ''إن الحقائق الموجودة في الكلمات ليست من بنات أفكاري، ولا تعود إلي أبدا وإنما للقرآن وحده، فقد ترشحت من زلال القرآن حتى إن الكلمة الحادية عشرة 'رسالة الحشر' ما هي إلا قطرات ترشحت من مئات الآيات القرآنية الجليلة، وكذا الأمر في سائر رسائل النور''.

وهكذا فالرسائل في خدمة القرآن، وبديع الزمان لم يرض لنفسه لقبا سوى ''خادم القرآن''، وقد سعيت لأبرز بعض الدرر التربوية للرسائل كما استنبطها النورسي من خلال القرآن المصدر الرئيسي لفكره الإصلاحي، وإن كنت أعترف أنها بعض من كل وغيض من فيض، والله المستعان.

* * *

الهوامش:

* د. خالد الصمدي: رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية.

[1] الملاحق، ملحق أميرداغ، ص: ٢٤٨.

[2] السيرة الذاتية، ص: ١٠.

[3] المصدر نفسه.

[4] السيرة الذاتية، ص: ١٦٢.

[5] اللمعة السادسة والعشرون، ص: ٣٦٠.

[6] المكتوب السادس، ص: ٣٠.

[7] الكلمة الثانية عشرة، ص: ١٤١.

[8] صيقل الإسلام، المحاكمات، ص: ٦٤.

[9] السيرة الذاتية، ص: ١٥٢.

[10] إشارات الإعجاز، ص: ١٣٢.

[11] إشارات الإعجاز، ص: ٢٤.

[12] صيقل الإسلام / السانحات، ص: ٣٤٧.

[13] صيقل الإسلام / السانحات، ص: ٣٤٩.

[14] صيقل الإسلام/محاكمات، ص: ٦٧.

[15] السيرة الذاتية، ص: ٤٩٩.

[16] السيرة الذاتية، ص: ٥٠٠.

[17] السيرة الذاتية، ص: ٥٠٠.

[18] السيرة الذاتية، ص: ٥٠٤ بتصرف.

[19] سيرة ذاتية، ص: ٢٣٦.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ عبد الله يكن*

تحتاج كتابة تاريخ المجتمع، لأجل المجتمع والأمة، الاستعانة بمن هيّأهم الله ليكونوا شهودا، على من أجرى الله على أيديهم صناعة التاريخ الإيجابي النافع، أو كانوا مِنْ مَنْ أجرى الله على أيديهم صنّاعته، سواء بمفردهم أو مع غيرهم من الصالحين مِنْ مَنْ أكرمهم الله بهذه المكرمة، وهي فترة عرفت بالسعي الدءوب إلى حماية مكاسب التديّن والتمكين له إثباتا (بإقامة حججه والمحاجة عنه) وتثبيتا (بحماته من الاندثار) في ظل الرغبة الجامحة في استئصاله.

كانت هذه الجهود المباركة، مما أجراه الله على أيدي الصالحين من عباده، وسيلة فعّالة لإنقاذ الإيمان بالتمكين لحقائق القرآن الكريم، وكان على رأس هؤلاء المصلحين الأستاذ بديع الزمان النورسي.

لأجل التأكيد على القيمة التاريخية لهذه الشهادات اختارت المجلة محاورة أوائل طلبة الأستاذ بديع الزمان النورسي، لأنّهم شهود على الرجل وقبل ذلك شهود على رسائل النور ولادة واكتمالا ونسخا ونشرا وما ترتّب عليها من معاناة وتضحيات لا يعرفها إلاّ من عايشها، نستهل الحلقة الثانية من حوارات المجلة مع من عايش حياة رسائل النور بمعايشة الأستاذ بديع الزمان، بمحاورة الأستاذ عبد الله يكن.

الأستاذ عبد الله يكن السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد

بما أنّكم عايشتم فترة مهمّة من تاريخنا المعاصر، فإنّ محاورتكم تحقق المقاصد المشار إليها في مقدمة الحوار.

نسعى من خلال محاورتكم معرفة مجمل مناحي حياة الأستاذ كما عايشتها، وبهذا الصدد رُمْنا تحقيق القول فيما يأتي:

١. النورسي الإنسان (اجتماعيا، وتربويا، وسياسيا...).

٢. النورسي الأستاذ (طريقته في التربية والتعليم، وطريقته في النصيحة، وطريقته التعامل مع من عاداه...).

٣. النورسي الباحث، طريقته في الرد على الشبهات والتشكيك في الإيمان وأهله.

٤. النورسي المُنَظِر المُصْلِح.

٥. مجموع ما سبقت الإشارة إليه، يخدم بامتياز مقصد كتابة تاريخ فكرة إصلاحية وأهم رجالها، ومناحي الاستفادة منها.

متى تعرّفتم على الأستاذ، وكيف؟

من أراد أن يعرف الأستاذ بديع الزمان النورسي عليه بقراءة رسائل النور، أما عن الذكريات فكثير منها ضاع، وقد تخونني الذاكرة في استحضار كثير منها.

نحاول استخراج شيء منها من خلال الحوار، أكرر السؤال متى تعرّفتم على الأستاذ، وكيف؟

تعرّفت على الأستاذ عام ١٩٤٠م عندما كنت في السنة الثانية من التعليم المتوسط.

أثناء زيارتكم له مع صديقكم رفعت.

سألت صديقي في الصف رِفْعَتْ عن عالم يسكن قرب مخفر الشرطة (وكان ذلك في قسطموني)، هل يمكن أن نزوره، فقال رفعت هو جارنا يمكن أن نزوره، فزرناه فحدّثنا عن الإيمان والوحدانية ووظيفة الإنسان في الكون.

ذكر في السيرة الذاتية للأستاذ أنّكم عند اللقاء بالأستاذ تشعرون كأنّكم ولدتم من جديد، نريد أن نفهم.

الحمد لله، ففي الوقت الذي كان الشباب طائشا كنا ونحن في مقتبل العمر (١٦-١٧) شبابا متديّنين طمعا في دار البقاء، كنا كذلك كان مجرّد الحديث عن الدين رجعية وتخلّفا ومدعاة للسخرية فضلا عن كونه ممنوعا.

في هذه الفترة ماذا كان يمثّل الأستاذ بالنسبة إليكم؟

ولدت وترعرت في أسرة دينية، وذكر لي والدي بأنّ الأستاذ اختير لعضوية دار الحكمة لأنّه كان عالما في الحديث النبوي الشريف وعالما بارزا، وما عرضت عليه سؤالا في أوائل الاتصال به، بل عرضتها بعد سنتين من اللقاء به.

أما بالنسبة للأستاذ فقد كنا نسمع من الناس في ذلك الوقت بأنّه سيخلّص الإنسانية، ولما تعرّفت عليه كما عادته في أوّل لقاء له بالناس سألني عن اسمي أسرتي ثم بدأ الحديث معي عن القبر وأنّ هناك حياة أبدية بعد الموت كما حدّثني عن عالم البرزخ، وذكر أنّه يحاور الشباب الذي لم يفقد عقله؟

ماذا كان يميّز الأستاذ عن علماء زمانه من المصلحين؟

من أهمّ ما يميّزه أسلوبه في عرض الحقائق الإيمانية، فقد كان يركّز على الأدلة

العقلية المنطقية والقلبية في عرض حقائق القرآن الكريم، كان يفعل ذلك بالرغم من كونه منفيا من سجن اسكي شهر، وفضلا عن ذلك كان يسكن قبال مخفر الشرطة وممنوع من الزيارة، بينما كان علماء زمانه للضغط الممارس عليهم لا يتناولون إلا بعض المسائل الفقهية الفرعية المتعلّقة بالصلاة والعبادات فقط.

ونحن نقرأ تاريخ الأستاذ نلاحظ أنّه قدرة فائقة على استيعاب الشباب، فاذكر لنا نماذج منها.

تجلياتها كثيرة منها أنّه كان يخاطبنا بالأخوة (يا أخي) فكوّن بينه وبين الشباب علاقات حميمية، ولتيسير تلك العلاقة يستهل الكلام بالمسائل المتّفق عليها وفق ترتيب علمي منطقي، فمثلا حين الحديث عن القبر يؤكّد من البداية أنّ باب القبر مفتوح ثم ينتقل إلى المسائل الأخرى.

كان الاستهزاء بالدولة العثمانية والإنقاص من قيمتها الشعارات المتداولة في تلك الفترة، ومن المتداول في المدارس الرسمية أنّ الدين رجعية وتخلّف وخرافة، فكان الأستاذ يتلطّف مع الطلبة لأجل استئصال هذه الأمراض المعنوية المستعصية وما شابهها بحكمة.

كيف كان يتعامل مع المخالف في الدين أو المذهب أو الرأي؟

معروف عن الأستاذ الابتعاد عن الموضوعات المختلف فيها ولا يخوض في شأن المخالفين، ولا يتدخّل في السياسة، فكان كلّ جهده منصبا على التعريف بالحقائق الإيمانية ونشرها والاجتهاد في تبليغها، فلا يتكلّم عن الأشخاص، وقصارى جهده تقريب رسائل النور للنفوس مشغول بها عن غيرها، والدليل ابتعاده عن الخلق فقد ألّفت رسالة ''الآية الكبرى'' في غابات قسطموني، رسالة فيها يسأل فيها الكون من الذرات إلى المجرات.

عُرِف هذا العهد بزراعة اليأس وشيوع ثقافة التيئيس، ما هي طريقة الأستاذ في استئصال هذا الداء العضال وغرس الأمل في طلبته والمجتمع؟

يحقق هذا الهدف بالموازنة بين الإيمان والكفر، فيبيّن وجوب الإيمان وفوائده، وفي الوقت نفسه يبيّن خطورة الكفر على الفرد والمجتمع، يظهر هذا الأمر في الموازنة التي عقدها بين الكفر والإيمان في الشعاع السابع.

خلال هذه الفترة لأيهما كانت الأولوية في رسائل النور تثبيت حقائق الإيمان أم إثباتها؟

كان الأستاذ يقصد الأمرين معا فيثبّت الحقائق الإيمانية بطلب استنساخها، ثم ترجع النسخ للأستاذ بقصد تصحيحها من جديد، وكان الطلبة المستنسخون والمستمعون يستفيدون إثبات الحقائق الإيمانية وتثبيتها في الوقت نفسه.

يركّز الأستاذ كلّ جهده على التعريف برسائل النور، فلها الأولوية المطلقة مهما كانت الظروف، فلا يلفت النظر إليه في أقواله، ولكن صفاته تبقي النفوس مشدودة إليه، لماذا هذا التركيز على الرسائل والإصرار على الارتباط بالرسائل قبل الأستاذ؟

عموم الطرق الصوفية يركّزون على الشيوخ، بينما يركّز الأستاذ على رسائل النور، ولا يذكر نفسه ولا يمدحها، لأنّ رسائل النور تبقى والأستاذ وطلبة النور ذاهبون إلى عالم البقاء.

هل تراه كوّن جيلا ملتفا حول رسائل النور؟

كانت نسبة الاستماع إليه في عصره تتراوح ما بين نِصْف العُشُر (٥ %) وعُشُر (١٠ %) مكونات المجتمع، بينما الآن ترى بأن رسائل النور حاضرة في كل تركيا وفي كثير من البلاد الشرقية والغربية، كان كلّ جهده منصبا على البلاغ (وما على الرسول إلا البلاغ)، أما النتائج فهي على ربّ الأرباب، ونحن ننشغل بما كلّفنا وهذا هو المهم بالنسبة إلينا.

لكن من مقتضيات البلاغ أخذ الأسباب الجعلية وفق سنن الله في الخلق.

مما يعين على تحقيق تلك الأمور التزام الفرائض وترك الكبائر وقراءة رسائل النور، فكان يوصي بالرسائل كثيرا لأنّها تعين على الفهم وتشحذ الهمم، يؤكّده وصيته الدائمة بها، فكان إذا همّ بالانتقال من مدينة إلى أخرى، إلى أن رحل إلى دار البقاء، يوصي بترك الكبائر والتزام الفرائض وقراءة رسائل النور.

صف شعورك عندما علمت بأنّه قادم إلى أورفة.

قبل مقدمه إلى أورفة، قلت له أستاذنا تتجولون وتزورون كثيرا من المدن ولا تزورون أورفة، فقال: هل توجد عندكم رسائل النور، قلت نعم، قال إذن أنا موجود في أورفة، فلا لزوم للذهاب إليها، وحيثما وجدت الرسائل فأنا موجود، من أراد أن يلتقي بي فليقرأ رسائل النور.

كيف كان تجاوب أهل أورفة مع مقدم الأستاذ، وهل كان موقف رجال الشرطة واحدا متجانسا، وماذا كان موقفكم من تصرفاتهم؟

رجال الشرطة صدر إليهم أمر من وزارة الداخلية، وعندما دخلوا على الأستاذ، قال

لهم: أنا جئت إلى أورفة لأموت، وبعدها صدر القرار الطبي بعدم إمكان نقله من مكان إقامته، ونسجل بهذا الصدد أنّ أحد نواب الحزب الديمقراطي تدخل لدى وزارة الداخلية محتجا على هذه التصرفات قائلا بأنّ الأستاذ هو ضيفنا، وللتاريخ فقد كنا مستعدين للتدخّل لأجل منع نقله إلى مكان آخر.

ومما نسجّله بهذا الصدد أنّ الأستاذ ما كان يسمح بتقبيل يده، ولكنّه لم يمانع بالنسبة لأهل أورفة الذين أحاطوا به من كلّ جانب.

دخل الأستاذ أورفة يوم الاثنين وليلة الثلاثاء صبيحة الأربعاء غادرنا إلى عالم البقاء، رحمه الله رحمة واسعة.

تدخّل النائب البرلماني وإن كان من حزب معارض (الحزب الديمقراطي) (عدنان مندريس) في ظل هذه الظروف المشحونة بمعاداة الدين يؤكّد أننا لا نعدم أهل الخير ومن يخدمون الدين حتى في ظل الظروف القاسية، هل كان النائب الوحيد أم كان في المجتمع غيره؟

يعود سبب الدفاع عن الأستاذ إلى اكتشاف الناس لقيمته بعد قراءة رسائل النور، فبعد قراءتها أدركوا أنّه رجل كبير معنويا، ومهما تحدّثنا عن الأستاذ فإنّنا لا نعرفه كما يعرفه من درس رسائل النور، ولا شك أنّه يعرفه أحسن منا.

ذكر أنّ طبيبا زاره لأجل التقرير الطبي، فخرج الطبيب من غرفته وبعد أن تعرّف عليه وقال لكم يا خسارتي كيف لم أتعرّف على الأستاذ قبل هذا العهد، أنا مدين بقضاء الفوائت، كيف كان تجاوبكم مع ما سمعتم؟

ذكر الطبيب أنّ عليه قضاء فوائت الصلاة لأنّ الأستاذ ذكّره بالصلاة وأوصاه بها وذكّره بوجوب أدائها، فخرج الرجل من الغرفة الأستاذ وهو يذكر حسرته على ما فاته من فوائت الصلاة وعلى تأخّر تعرّفه على الأستاذ، وعندما سمعنا هذا منه سررنا بهذا الأمر.

شعوركم وأنتم تشاركون في تغسيل الأستاذ بمشاركة الإخوة (خلوصي وزبير وبيرم) تحت إشراف الملا حميد أفندي.

بعد التأكّد من وفاته، فكّرنا، وقلنا بأنّ الموت حق، وأنّ رسائل النور تخدم نفسها بنفسها، وموت الأستاذ لا يمنع من الاستمرار في خدمة رسائل النور، فقد كان الأستاذ في آخر عهد له بالحياة يستحلفنا بالله على عدم ترك الرسائل والثبات على خدمتها

وعدم التفريط بها، ويؤكّد على استمرار الدعوة بالطلبة ثم بالذين بعدهم، وقد شعرنا أثناءها بثقل الأمانة وعظم المسؤولية الملقاة على عواتقنا، وكنا على أتمّ الاستعداد للخدمة.

ماذا تقولون في المصطلحات الآتية: أهل التصوف، والصحابة، وأهل البيت.

طريق رسائل النور وجها من وجوه مسلك الصحابة (رضي الله عنهم)، بخلاف مسلك أهل الطرق فإنّه طويل، مسلك الرسائل يربطك بالقرآن الكريم مباشرة من خلال حقائق القرآن الكريم ومسائل الإيمان، مسلكنا يعتمد الكليات المتفق عليها، وبالرغم من التميّز عن مسلك التصوف والتأكيد على الفوارق فإنّ الأستاذ يثمّن إيجابيات الطرق ويقدّرها، وكان يلتقي برجال الطرق ويحاول إقناعهم بأنّ العصر هو عصر الحقائق الإيمانية وليس عصر الطرق الصوفية، ويطلب منهم قراءة رسائل النور والاستفادة منها.

أما عن أهل البيت، فإنّ طلاب رسائل النور هم من أهل البيت معنويا، لأنّهم أخذوا الدرس عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

نريد بيانا لمصطلحات كثيرة الورود في رسائل النور: الشفقة، والعجز، والفقر.

الشفقة أعلى مقاما من العشق لأنّه بدون مقابل، إذ العشق لا يكون إلاّ بمقابل بخلاف الشفقة، أما العجز، فإنّ من امتلأ قلبه بالإقرار بالعجز أمام الله لا يأمن نفسه من أن توقع في المهالك، ويسلم أمره لله تعالى ولا يأمن غير الله عليها، والفقر الاحتياج المطلق لله تعالى وفي كلّ الأحوال.

ماذا تقول في المصطلحات الآتية: الصناعة والتجارة والعلم والتعليم.

نحن بحاجة إلى الترقي وفي الوقت نفسه نحن بحاجة إلى الترقي المعنوي، وهذا بحاجة إلى الاتحاد، وهذا بدوره بحاجة إلى معرفة الأسس التي يقوم عليها الاتحاد، منها أن تقول إنّ منهجي أحق من منهج عيري، ولكن لا يمكنك أن تقول بأنّ منهجي هو الأحق، الذي يعني أن الآخرين على باطل. لأنّ الاتفاق على الأول أحسن من الخلاف والفرقة، ولو ملنا عن هذا المسلك لأفضى إلى التنافي والإقصاء.

نواصل في السياق نفسه، ماذا تمثّل الكلمات الآتية: الأمة الإسلامية، والشريعة، الرسول ﷺ، والقرآن الكريم.

نعد كلّ من يحب الرسول ﷺ فردا من الأمة الإسلامية، والشريعة بالنسبة إلينا هي قانون الله وهي القرآن والسنّة المطهّرة، بينما عند عموم الناس لخصت الشريعة في

تطبيق الحدود فقط، وفضلا عن هذا فالرسائل لم تعرض الشريعة تفصيلا بل لخّصت مهمّتها في التعريف بحقائق القرآن الإيمانية لأجل إنقاذ الإيمان ومن ثمَّ الإنسان.

أما الرسول ﷺ وباختصار شديد فهو بذرة طوبى الجنّة وهو رحمة الله المهداة إلى الخلق (راجع في تعريف القرآن الكريم والرسول ﷺ والشريعة الكلمة ١٢ "مقارنة بين مدينة القرآن ومدينة الإنسان" نهاية الكلمات في اللوامع).

هل عُرِف عن الأستاذ ذكر نكت وطرائف، وهل من شيء وقع لك شخصيا معه أو بحضورك؟

نعم عُرِف عن الأستاذ ذكر نكت وطرائف، ولكنه كان قليلا ما يذكر ذلك، منها أنّ أحد الإخوة أتى بحبة كبيرة من البطيخ الأحمر "الدُلاع"، فسأله الأستاذ هل أنت الذي ستأكلها، فقال: نعم، فقال له الأستاذ: ما شاء الله عندنا أبطال كبار، ولكن النكت ليست هي السمة العامة، فكان يطبع تصرفاته الجد.

حادثة وقعت لك مع الأستاذ بقيت عالقة في ذهنك؟

تذكرني هذه المسألة بحرص الأستاذ على أداء الصلوات في وقتها حتى في حال السفر، فبمجرّد معرفته بدخول الوقت يهمّ بأداء الصلاة، وأذكر أنّه لأجل المحافظة على أداء الصلاة في وقتها كلّفني بكتابة مواقيت الصلاة على التقويم السنوي.

تكليفك بكتابة مواقيت الصلاة على التقويم السنوي، يفيد أنّه كان يعرف مميزات طلبته فردا فردا، ويكلّفهم بالأعمال كلّ بحسب استعداده، أليس كذلك؟

نعم، يقسّم الأستاذ الأعمال على الطلبة بحسب الاستعدادات والقابليات، فما يكلّف طالبا يخالف عما يكلّف به غيره، وما خصّ به هذا غير الذي خصّ بذاك، وكلّ ذلك يؤكّد ما سبقت الإشارة إليه.

أذكر لنا أمرا خصّك به الأستاذ.

الأمر الذي خصّني به الأستاذ هو إرسالي إلى أورفة، وقال لي اذهب إليها وانتظرني فيها سآتي، ولكنّه أتى بعد عشر سنوات.

ماذا يمثّل بالنسبة إليك تاريخ ٢٥ من رمضان و ٢٣ من مارس من كلّ عام؟

يمثلان تاريخ وفاة الأستاذ (رحمه الله).

هل هو يوم لتقديم الحصيلة أم يوم لتجديد الصلة؟

كلاهما.

ما هي الأمور التي تتمنى وقوعها، أو تنتظر وقوعها؟

كانت إستانبول عاصمة العالم الإسلامي ومركزه، ونتمنى في المستقبل أن تصبح كذلك، كما نتمنى اتحاد الشرق كلّه، وقد ذكر الأستاذ أنّ الشرق سيتّحد ويكون قوّة فعّالة في العالم.

ما هي الأمور التي تتمنى القيام بها اجتماعيا في المستقبل؟

نشر ثقافة التصالح في الأرض، وذلك من خلال الصلح العمومي بين مكوّنات المجتمع ثم بين مكوّنات الأمة، لننتقل إلى الصلح بين مختلف مكوّنات الأسرة الإنسانية.

يقوم التفكير في الصلح بين مكوّنات الأسرة الإنسانية على توفّر الأمن والاستقرار ثم التعاون، فما هي أسس صناعة المستقبل؟

نحن لا نعمل لحكم العالم سياسيا لأن غايتنا أخروية، وأسس صناعة المستقبل بيّنتها رسائل النور، والذي يقرأ الرسائل سيكتشف الأسس المشار إليها، بهذا ننصح بقراءة الرسائل، والحمد لله فالرسائل موجودة في كلّ بلاد العالم الغربي والشرقي.

نصيحة لقرّاء رسائل النور.

ننصحهم بالمداومة والمثابرة على قراءتها، واجتناب الكبائر وأداء الفرائض والتعاون، والعمل على نشرها في كلّ بلدان العالم الإسلامي والغربي.

ما سبيل دفع استعمال رسائل النور لما يتعارض ومقاصدها؟

من كانت تعاليمه وفق تعاليم رسائل النور وكان مسلكه قائما على مسلك الإيمان وحقائق القرآن فهو منا ونحن منه، ومن خرج عن تعاليمها ومسلكها فهو ليس من مسلكنا ولا من خطّنا، لأنّ الحقائق الإيمانية ثابتة لا تتغيّر والثبات عليها هو المطلوب، ومن توجّه إلى جهات أخرى غير التي أشرنا إليها قطعنا صلتنا به.

نصيحة للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية.

ليس هناك عبث في الكون فالذي خلق النمل خلق لها رئيسا، والذي خلق النحل خلق لها أيضا رئيسا، وكذلك البشر خلق لهم رئيسا ورئيسهم هو الرسول الخاتم محمد ﷺ يقودهم إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة، فمن أراد صلاح دنياه وأخراه فعليه باتّباع الرسول الخاتم ﷺ.

بعد سبعين عاما من الجد والاجتهاد في التبليغ، هل يمكن أن يقال بأنّ مشروع الإصلاح وفق التصور الذي تعرضه رسائل النور قد نجح؟

تحققت بعض أهداف هذا المشروع ويعضها الآخر لم يتحقق، وعلى رأس ما تحقق أنّ رسائل النور لن تمنع في المستقبل، وستقرأ في كلّ بلدان العالم كما كانت أمنية الأستاذ، وذلك بفضل المدارس النورية المنتشرة عبر العالم الغربي والشرقي، وسمعت كلاما نُقِل عن الأستاذ لم أسمعه منه مباشرة، مفاده أنّ حكومة ستأتي في المستقبل تجعل من رسائل النور أساس برنامجها.

رسائل النور تركّز على العلم وتقسيم الأعمال (النظام) والوحدة والتعاون أساسا لدفع الأعداء، لأنّ الجهاد الآن هو جهاد العلم، هل أنشأت رسائل النور ثقافة الإقبال على العم والوحدة والانتظام؟

التدافع بين الإيمان والكفر سنة كونية ماضية وهو مستمر إلى يوم القيامة، ونحن مكلّفون بالعمل خدمة للحقائق الإيمانية وتبليغها للناس كافة، فليس من وظيفتنا السؤال عن النتائج، بل تتلخّص وظيفتنا في الخدمة.

نترك لكم ختم الحوار، فماذا تقولون؟

وظيفتنا الخدمة الإيمانية وليس منها انتظار النتائج، فالنتائج على الله، وصلنا أم لم نصل هذا ليس من شأننا، وبهذا الصدد أذكر قصة، سئلت نملة وهي في طريقها إلى الحج، كيف تقوين على اختراق هذه الجبال؟ فقالت: أنا لا يهمني الطريق، فإن مِتُّ فأنا متّجهة إلى الكعبة وهذا يكفيني.

* * *

الهوامش:

* عبد الله يكن تعرف على الأستاذ النورسي وهو في الصف الثاني من الدراسة المتوسطة في قسطموني. (١٩٤٠-١٩٤١) والتحق بقافلة النور وأنهى كلية (التاريخ والجغرافية واللغات) في أنقرة ومازال طالبا للنور، أطال الله عمره بإحسان.

الإصدارات

قراءة في كتاب:

عنوان الكتاب: مفاتح النور.
تأليف: الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري (رحمه الله).
عدد الصفحات: ٣٨٤.
سنة النشر: ٢٠٠٤.
دار النشر: نسل، إستانبول، تركيا.

نشر الكتاب بالتعاون بين معهد الدراسات المصطلحية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراس/فاس، المغرب، ومركز النور للدراسات والبحوث بإستانبول، تركيا.

الكتاب دراسة لرسائل النور في صورة مصطلحية، القصد منه، وفق ما صرح به المصنف، إخراج معجم للمصطلحات المفتاحية الواردة في رسائل النور.

اعتنى المصنف ببيان أهمية الدراسات المصطلحية، فأكّد هذه المعاني في التمهيد، بقوله:"إن المصطلح -من حيث هو مفهوم واقع في الوجود ابتداءً- يمثّل الحقيقة الوجودية للعلم، أيّ علم! فهو إذن؛ الجوهر من سائر المعارف الكونية. وما القضايا العلمية الحاصلة بعد - البناء عليه- إلاّ أعراض قائمة به. تماما كقيام الألوان بالأجسام، لولا هذه ما حصل إدراك تلك".

ثم يستطرد مؤكدا، فقال: "والمصطلح إنّما هو في نهاية المطاف تسمية عَلَمِيَّةٌ على مسماها من المفاهيم العلمية. فهو إذن؛ اسم عَلَمٌ على بنات العلم" (ص ١٣).

لاحظ الأستاذ فريد حين قراءته لرسائل النور، أنّها تكتنز قاموسا مصطلحيا خاصا، يتعلّق بعالم جديد كل الجدّة، اشتمل على ثروة مصطلحية نادرة، وكنز مفهومي ثمين، يشعر الدارس أنّ وراءه عبقرية ذات حس مصطلحي دقيق (راجع ص ١٨).

تجلت عبقرية الأستاذ في لغته الاصطلاحية الخاصة، فجمعت مصطلحاته بين دقة العلم ولطافة الذوق، يبني عليها البرهان، ويرص بها الحجاج، فإذا مَحَصْتَها وجدتها

كالضوء، أو كالهواء، أو كالماء، إذا أنت فركتها سالت، أو تبخرت، أو طارت بعيدا في الفضاء، وهذا مكمن صعوبة إخضاعها لمناهج الدراسة المصطلحية (راجع ص٢٠).

عرض الكتاب في مقدمة وتمهيد ضمّنه ذكر التحولات الكبرى التي عرفتها (١٩٢٢– ١٩٤٠)، أردفها ببيان أهم الأحداث في حياة الأستاذ بديع الزمان النورسي، انتقل بعدها إلى فصول الكتاب في الستة، أفرد لكل فصل مصطلحا، فعرضت المصطلحات وفق الترتيب الآتي: التوحيد، والإنسان، والكون، والقرآن، والانتساب الإيماني، والأخلاق.

تضمّن الفصل الأول بيان مراتب التوحيد ومفاهيمه الجزئية والكلية، تجلت فيه قدرة الأستاذ على الإحاطة بدقائق المفسرين، وحجج المتكلمين، وتأملات وبراهين الفلاسفة، وأذواق ومواجيد الصوفية، في صيغة استثمارية رائعة، ثمّنت إيجابياتها المتوافقة مع روح القرآن الكريم، وابتعدت عن الوقوع في أسر التأملات التجريدية للفلاسفة أو شطحات الصوفية أو تقعير المتكلمين، أو إسرائيليات المفسرين، فسلك بذلك مسلك معراج القرآن الكريم، الجامع بين الدقة والبساطة، وبين العمق والصفاء.

أظهر الأستاذ النورسي عبقرية في التحوّط الاصطلاحي، سعيا منه إلى منع تسرّب المفاهيم غير المأمونة الدلالة والمآل إلى رحاب رسائل النور، فكان الأستاذ بديع الزمان كما قال الأستاذ فريد الأنصاري: ''يصفي فكره من خلال العمل على تصفية مفاهيمه'' (ص٨٦)، وقد استغرق الفصل الأول من ص ٤١ إلى ص ٨٦.

أما الفصل الثاني المخصص لمصطلح الإنسان، فقد بيّن فيه أنّ المعبر الأساس لفهم الذات، هو الهوية الكونية للإنسان، التي بفهمها يفهم وظائفها الوجودية، انطلاقا من أكبر الكليات، حتى أصغر الجزئيات، وأكّد أن مصدر هذه الرؤية المتكاملة هو القرآن الكريم، ذلك أنّ كونية الإنسان مستمدة من كونية القرآن الكريم، لهذا لا يتأتى النظر الكوني إلى الماهيات إلاّ بالقرآن الكريم، وطريقه الرئيس التجربة الوجدانية المتدبّرة في القرآن الكريم، وهو المسلك الذي نذر الأستاذ النورسي الذي تجلى في تجربة الأستاذ فريد في أواخر أيامه رحمه الله، واستغرق الفصل من ص ٨٩ إلى ص ١٤٩.

تضمن الفصل الثالث عرض مصطلح الكون، وبعد جولات مستفيضة في رحاب ما يخدم الموضوع، خلص إلى أنّ القرآن الكريم تفسير للكون والحياة، تجلت له هذه المعاني في جمعه بين قراءة القرآن المتلو، وقراءة القرآن المنظور، فنسج بينهما وفق

نسق عجيب، يسّر له الخلوص إلى القول بأنّ القرآن الكريم أعظم تفسير للكون، فأدرك بتبني هذا المسلك العلاقة بين كلام الله جلّ وعلا وبين ملكوته، فكان الكون بالنسبة للرؤية النورسية مهيّأ لعبادة الله تعالى والتَعَبُّد فيه، وشغل هذا الفصل من ص ١٥١ إلى ص ٢٠٧.

عرض في الفصل الرابع مصطلح القرآن، وقد أكدّ فيه أنّ القرآن الكريم هو جوهر دعوة الأستاذ بديع الزمان النورسي، وفي ظل ظروف قاسية ماديا ومعنويا، وحّد القبلة ورجع إلى القرآن يستمد منه برنامج تربية الأجيال وتكوين الإنسان، وتهيئته للقيام بوظيفة العبادة لله الواحد القهار في كلّ شعاب الحياة، وجميع مجالاتها، وبذلك يظهر أنّ الأستاذ بديع الزمان جعل مصطلح القرآن الكريم المفتاح الأساس لفهم كليات رسائل النور، والعمدة في تفسير الكون والحياة، ومبعث المبادئ الباعثة على الفعالية في حياة الإنسان المسلم. واستغرق الفصل من ص ٢١١ إلى ص ٢٧٦.

خصص الفصل ما قبل الأخير لمصطلح الانتساب الإيماني، وبيّن فيه أنّ العبدية هي جوهر الانتساب الإيماني، لذلك كان الانتساب انخراطا وجدانيا في سلك العبودية لله تعالى لإيمانا وعملا، بما يحقق معنى الإضافة إلى الله في صفة ''عبد الله'' (راجع ص ٢٨٢)، ومدخلها الفقر والعجز وإظهار الحاجة إلى السيد الكريم، وهي رأس وسائل استمداد القوة الخارقة من قوّة خالقه، كما أنّ الانتساب الإيماني مدخل مهم للإحساس بالأخوة الوجودية مع كل الكائنات فيشاركها في العبودية لله تعالى، والانتساب إلى أسماء الله الحسنى، وانتهى الأستاذ بعد هذه الجولات التدبرية إلى القول بأنّ: ''العبدية الكونية عند المسلم إذن هي وجوده الحقيقي الذي يعبد الله به، قبل اعتبار وجوده الشخصي الفاني''(ص ٣٠٤). استغرق الفصل من ص ٢٧٩ إلى ص ٣٠٦.

خصص الفصل السادس والأخير لمصطلح الأخلاق، عدّ الأستاذ مفهوم الأخلاق أهم مفتاح مفاتيح فهم نسق رسائل النور، وهو المدخل الرئيس لمقاربة المفهوم الكلي للدين نفسه، لهذا ركّز الأستاذ على تجلية الاكتناز الدلالي مصطلح الأخلاق، والذي يعد في المنظومة النورية، ''نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني.'' (ص ٣١٨)، انتقل بعدها إلى تجلية ضمائم الأخلاق، فانتهى إلى أن الأخلاق الاجتماعية هي نظام العلاقات الاجتماعية القائم على الصدق، أما الأخلاق الإلهية فهي السجايا، والخصال

الحميدة، القائمة على التعبّد، استنادا إلى أسمائه الحسنى وصفاته العلا، عرض بعدها الأخلاق الإنسانية، وخلص إلى أنّها خصال الفطرة الإنسانية للوصول إلى الحق، ساق بعدها الأخلاق الحسنة الدنيوية، والتي تمثّل في المنظومة النورية، نظام العلاقات الاجتماعية القائم على اعتبارات نفعية لادينية، أردفها بعرض الأخلاق الرذيلة أو أخلاق الرذيلة، وقصد بها التصرفات الصادرة عن الوجدان ذي الإحساس الأناني، المتأتية من قاعدة: ''إن شبعت، فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع، وقاعدة: اكتسب أنتَ، لآكل أنا، واتعب لأستريح أنا'' (المثنوي العربي النوري ٤٤٦).

ومن ضمائمه أيضا الأخلاق العالية، وقصد بها خصال الخير القائمة بالنفس، على صدق خالص، وشرف رفيع، يأبى بطبعه الشر والسفاسف، وقريب منها الأخلاق الفاضلة، التي تمثّل نظام السلوك الإيماني، المبني على الحقائق الإلهية، والدساتير الإسلامية، والأسرار القرآنية، ثم انتقل إلى بيان الأخلاق المحمدية، وتمثّل السجال والخصال النبوية، الموضوعة للاقتداء والتأسي، ويندرج ضمنها أيضا الأخلاق النبوية العالية، الراجعة إلى أعلى مراتب التكريم الرباني، والاصطفاء الإلهي، ومن ضمائمها الأخلاق النبوية السامية، أخلاق الأنبياء عموما من حيث مهمتهم الرسالية، ووظائفهم الاجتماعية.

وحذّر في الوقت نفسه من الأخلاق الوحشية التي مصدرها الجاهلية التي كانت عند العرب، ونبّه في السياق نفسه إلى أس الأخلاق وهي أمهات الفضائل الإسلامية، منها الإخلاص، والمروءة، والفضيلة، والمحبة، والتضحية، و...

والتعريف بكل ما سبقت الإشارة إليه، يرمي إلى التربية الأخلاقية بتكوين الإنسان على مكارم الأخلاق القرآنية، وجامع كلّ تلك الخلال على أكمل صورة وأبهاها هو سيدنا رسول الله النبي الخاتم عليه وعلى آله وصحبه أكمل الصلاة والتسليم، فهو الأنموذج الأكمل في القيم النابعة من المقدسات، لبناء المجتمع الإنساني، لهذا كانت الأخلاق مفتاح الإصلاح، واستغرق الفصل من ص ٣٠٩ إلى ص ٣٦٩.

كتاب كما هو بيّن حري بالقراءة المتمعّنة، يحبب فيه الأستاذ فريد (رحمه الله) برسائل النور، ويحيلنا على ضرورة استئناف درس مصطلحات رسائل النور، ننتظر من المهتمين المختصين بالدراسات المصطلحية القيام بهذه المهمّة.

* * *

المؤتمرات والحلقات الدراسية

الندوة الدولية الثالثة للأكاديميين الشباب

نظمت مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم الندوة الدولية الثالثة للأكاديميين الشباب، وذلك يومي ١٨ و ١٩ يونيو (حزيران) ٢٠١١، وانتظمت الجلسات العلمية في ورشتين، أولاهما للناطقين بالعربية، وخصصت الثانية للناطقين بالإنجليزية.

وقد شارك في الندوة ٧٥ طالبا و ٢٠ أستاذا من البلدان الآتية: (في القسم العربي): العراق، ومصر، والجزائر، والمغرب، والإمارات العربية، وماليزيا، والسودان، والأردن. (وفي القسم الإنكليزي): استراليا، وأمريكا، وإنكلترا، وألمانيا، ورومانيا، وإندونيسيا، وماليزيا، والهند، واليابان، وتركيا، أغلب الطلبة من الباحثين الذين يعدون بحوثهم لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه حول رسائل النور والأستاذ النورسي.

وكان برنامج اليومين الدراسيين كالآتي:

اليوم الأول: السبت ١٨ / ٠٦ / ٢٠١١

افتتحت الجلسة الأولى على الساعة التاسعة لجميع المشاركين، استهلت الجلسة بكلمة رئيس اللجنة التنفيذية الأستاذ د. فارس قايا، والتي رحّب فيها بالحضور الكريم مؤطرين ومشاركين وضيوفا. ثم انتظمت الجلسات كل في قسم خاص، بحسب لغة إنجاز البحث.

القاعة الأولى: الخاصة بالناطقين باللسان العربي

افتتحت الجلسة برئاسة أ.د. محسن عبد الحميد من العراق، استهل الجلسة بطلب التعرّف التفصيلي على الأساتذة المؤطرين والباحثين المشاركين في الندوة، وطلب من الأساتذة تقديم نبذة مختصرة عن طبيعة الورقة التي يشاركون بها، كما التمس من كل باحث تقديم مختصر مركّز عن البحث المعد عن رسائل النور أو الأستاذ النورسي.

عرّف كل باحث بمشروعه، ودامت الجلسة ساعة كاملة، وبعد فترة استراحة استؤنفت الأعمال في جلسة ثانية برئاسة أ.دة. زينب عفيفي شاكر من مصر استمرت

ساعة ونصف الساعة، وتقاسم الوقت المحدد المؤطرون والباحثون الشباب، استهل اللقاء بورقة أ.د. عشراتي سليمان من الجزائر وأكد على أهمية قراءة نصوص رسائل النور قراءة مستفيضة والتعامل معها بآليات الفهم الدقيق البعيد عن أسر القراءات الأيديولوجية، لافتا النظر إلى النَفَس الرسالي الذي يجب أن يستصحب في مراحل القراءة لمن أراد الاستفادة من رسائل النور والإفادة بها... وأشار إلى أنه منقطع لقراءة رسائل النور منذ أكثر من عشر سنوات، ذلك أن القراءة النافعة الاستثمارية لرسائل النور من شرطها الديمومة والاستمرارية، ومن فقد هذا الشرط كان تحصيله منها مهلهلا.

بدأت بعدها المناقشات والأسئلة ثم الردود، وقد تولّدت كلّ المواقف من رحم الكلمة التي ألقاها الأستاذ عشراتي، فكان مما شغل الباحثين، فكرة القراءة الجامعة الكلية لرسائل النور، فكان منها ما قاله الباحث المغربي حسن تلموت، هل من الضروري قراءة كلّ رسائل النور، أم أنه يجوز الاكتفاء منها بموضوع الدراسة، معللا ذلك بالرغبة في إنجاز دراسة متخصصة ودقيقة، فعلّق د. عبد الحكيم الأنيس كبير الباحثين في الإمارات العربية، قائلا: إنّه لا يمكن تجزئة رسائل النور من حيث القراءة، بل الواجب على من يريد الفهم الكامل والصحيح أن يقرأ رسائل النور بالكامل لأن ما فيها مترابط ومتماسك، وقد لقي هذا الجواب إعجابا وثناء من قبل المشاركين.

جاء الدور بعدها على المؤطّر الثاني أ.د. عمر أجة من المغرب، آثر في كلمته التوجيهية التركيز على فهم رسائل النور من جهة ارتباطها بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وأوضح في حديثه أنّ للأستاذ منهجا واضحا في التعامل مع القرآن الكريم والسنة الشريفة، مفاده تفسير القرآن الكريم على وفق منهج الفيض القرآني أو الإشارات الروحية التي كان النورسي يدوّنها ويبلّغها وفق ما فتح الله تعالى عليه، وأما بالنسبة لمنهج التعامل مع الحديث النبوي الشريف، فيقوم على دعائم مستمدة من مسالك الأئمة المتقدمين في الحديث الشريف من أمثال النووي وابن حجر.ووفق ما هو عليه جمهور المحدثين، ومنها أخذُه بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب.

جاء الدور بعدها على الورقة الثالثة التي ألقاها د. عبد الحكيم الأنيس من الإمارات العربية المتحدة، ضمّن محاضرته بيانا في كيفية قراءة رسائل النور لمن أراد أن يجعلها منهجا ويقيم عليها دراسة علمية، فعرض فكرته في قسمين، خصص الأول

لجملة من النفحات والخواطر المستلة من حياة الأستاذ النورسي ورسائل النور، ثم بسط القول في القسم الثاني في ذكر خمسين قاعدة وضعها في فهم رسائل النور وآلية التعامل معها، كما عرض فيها لكيفية الابتداء بإعداد البحوث، ونذكر بعضا منها للفائدة:

من البديهي أن نقول أولاً:

– يجب أن تقرأ كل ما كتبه الأستاذ بلا استثناء.

– أعد قراءة ما قرأت، على قاعدة: قراءة كتاب مرتين خير من قراءة كتابين.

– تهيأ نفسياً وقلبياً للدخول إلى عالم النور.

– علِّق على ما تقرأ حالاً ولا تؤجل كتابة ما يخطر لك.

– لا تتعجل بالحُكم على أمرٍ لم تستوعبه.

– لا تسرع إلى إنكار حديث ضعيف أو موضوع قبل البحث عنه من جديد.

– اعمل لنفسك ملفاً بعنوان: رجال حول النورسي.

– ارفع صوتك بالقراءة وهذا الأسلوب سيضطرك إلى معرفة ضبط ما تقرأ، وهذا سيقوي علاقتك باللغة، ويجعلك على صلة حية بالمعاجم.

– سيخطر لك وأنت تقرأ خواطر مهمة عن موضوعات لم تجدها أخذتْ حظها من الدرس والنظر فاكتبها حالاً فلعلك تنهض لتحقيقها بنفسك أو تقترحها على آخرين.

ورفعت الجلسة الصباحية، ثم استؤنفت الفترة المسائية على الساعة الثانية ظهرا، واستهلت بالجلسة الثالثة التي ترأسها أ. د عمار جيدل من الجزائر، وافتتحت الجلسة ببحث دة. ليلى محمد على جمعة من العراق، وقد تطرّقت لـ ''فعل الأمر منهجا تربويا في رسائل النور، المثنوي العربي نموذجا''، ووضحت في ورقتها مغزى نعت المثنوي بالعربي ثم النوري، وأشارت الدكتورة إلى أنّ الهدف من تأليف المثنوي العربي، المشترك مع هدف تأليف الإمام جلال الدين الرومي لمثنويه الفارسي، هو تجديد الإيمان وترسيخه، وذكرت أنّ لغة المصنَّفين متمايزة، ثمّ أكّدت بعدها على أنّ المثنوي العربي يمثّل كتابا تربويا بصياغة عاطفية، كما قامت بجرد الأفعال الواردة فيه، فوجدت أن الغالب فيه الابتداء بفعل الأمر وخلصت بعدها إلى الإشارة إلى أن النورسي أحس بضرورة العناية بفعل ''اعلم''، فما من صفحة إلاّ وتضمّنت ذكره مرة أو مرتين لأجل هذا سماها بالإعلامات.

وكان د. إياد فوزي توفيق من السودان ثاني المحاضرين بورقته الموسومة بـ ''الإيمان والأخلاق وسيلة لفهم رسائل النور''، عرض فيها التعريف بدعوة القرآن الكريم إلى التدبر والتفكر، واستعرض بهذا الصدد العديد من الآيات الكريمة وأقوال الأئمة في أن العناية بعلم التفسير وسيلة فعّالة في الدفع على التدبر ثم الفهم، لهذا عدّ الاهتمام بتكرار القراءة الباعثة على فهم رسائل النور من أهمّ المسالك الباعثة على اكتساب التدبّر، وبهذا الصدد نصح المحاضر الباحثين الشباب بالصبر على المطالعة وتكرار القراءة، حيث يكسب المتدبّر في نصوصها ترسيخ الثوابت الإيمانية المتضمّنة فيها، واستجلاب المقاصد الإيمانية التي حوتها، حماية للشباب من السقوط الأخلاقي كما أكد على ضرورة قراءة رسائل النور في إطارها الزمني وألا تكون بمعزل عنهما.

وبعد الفراغ من الورقة جاء الدور على الاستفهامات والمناقشات والتعقيبات، فكان من المتدخلين الطالب سيد عبد اللطيف من مصر، واقترح على الأساتذة عرض موضوعات جديدة صالحة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية، وخاصة في ظل المشاكل التي يعانيها الطلبة في وقتنا الحاضر، وبانتهاء الجلسة وبعد راحة قصيرة عقدت الجلسة الرابعة برئاسة د. أحمد محمد سالم من مصر حيث أعطى المجال فيها لـ دة. فيروز عثمان من السودان لتلقي ورقتها الموسومة بـ ''قواعد التعلم وفهم رسائل النور''، ركّزت فيها على الإخلاص عند الأستاذ النورسي، وبيّنت أهميته في العمل بشكل عام وأشارت إلى نصوص الأستاذ عن الإخلاص، كما في اللمعة العشرين والحادية والعشرين، واستثمرت الدكتورة الفرصة لتذكير الباحثين بوجوب الظفر بالإخلاص والحفاظ عليه، إذ هو سبب في قبول الأعمال ودوامها ونيل أجرها، بحسب ما استقته من أدبيات الأستاذ رحمه الله، وتأكيدا لهذه المعاني سردت العديد من أقواله المؤكّدة على أهمية البعد عن هوى النفس وحظها، وحثّت في السياق نفسه على اتباع القرآن والسنة، لأنّهما رأس التقدّم المنشود وقبول الأعمال حين تخلص النية، كما أنّها أهم ما يستعان به على فهم رسائل النور، ومن أراد حسن الفهم والتمثّل فعليه ترك التكلف والأخذ من رسائل النور بحسب الطاقة، ووضعت قاعدة في فهم الدرس والاستفادة منه بالتركيز والابتعاد عن كلّ ما من شأنه تشتيت الأفكار.

وأشارت الدكتورة إلى فراسة الأستاذ التي أكسبت رسائل النور مكانة سامقة، وزادت تلك الميزة ظهورا في دعوتها إلى سيادة الشخصية المعنوية المعروفة بـ ''روح الجماعة'' في فهم رسائل النور، وعدّة التفكر والتقوى والصبر أهم وسائل فهمها والاستفادة منها.

واستهلت التعليقات بكلمة رئيس الجلسة د. عبد الحكيم الأنيس، أكّد فيها على كثير من المعاني التي تضمّنتها الورقة، حيث بيّن أنّ قيمة رسائل النور تكمن في فهمها فهما صحيحا واستيعابها، الذي هو بحاجة إلى تصفية النفس لتتهيّأ لنيل معانيها الرفيعة.

عرض بعدها المشارك الثاني د. مأمون فريز جرار كلمته التي عنوانها: ''وقفات مع رسائل النور وواقعها في العالم العربي'' استهلها ببيان رؤيته الخاصة عن رسائل النور في العالم العربي، وعطف عليها التذكير بدور العلماء المجددين ورثة الأنبياء في التأسيس للبعث الحضاري المرتقب، وخص في هذا المقام الأستاذ النورسي بحديث مسهب، ذلك أنّه يمثّل رأس المجددين الكبار في تركيا، فهو فيلسوف ومفكر وفقيه حضاري وعبقري فريد وداعية مجدد من دعاة النهضة ومدافع عن إنسانية الإنسان، ثم عرض الدكتور تجربته في التعريف برسائل النور، حيث قام بتسجيل صوتي لرسائل النور، أنجز منه إلى الآن ثمانية مجلدات وسينتهي منها قبل شهر رمضان بإذن الله.

ذكر بعدها جملة المعيقات التي تحول بين القارئ والرسائل، ومنها فهم النص على غير حقيقته أو فهمه بطريقة غير قويمة، ومنها أيضا التعامل مع الرسائل تعاملا أكاديميا جافا، خاصة عند أولئك الذين أهملوا الأبعاد الرسالية والدعوية، وعدّ المحاضر أنّ التعامل معها وفق هذا المسلك المجزّئ ظلم لها.

واعتبر المحاضر ما شرحه الأستاذ من حقائق إيمانية وفسره من آيات قرآنية من قبيل العلم اللدني، وعطف الدكتور على ذلك ببيان تركيز رسائل النور من جهة تعريفها بإعجاز القرآن الكريم، واهتمامها بالتفكر من جهة أخرى، وأشار بهذا الصدد إلى أنّ الأستاذ طبّق نظرية النظم، ولا سيما في إشارات الإعجاز، التي حمل رايتها الشيخ عبد القاهر الجرجاني، كما كانت له عناية بالإبداع في ابتكار نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم التي اشترك فيها مع الشيخ سيد قطب.

حانت بعدها فرصة التعقيبات والمداخلات والأسئلة، واستهلت بكلمة الدكتور محسن عبد الحميد أضاف فيها أن النورسي تتبع خاصية التجليات الربانية في الكون وأنه استطاع أن يصل إلى آخر نقطة كونية وأن يشرح الأسماء الحسنى وفق تجلياتها في عالم الشهادة.. ثم رفعت الجلسة في حدود صلاة العصر.

أشغال اليوم الثاني: الأحد ١٩ / ٠٦ / ٢٠١١

بدأت الجلسات في اليوم الثاني على الساعة التاسعة والنصف صباحا وقد ترأس الجلسة الأولى أ.د. عشراتي سليمان من الجزائر وبدأت الكلمة الأولى أ.دة. زينب

عفيفي شاكر ذكرت في كلمتها كيفية تعرفها برسائل النور. وأهمية قراءتها قراءة كاملة..

ثم بدأت مداخلة الأستاذ الدكتور عمار جيدل (المذكورة خلاصتها أدناه) ثم تعاقبت الجلسات طوال اليوم في مناقشات علمية حول قضايا الطلاب وبحوثهم. تخللتها فترات استراحة قصيرة.

ملخص ورقة أ.د. عمار جيدل:

عرضت ورقة أ.د عمار جيدل من كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة): استهلها المحاضر بالتوقف عند جملة ملاحظات، تساءل في الأولى، فقال: أستطيع أن أقول بناء على خلسة ملكوتية (روحية) بالقاعة التي استضافت باحثين من الفضاءات التي تكتب باللغة الإنجليزية، إنّهم يفكّرون فيما لا نفكر فيه، ويقولون غير ما نقول، فلماذا يفكرون بغير طريقة تفكيرنا؟ سؤال حقيق بنا العناية به والتفكير فيه بالجدية اللازمة.

وذكر في الملاحظة الثانية أنّ من متطلبات البدايات في كل شيء، التجاوز في التقويم، أي التساهل من غير تضييع عُمَد البحث العلمي المنهجي، من هنا ثمّن المحاضر اهتمام مؤسسة الثقافة والعلوم بإستانبول بالبحث العلمي الشبابي الأكاديمي ولكن الأجود أن يكون هذا المسعى سببا في منع التسيّب في البحث وتشجيعا للبحث العلمي الأكاديمي الرصين.

انتقل بعد الاستهلال إلى مضامين ورقته والتي حصرها في جملة من النقاط.

أولها، حاول فيها الإجابة عن السؤال الآتي: لماذا هذا اللقاء؟، وخصص الثانية لبيان موانع البحث العلمي الرصين في الكتابات باللسان العربي، وختمها بعرض سُبُل تلافي القصور والتقصير المشار إليه في الثانية.

أولا: لماذا هذا اللقاء؟

التساؤل عن عنوان اللقاء، بقصد إرجاع الأمور إلى نصابها، أكّد في المستهل بأنّ عنوان اللقاء، وفق ما وضعه القائمون هو ''الندوة الدولية الثالثة للباحثين الأكاديميين الشباب''، وعرض خلالها التوقف عند جملة من المحطات:

١– من المخاطب في هذه الندوة الدولية؟

الأصل أنْ تكون فكرة اللقاء واضحة عند المُؤَطِر ''الأستاذ'' قبل المؤطَر ''الباحث''، لأنّها إنْ كانت غامضة في فكر الأعلى، فإنّها ستكون غامضة عند الأدنى ضرورة.

المخاطب في هذه الندوة هو الشاب الأكاديمي، ولهذا الاختيار متطلبات، رأسها التقيّد في التأطير والتوجيه بما ينسجم وهذه الملاحظة، من هنا ينتظر استبعاد مخاطبة باحث في المطلق، والتركيز على باحث مخصوص بمواصفات مخصوصة، وفي إطار شروط معرفية وتكوينية معيّنة.

فالباحث الشاب له جملة من المواصفات، يتطلب استحضارها في وضع خطة التوجيه والتكوين، من هنا فالأصل في التوجيهات أنْ لا تغفل المؤهلات الذهنية والمعرفية للأكاديمي الشاب، فضلا عن توفّر وثائق البحث من عدمها، وأن تكون المقترحات التوجيهية متناغمة مع امتلاك الباحث للوسائل المادية والمعنوية التي تيسّر له الإنجاز، فضلا عن توافق المقترح مع قَيْد الزمن الذي تضعه مؤسسات التكوين (للماجستير فترة زمنية محددة، وكذلك الحال بالنسبة للدكتوراه)، وكلّ التوجيهات التي تهمل هذه الشروط، للباحث أن لا يعد نفسه مخاطبا بها، وهو محق فيما انتهى إليه.

٢– ما غاية هذا اللقاء؟

يعلم الخاص والعام بأنّ للبحث العلمي مقاصد من التكوين، والغايات من البحث التكويني محل اتفاق، فتلخصت الغاية من الماجستير في إكساب الباحث دربة على المعارف المنهجية التي حصّلها في الدروس النظرية، فيكشف الباحث عن استيعابه للمعارف المنهجية والقدرة على تمثّلها في البحث المنجز، وكلّ ذلك في كنف إشكالية واضحة أو أطروحة يريد المرافعة عنها بآليات منهجية واضحة، أما بالنسبة للدكتوراه، فيطلب من الباحث أن ينجز بحثا مبدَعا يرافع من خلاله عن أطروحة أو يحل إشكالية.

وفي ضوء ما سلف، فإنّ الباحث الذي لا يتوفّر على دراية جيّدة بالأبجديات المشار إليها، ليس حريا بالانتساب إلى الدراسات العليا، ومن كانت معرفته في هذا المجال مزجاة فإنّنا لا ننتظر أن يكون مشروع البحث واضحا في ذهنه.

وينتظر أن تستدرك مؤسسة الثقافة والعلوم هذا الخلل بالتكوين المنهجي المتزامن مع ورشة التكوين الخاص بالكتابة عن رسائل النور وبديع الزمان النورسي.

ثانيا: موانع البحث العلمي الرصين في الكتابات باللسان العربي:

١– الجذور المعرفية للباحث:

يعلم أنّ البحث في رحاب الخبرة المعرفية الإسلامية يستمد فيه صاحبه الموقف

مما يدرس من خزّان معرفي، يمثّل الجذور المعرفية للباحث والمتلقي، ولهذه الجذور آثار لا تنكر على الاختيارات والإنجاز العلمي، والغالب أن يصدر الباحث في مواقفه عن مرجعية (مدرسية أو اجتماعية أو شخصية أو علمية سواء كانت دينية أو فلسفية أو معرفية...)، وتكمن خطورة عدم الانتباه إليها في البحث فيما يأتي:

أ– بناء على الجذور يفحص ويمحّص المعارف التي يدرسها، كما يستدرك عليها بما استوثقته نفسه من معارف مستمدة من الجذور المشار إليها.

ب– فشو السلبيات في القراءة المؤطرة بالجذور المشار إليها، ويتجلى هذا الأمر فيما يأتي:

– شيوع التقويل المبطّن والذي من وسائله القراءة الجزئية لرسائل النور وحياة الأستاذ بديع الزمان النورسي.

– استعمال كلمات الأستاذ واقية من الصدمات، من نحو استثمارها في الخصومات الفكرية والمذهبية، وهو ما رام الأستاذ النأي بالرسائل عنه، هذا مع المخالفين في الأصول، فكيف مع الموالفين فيها؟

– ينتج هذا النمط من الدراسات صورا متشاكسة عن رسائل النور، كأنّها مجموعة من الجزر التي لا رابط بينها.

– شيوع البحوث المصطنعة لمقاصد مخالفة للغايات التي حددتها رسائل النور ووضعها الأستاذ.

٢– العقلية المصنوعة في المشرق:

خلق الله الإنسان (مطلق الإنسان) باستعدادات وقابليات، يشترك فيها الشرقي والغربي، العربي والأعجمي، ولنظام التكوين دور في تنمية تلك الاستعدادات أو تجفيفها أو إلغائها، والعقلية هي نتاج نظام التكوين، لهذا لا تأتي من فراغ، بل هي صنيعة نظام اجتماعي تعليمي وبحثي وللسياسة أثر عليه، فليس من طبيعة العقلية في الشرق أن تكون وفق نمط معيّن في التفكير والتدبير، ولكنّها أصبحت وفق هذا النمط المعيّن بفعل العوامل المشار إليها أعلاه، فامتازت الكتابة باللسان العربي (العبرة بالقاعدة وليس بالاستثناء) بما يأتي:

أ– غلبة الكتابات التمجيدية على حساب التحليل والفحص والتمحيص فضلا عن الاستدراك، وغالبا ما ترمي هذه الدراسات إلى الاستقواء بمضامين رسائل النور

وكلمات الأستاذ في التغلّب على رأي مخالف أو الظهور على تحليل مناوئ، وقد يميل فريق آخر من الباحثين إلى إنجاز بحوث إشهارية، ولأنّها أنجزت من قِبَل غير الموثقين يكون لها مفعول التشهير بمن كتبت عنه أو كتبت فيه.

ب- لعلّ من سلبيات هذا النمط من البحوث تضخيم الحاشية أو الهامش على حساب صلب (متن) البحث، بل كثيرا ما تتحوّل الحاشية إلى أصل والأصل يتحوّل بسبب عدم وضوح الرؤية إلى حاشية يمكن الاستغناء عنها، ولو أجلت النظر في الكتابات للاحظت ذلك بالعين المجرّدة، ويرجع الأمر بحسب تقديري إلى الذهول عن أصل موضوع البحث، فيضطر الباحث إلى التفصيل في غير بابه سدا لباب النقص الذي تخيّله في حجم البحث لا في مضمونه.

ج- يلاحظ التعامل الجامد مع مصطلحات تطورت دلاليا في المنظومة الفكرية للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي المتجلية في رسائل النور، يظهر هذا التعامل جليا في المسألة السياسية.

ثالثا: كيف السبيل إلى تلافي القصور والتقصير المشار إليه:

ليس من قصد الورقة عد ما سبقت الإشارة إليه، بل القصد معرفة الخلل بقصد تلافيه، والعمل على بعث ثقافة منهجية، تؤسس لعمل علمي أكاديمي رسالي، وبما أنّ البحث العلمي الأكاديمي لا يستورد، بل ينتجه المعني (الباحث) بناء على مكابدة ومعاناة شخصية ذاتية، فإنّه ينتظر من الباحث أن يتوقّف مليا عند المحطات الرئيسة في البحث العلمي الأكاديمي الجاد، وتتلخَّص هذه المحطات في جملة من المتطلبات:

١- المتطلبات المنهجية:

أ- حدّد إشكالية بحثك بدقة، أما إن كنت بصدد أطروحة ترافع عنها، فحددها بدقة أيضا، ثم بيّن الدراسات السابقة وما تستدرك عليها في مشروعك المقترح، فإن لم يكن للباحث إشكالية يرغب في حلّها أو أطروحة يرافع عنها؛ فليس حَرِيا بالتسجيل لنيل درجة علمية، من هنا لا يتصور علميا وبحثيا أن نطلب من الأساتذة التكرم بذكر تفاصيل موضوع أو مشروع، كالذي سجّل موضوعا في منهجية رسائل النور، ثم يطلب من الأستاذ تفاصيل الموضوع، والحقيقة أنّه طلب أقرب إلى الخيال، يحوّل الباحث من باحث منقّب إلى آلة تسجيل، ومن أنجز بحثا وفق هذا المسلك، هل يحق له أن يطلب تصنيفه في خانة الباحثين أم في خانة آلات التسجيل؟

ب– أجب بدقة لنفسك قبل الآخرين، ماذا تريد بهذا البحث أو مشروع البحث، وما درجة قرب هذه المقاصد بمقاصد المُصَنَف (رسائل النور)، هل تريد الفهم أم تريد تلوين بحثك بلون ما لأجل التلبيس؟ أم تريد تقويله لأجل الخلوص بأقواله إلى حيث تريد من غير نظر في ما ترمي إليه رسائل النور، وباحث هذا شأنه لا ينتظر منه أن يكون معرّفا برسائل النور أو منتفعا بها، بقدر ما يريد توظيفها في سياقات مخصوصة.

ج. إذا كانت مقاصدك موافقة لمقاصد المصنف، يفرض الترتيب المنهجي للإنجاز التساؤل عن مصادر أو مصادر الإنجاز، فإن امتلكت شيئا منها، انتقلت إلى اكتشاف آليات الخلوص إلى المطلوب، فتساءلت عن آليات بلوغ المراد.

٢– المتطلبات المعرفية الخاصة برسائل النور:

ينتظر من الباحث أن يكتشف بنفسه لا بالنقل المميزات العامة لرسائل النور، لهذا نستبعد من البداية إمكان الاستفادة من المميزات إنْ كانت مستوردة من غير فحص وتمحيص دقيقين، نعم للاستفادة من الخبرة المعرفية المتعلّقة بالعمل العلمي المتعلّق برسائل النور، ولكنها ليست بديلا عن الباحث في الاكتشاف الذاتي لعمد البحث وتفاصيله، ويفرض الخلوص إلى المتطلبات المشار إليها ما يأتي:

أ– تكتشف المميزات العامة لرسائل النور بالقراءة الشخصية الشاملة المتكاملة، وفق منهج تحليل استقرائي، يخلص بالباحث إلى القواعد الكلية (الكليات) بناء على تتبع الجزئيات، وهذا يمتنع بلوغه بجهود غيرك، فأنت صاحب الدور الرئيس في اكتشاف الجزئيات والربط بينها لأجل الخلوص إلى الكليات في إطار فهم شامل ومتكامل.

ب– الأصل أن يعمل الباحث على اكتشاف ميزة الاستيعاب والشمول في رسائل النور، شمول يكاد يغطي مجمل الميادين، رأسها السعي إلى استيعاب المدارس الإسلامية على تنوّعها، فهي دعوة إلى تجاوز الثنائيات الحدية (الباطن/الظاهر، العقل/القلب، العلم والعمل، السلفية/الصوفية...) والتنبيه إلى حاجة الأمة إليها، بل وحاجة كل جهة إلى ما يكمّلها من الجهة الأخرى، فكما أنّ سلامة الظاهر بخراب الباطن كلام لامعنى له، وهو ليس أقلّ شناعة من عناية بالباطن مع إهمال الظاهر، والشأن نفسه بالنسبة لسائر الثنائيات، فالقول بسلامة القلب من غير عمل يتجلى فيه سلامته إدّعاء فارغ لا شاهد إثبات له.

مقتضى هذا المسعى نفي النفي وإقصاء الإقصاء وعداوة العداوة، وكلّ من رام تلوين الرسائل بغير ألوانها الحقيقية أعيته الوسائل، وانكشفت حيلته ولو بعد حين.

ت– تؤسس رسائل النور لثقافة العمل الإيجابي، ومقتضى هذه الميزة التركيز على النواحي الإيجابية عند الآخرين، وإهمال التوقّف عند السلبيات، وكلّ من ركّزت على إيجابياته تنويها ونشرا، انتبه إلى إيجابياتك، والتكامل بين الإيجابيات في الأمة يحدث المنعطف المهم في نهضتها، ذلك أنّ من ركّزت على إيجابياته يتمنى لقاءك في كل لحظة، بل يتمنى أن يراك في المنام كما يراك في اليقظة.

ث– القراءة الفاحصة المتمعّنة لرسائل النور تدعو في الغالب الأعم إلى تمثّل مضامينها، تسعف قارئها على تمثّلها، فتنتج فيه الرغبة في التغيّر بالمكابدة والمعايشة، وهذا يستبعد الخلوص إليه بمجرد معاشرة رسائل النور أو مجاورتها.

ج– تمثّل رسائل النور قيمة معرفية وحركية نوعية مضافة في سياق العمل للإسلام في عصرنا الحاضر، بشرط اختيار المدخل الصحيح إلى رحاب رسائل النور، الرسائل ليست مشروعا مزاحما لما هو موجود، بقدر ما تمثّل إضافة نوعية لما هو موجود طلبا لأمر مفقود فيه، فالباطنية لأجل بعث عنايتهم بصلاح الظاهر، والظاهرية لأجل بعث عنايتهم بصلاح الباطن، إنّها نوع لفت نظر إلى ضرورة اجتماع القلب والعقل الدافعين إلى العمل بمقتضى الشريعة، إنّها دعوة علمية شاملة، مؤدّاها تطهير القلب بتمام اللجوء إلى الله، وإذا تطهّر قائد البدن تطهّرت سائر الجند، ورأس الجند العقل، وامتثلت سائر الأعضاء، فيجتمع في مسلك رسائل النور قناعة العقل وطهارة القلب والعمل بمقتضى الشريعة الغرّاء.

مقتطفات من قضايا النقاش في الندوة الثالثة للباحثين الأكاديميين الشباب:

عرضت قضايا كانت مثار جدل كبير في الندوة الدولية للأكاديميين الشباب، منها مواضيع المشاريع التي قدّمت، وخاصة البحوث التي تناولت بالدراسة والتحليل مشاريع في علوم الآلة أو مناهج إنتاج المعرفية في رسائل النور، ولعلّ رأس ما أثار النقاش الدراسات اللغوية والأصولية والتاريخية بل وحتى الفكرية.

تناولت المباحث اللغوية بالدراسة والتحليل من خلال مساهمة الأساتذة وعلى رأسهم الدكتورة ليلى محمد علي جمعة المشار إليه أعلاه، كما ظهرت العناية بالجوانب اللغوية في الرسائل من خلال مشروع الباحث دلير عبد الله أحمد من السليمانية في العراق، ومشروع الباحثة غنية محمد تومي من جامعة بسكرة من

الجزائر، ومشروع الباحث هشام فروم من جامعة عنابة من الجزائر، وتناول المباحث المتعلّقة بأصول التفسير من خلال مباحث الاستنباط الباحث حيدر خليل إسماعيل من جامعة الموصل بالعراق، وتناولت بالدراسة والتحليل الجوانب التاريخية لطلبة النور (١٩٦٠–١٩٩٧) الباحثة العراقية إيمان شريف غانم من جامعة الموصل، كما أثارت مشاريع أخرى نقاشا حادا بسبب غربة الباحثين عن مشاريعهم، كأنّهم جاءوا إلى الندوة لأجل تصوير بحوث جاهزة عوض مباشرة البحوث بأنفسهم، أو استقاء مضامينها من الأساتذة مباشرة دون عناء.

وسجّل أثناء النقاش العام استغراب الميل إلى الكتابة في مشروع لا صلة لمتبنيه بمضمونه، كما لوحظ أنّ مشاريع الدراسات التاريخية غُيِّب فيه الضبط المنهجي وتحليل الدراسات السابقة وبيان ما يستدرك عليها.

وسجلت في الموقف من الدراسات السابقة مواقف متباينة بين المؤطرين، فقد مال الأستاذ الكبير العلامة محسن عبد الحميد من العراق إلى ضرورة رفض إدارة ندوة الباحثين الأكاديميين الشباب إدراج عرض أوراق مشاريع البحوث التي لا تركّز على المشروع الحضاري لرسائل النور، بينما مال الأستاذ إحسان قاسم من تركيا إلى قبول عرض هذه المشاريع خاصة إذا كان الباحث من فضاء معرفي وأكاديمي ليس فيه العناية الكافية بالكتابة عن رسائل النور، بينما مالت مجموعة أخرى من المؤطرين على رأسهم الدكتور عبد الحكيم أنيس من الإمارات والأستاذ الدكتور عمار جيدل من الجزائر إلى أنّ إدراج عرض مشروع في الندوة لا يرتبط بالضرورة بالرؤية الحضارية لرسائل النور، بل يكفي لقبول إدراجها أن يكون موضوعها رسائل النور، سواء تعلّق الأمر بدراسة لغة رسائل النور أو مسالك استنباط فيها أو فلسفتها أو جمالها الفني أو...، ذلك أنّ الندوة خاصة بالباحثين الأكاديميين الشباب الذين اختاروا رسائل النور موضوعا لمشاريعهم البحثية.

كما عرفت جلسة اليوم الثاني عرض ورقة الدكتور أحمد محمد سالم أستاذ الفلسفة بجامعة طنطا بجمهورية مصر العربية، عرّف الباحثين من خلالها على تجربة الكتابة عن النورسي من خلال بحثه الذي نال به درجة الدكتوراه في الفلسفة، وبيّن المحاضر أنّ الكتابة عن النورسي تحتاج إلى زاد منهجي ومعرفي رصين، ييسّر للباحث التحكّم في عناصر مشروعه، وركّز المحاضر على أنّ الكتابة المثمرة تحتاج إلى مزاولة بحثية ذاتية ليس فيها للعشوائية والارتجال مكان.

وفي اليوم الثالث كانت سفرة بحرية في البوسفور لمشاهدة الجمال السحري لإستانبول، اشترك مع الضيوف كثير من المهتمين برسائل النور، استغرقت حتى المساء.

وفي الليل كانت جلسة مفتوحة لتقويم الندوة بصورة عامة انتهت بعد منتصف الليل، وبالرغم من الصراحة التي طبعت الجلسة، إلاّ أنها كانت جلسة حميمية، يسّرت للباحثين والمؤطرين التوافق على العناية العلمية الدقيقة بمشاريع البحث بالمزاولة الشخصية وليس بالتلقين أو النقل أوالسماع، وفق الأساليب المنهجية المعهودة في الدراسات الأكاديمية.

القاعة الثانية: الخاصة بالناطقين باللسان الإنكليزي

بدأت الجلسة بمداخلة أ.د. سيد فريد العطاس أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الوطنية في سنغافورة بعنوان ''تكوين المفهوم والنظرية في رسائل النور'' ووضح مصطلح المفهوم وأنواع النظريات وكيفية تكونهما بما في رسالة الخطبة الشامية من مفهوم ''اليأس''.

أما المداخلة الثانية فكانت للأستاذ الدكتور بلال قوشبنار الذي أمضى سنين في تدريس الفلسفة في جامعة مك كيل في كندا وهو الآن أستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة الأهلية في البحرين. وكانت مداخلته بعنوان ''الدلائل في رسائل النور'' موضحا كيفية الدفاع عن دعوى ومعرفة الدلائل الفلسفية والدينية، فتطرق إلى الدلائل المستوحاة من العقل والقلب والوحي والوجدان... وفتح المناقشة مع الطلبة حول أنواع الدلائل في رسائل النور. وخلصوا إلى أن الدلائل في رسائل النور ليست قاصرة على نوع معين فقط بل متنوعة تميّزت بالشمول والتكامل.

جاء الدور بعدها على أ.د. سعيد اوزروالي رئيس قسم الإنسان والمجتمع في جامعة يلدز التكنولوجية بإستانبول. فقدّم بحثه الموسوم بـ ''السير التاريخي والأعراف'' وبين تاريخ رسائل النور وسياقها، وتطرق إلى التفسير والتأويل والاجتهاد والمجدد وأمثالها من الاصطلاحات. وخصص قسما من مداخلته في ''كيفية قراءة النص وتحليله''.

كانت المداخلة الأخيرة للأستاذ الدكتور أيان ماركام رئيس المعهد الديني في فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية وأستاذ الفلسفة الأخلاقية. وقد ألف ثلاثا من الكتب في فكر النورسي. وكان عنوان مداخلته ''المنهجية في رسائل النور'' وأكد على

أن ما عرضته الحضارة في الوقت الحاضر من مقاييس للمعرفة، هي مقاييس غير منطقية، ونبّه المحاضر في السياق نفسه إلى أنّ منهجية النورسي مستندة إلى القرآن، تلك المنهجية التي أسست لقاعدة أن الحياة الدنيوية لا تكتمل من دون الحياة الأخروية. واستغل الدكتور الفرصة للتطرق إلى جانب مهم من حياة النورسي وهو أنه مع تقواه العظيمة كان سمحا مع الآخر بصرف النظر عن انتمائه.

أما الأكاديميون الشباب فقد تعهدوا بإحضار ورقة يضمنونها ما تعلّموه في الندوة لغاية نهاية الشهر السابع...

وختمت الندوة الثالثة للأكاديميين الشباب بحفل عشاء حضره جمع غفير من طلبة النور ووجهاء إستانبول، على رأسهم الأستاذ مصطفى صونغور (حفظه الله ورعاه) الذي بالرغم من حالته الصحية الصعبة، أبى إلاّ أن يشارك الأساتذة المؤطرين والضيوف الكرام حفلهم، وشباب الباحثين، فرحة عملهم المنجز، وختمت الجلسة بتسليم شهادات المشاركة لكل المشاركين من الأساتذة والباحثين، وبالمناسبة كرّمت المؤسسة الأستاذ الدكتور أيان ماركام لما قدّمه من مؤلفات نوعية عن رسائل النور، فقد صدر له ثلاثة كتب باللغة الإنجليزية، كما كرّم بالمناسبة الأستاذ الدكتور عمار جيدل لما يبذله من جهود في رئاسة تحرير المجلة.

* * *

استكتاب لملف العدد الخامس

اختارت المجلة في أعدادها اللاحقة تخصيص ملف العدد اللاحق والذي بعده - إن اقتضى الحال- لقضية ''الرؤية الحضارية في رسائل النور''، سعيا منها إلى المساهمة في التأسيس النظري لبعث حضاري مؤسس على أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وما يتطلّبه من استفادة من ثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تجلت في مشروع الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

تنتظر المجلة من الباحثين الأكاديميين المساهمة الفعّالة في إثراء ملف العدد ودراساته من خلال الكتابة في مختلف المشاريع الرسالية الساعية إلى البعث الحضاري المفضي إلى إحياء الأمة، لأجل استئناف رحلة التبليغ وتلبية حاجة الإنسانية للإسلام، أملنا كبير في أن يكون العدد اللاحق مميزا كسابقيه أو أحسن.

* * *

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضاءين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الاشتراك السنوي (عددان)

الاشتراك في تركيا: .....٢٠ ليرة تركية

الاشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: .....١٥ دولار أمريكي

الاشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: .....٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بايبارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق – الحي السابع
مدينة نصر– القاهرة – جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: “Introduction to the 4 nd” issue....3

Miscellaneous Studies

- Receb Tayyib Erdoğan: “Said Nursi: A Treasury Yet To Be Discovered”....9
- Prof. Dr. Mehmed Halil Çiçek: “The Main Features of Nursi’s New Approach to the Challenges of the Age”....13
- Dr. Ishaq Rahmani: “A Study of the Modes of Conversation in the Qur’an”....41
- Prof. Dr. Esteftan Siyufanov: “Humane Principles for Facing Contemporary Challenges in Said Nursi’s Works” 57

Dossier

- Dr. Muhammad ‘Abd al-Nabi: “Character Training in Bediuzzaman Nursi’s Works” 69
- Dr. ‘Abd al-Karim ‘Akyawi: “Practical Aims of Behavioural Training According to Bediuzzaman Nursi” 89
- Dr. Muhammad Qandil: “Nursi’s Method of Education”....107
- Dr. Edib Ibrahim al-Dabbagh: “An Outline of Nursi’s Educational Method” 129
- Dr. Khalid al-Samadi: “The Pertinence and Relevance of Nursi’s Educational Method”....143

Interviews, Publications and Conferences

- Interview: A Conversation with Abdullah Yeğin....163
- New Publications 173
- Conferences and Study Circles 177
- Request for comments on our fourth Dossier 192
- Information about publication of articles or papers in the Journal....193